خيري عبد الجواد

الأعمال الكاملة

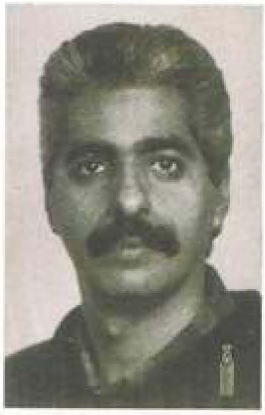

المجلد الأول

الأعمال القصصية

الديب رماح (1987)

حرب أطاليا (1988)

الفتوح الكبرى (1997)

قرن غزال (2001)

حارة علي أبو حمد (2008)

t.me/qurssan

خيرى عبد الجواد

الأعمال الكاملة

المجلد الأول

الأعمال القصصية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٤

t.me/qurssan

خيرى عبد الجواد

الأعمال القصصية

- حكايات الديب رماح
- حرب أطاليا
- كتاب الفتوح الكبرى
- قرن غزال
- حارة على أبو حمد

t.me/qurssan

سبع وأربعون سنة، هى كل عمره الحقيقى فى دنيانا، غير أن عمره الافتراضى ممتد معنا، ودائم التجدد.

إنه الروائى المتميز خيرى عبدالجواد الذى رحل عنا فى بدايات العام ٢٠٠٨ مخلفًا وراءه واحدة من أكثر التجارب السردية الحديثة ثراء.

ولد خيرى عبدالجواد فى ٢٤ يوليو من عام ١٩٦٠بحى بولاق الدكرور بالقاهرة، وقد عاش عمره كله، متشبعًا بهذا الخليط بما يحمله من ثقافات شعبية مختلفة. وفى شهادته الأخيرة التى كتبها لمؤتمر السرديات بالمغرب يقول خيرى: لقد رضعت من تلك الثقافة العشوائية التى أتاحها لى حى بولاق الدكرور.

أصدر خيرى عبدالجواد عددًا من الروايات والمجموعات القصصية، منها (العاشق والمعشوق)، (حكايات الديب رماح)، (حرب أطاليا)، (كتاب التوهمات)، (كيد النسا)، (يومية هروب)، هذا عدا اهتمامه بالسير الشعبية والفن الشفاهى، حيث قام بجمع وتحقيق عدد من السير الشعبية.

عمل بالهيئة المصرية العامة للكتاب بإدارة النشر وكان مديرًا لتحرير سلسلة مختارات فصول فى عصرها الذهبى، يقول عنه الروائى جمال

t.me/qurssan

الغيطانى: يمضى خيرى عبدالجواد بخطى راسخة فى اتجاه تحقيق تجربة فريدة ذات خصوصية للقص، من خلال قدرة هائلة على استيعاب التراث الشفاهى للشعب المصرى بأمثاله ونوادره وحكاياته وموروثه، ومن خلال اطلاع واسع وفهم إنسانى عميق للتراث العربى ينفذ الكاتب إلى حقائق إنسانية خالدة ببساطة نادرة وقدرة رائعة على إدراك أسرار الحياة والموت.

كتب خيرى عبدالجواد افتتاحيته السردية عام ١٩٨٨، عندما أصدر مجموعته الجميلة (حكايات الديب رماح) التى استقبلها القراء والنقاد بما يليق بها من حفاوة وتشجيع. وقدمها بدراسة نقدية مهمة الأديب والناقد إدوار الخراط، بعدها انطلق فى سماء الإبداع كالحصان الجامح، ليؤكد عامًا بعد عام على خصوصية تجربته، وتفرد حالته السردية البديعة.

t.me/qurssan

حكايات
الديب رماح

t.me/qurssan

إهداء

إلى أمى

الراقدة فى حضن أمها، الأرض مبتسمة

كما يبتسم طفل

ليس به ألم

مستغرقة فى سنة من النوم

يداها على صدرها الهادئ

تنامان فى دعة وسكون

أحكى لك عن زماننا

يا أم.

خيرى عبدالجواد

t.me/qurssan

هبت يوماً ريح شديدة، فاقبل الناس يدعون الله

ويتلون، فصاح جحا:

«يا قوم لا تعجلوا بالتوبة إنما هى زوبعة وتسكن».

جحا ذلك الزمان

t.me/qurssan

السحلية

لو يعلم أبى عند اجتماعه بنا على الطبلية أننى سوف أقتلها، ما كان تركنى. ولو أنه نظر فى عينى فى تلك اللحظة، ما كان رأى شيئًا.

حدثنى أبى كثيرًا عنها، وحدثنى جدى أبى، وحدثت جدتى جدى.

قالوا جميعًا أن بأحشائها مفتاحين، أحدهما للجنة والآخر للنار، ولم أكن قد رأيت الجنة وكنت قد صممت على أخذ مفتاح الجنة من أحشائها. لم آكل كثيرًا، نظر إلىّ أبى فى لوم حتى أكمل طعامى، زجرتنى أمى لأنى أصبحت مسلولاً مثل خيال المآتة من قلة الأكل. كان كل تفكيرى فى هذه اللحظة فى كيفية اصطياد واحدة. كنت أعلم أن حارتنا تمتلئ بها وكثيرًا ما كنت أراها، لكنى لم أكن أدرى أن بها مفتاحين. قال صديق لى أن مفتاح الجنة لابد وأن يكون من الذهب الخالص، خرجت إلى الحارة أحمل فى يدى علبة صفيح. كان الشارع يمتلئ بالناس والأطفال ولم يكن هناك سحال، قررت أن أنتظر عند أحد الشقوق التى أعرفها جيدًا وأعرف أن بها سحالى كثيرة، جلست على حجر بجانب الشق، أخذت أنظر إليه وقد بان أسفل الجدار مشتبكًا مع الأرض مكونًا خرمًا يتسع لإدخال يدى، مرت ساعة ولم تمر أمامى سحلية واحدة، مرّت ساعة أخرى ومرت من أمامى خنفساء، كان جسمى يقشعر ولكنى نظرت إليها باستهانة، تركتها تسير رغم رغبتى الشديدة فى دهسها بقدمى، شعرت بالجوع. فأخرجت من

t.me/qurssan

جيب البيجامة لقمة ناشفة أخذت أقضمها بتلذذ. كأن الأرض انشقت وابتلعت كل سحالى الحارة، مرّ النهار وأظلمت الدنيا ولم تكن بى رغبة فى الرجوع قبل أن أصطاد واحدة، لو أننى رجعت الآن لضربنى أبى كما يضرب أمى كل ليلة، أخذت أبحلق فى الخرم، شعرت فجأة برأسى يرتج، نظرت ورائى، أمامى، بجانبى، كان يقف ويده فوق رقبتى، نظرت إليه فى دهشة، أمسكنى من ياقة بيجامتى، جرجرنى فى اتجاه المنزل: انتهيت خلاص من دروسك عشان ترمح الرمح ده يا جبان. كانت رغبتى فى البكاء شديدة، لكنى لم أبك: أنا خلصت مذاكرة.

ضربنى بقدمه، وقعت، لم أبك، غور من وشّى على أوضتك، إياك أشوفك صاحى. صعدت إلى السرير، لم أكن أريد النوم، قررت أن أظل مستيقظًا تحت اللحاف، رأيتها، كانت تتسلل خارجة من الخرم، كان الخرم كبيرًا وكانت السحلية كبيرة جدًا، لم أر مثلها فى حياتى، أخرجت لسانها فبان مثل «الأستك» الرفيع، وقفت أمامى، نظرت إلىّ، نظرت إليها، كانت عيناها حمراوين، لم تكن معى علبة الصفيح، مدت لسانها فجأة فلسعنى فى وجهى، أخذ يلتف حول وسطى وعنقى وقدمى، أخذت تشدنى إليها ولكنى أمسكت بالأرض وأخذت أصرخ ولم يكن هناك أحد بالشارع فأخذت أتجه إلى فمها الواسع جدًا وابتلعتنى، تخبطت فى الجدران وكان الظلام شديدًا، اصطدمت بشىء صلب، كان يشع نورًا، لمسته، كان ناعمًا، تحسسته، كان مفتاحًا، بل كانا مفتاحين كبيرين. كانا متشابهين حتى أننى لم أعرف أيهما مفتاح الجنة، وضعت إصبعى على أحدهما، أشرت للآخر، قلت: حادى بادى سيدى محمد البغدادى، دى من دى. يا خيرالله، الأحسن دى. استقرت يدى على أحدهما، قلت: هذا هو مفتاح الجنة، حملته رغم ضخامته الشديدة، كانت هناك سلالم تتجه إلى أعلى، صعدت عليها إلى أن أصبحت فى الخارج، نظرت إلى السحلية، قلت: أنا متشكر...

t.me/qurssan

نظرت إلىّ وضحكت. نظرت إليها وضَحكت، ابتعدت عنى، حملت المفتاح فوق كتفى، أخذت أسير فى طريقى إلى الجنة، لم أكن أدرى أين توجد الجنة ولكنى أخذت أسأل بصوت عال: فين الجنة والنبى يا عم.

قال أبى إننى فقدت عقلى وصفعنى على وجهى، قمت مفزوعًا وأخذت ابكى لأننى لم أجد المفتاح بجانبى، نظرت إلى أبى، أحسست أنه أخذ المفتاح ليذهب بمفرده إلى الجنة، قررت أن أسبقه وكنا نجلس حول «الطبلية»، لم آكل كثيرًا وكنت أنظر إلى أبى، وجدت المفتاح يطل من زاوية عينه، خبأت نصف رغيف ناشف داخل جيب البيجامة، بحثت عن العلبة الصفيح قلت: أنا رايح أذاكر عند حسين صاحبى، لم أذهب لحسين، وقفت عند الخرم، نظرت إليه، كان بالأمس واسعًا، وجدته ضيقًا شديد الضيق، جلست على الحجر المواجه للخرم، وضعت العلبة الصفيح بجانبى، أخرجت نصف الرغيف الناشف، أخذت أمضغه، قلت: اطلعى يا سحلية عشان أسبق أبويا وأروح الجنة أنا وانت. كان الخرم يتسع، وكانت هناك سحلية تزحف خارجة منه، وقفت، أمسكت «زلطة» فى يدى، أخرجت لسانى: أنا رايح الجنة غصب عنكم. قذفت «الزلطة» لم تصب السحلية، قذفت أخرى لم تصب السحلية أيضًا. لم أجد زلطة أقذفها بها وقفت السحلية، استدارت لى، نظرت إلىّ، أخرجت لسانها، لم يكن طويلاً مثل «الأستك» جريت أبحث عن زلطة، نظرت ورائى، كانت السحلية تبتعد.

مارس ١٩٨٢

***

t.me/qurssan

الحاوى

لأن الجوع «كافر» فقد مضغنا العلقم وكان حلو الطعم فأكلنا حتى نزفت أحشاؤنا ديدانًا زرقاء.

ولأن الفقر نعمة كما قال أولو الأمر منا، فقد حمدنا الله كثيرًا، وقبلنا أكفنا عرفانًا. ولأن المرض يذهب السيئات، فقد طلبنا المزيد حتى نضمن الجنة.

ولأن الصبر مفتاح الفرج، فقد صبرنا ورفعنا أكفنا بالدعاء عسى أن يستجيب الله فيأخذ كل منا مفتاحه بعد طول صبر. ولأن حضارتنا تمتد فى أغوار الزمن سبعة آلاف عام، فقد جرينا خلف الأهرامات، وحملناها على أكتافنا فضحك العالم، وهذا بالطبع جعلنا سعداء لإعجاب العالم بحضارتنا.

ونحن بالطبع نعرف قيمة حورس فقد بعناه بجنيهات كثيرة وسكتت بطوننا.

(١)

عندما دخل الحاوى قريتنا لأول مرة، والتف حوله الناس، قال لنا: أستطيع أن اخرج لكم من البيضة بقرة «عشر».

قلنا: وهل تستطيع أن تخرج لنا خبزًا فنحن جوعى.

t.me/qurssan

قال: أستطيع أن أجعلكم أغنياء.

فصفقنا له كثيرًا، وانتظرنا خروج البقرة من البيضة، وانتظرنا أن تمتلئ بطوننا، ولكننا نمنا ونحن نصفق وننتظر، وعندما صحونا نظرنا إلى أنفسنا واندهشنا، فقد وجدنا أننا عرايا، ومشى الحاوى.

(٢)

قلنا: إذا جاء هذا الحاوى مرة ثانية فلن نجعله يخرج من قريتنا حيًا، وسنأخذ البيضة علها تتمخض بقرة وخبزًا. ولكن جاء الحاوى يحمل عصا فى يده.

قال: أستطيع تحويل التراب إلى ذهب بهذه العصا.

تجمعنا حوله.قلنا: لنر كيف تستطيع تحويل التراب ذهبًا.

قال: فلتصفقوا لى كثيرًا وتباركونى وتصمتوا، فأنا أستطيع تحويل التراب ذهبًا.

قلنا: لنصمت فالصمت من ذهب، وهذه حكمة بليغة نعرفها جيدًا، وصفقنا له، وباركناه، وقلنا نشترى بالذهب قصورًا، ونشترى ملابس جديدة، تذكرنا أننا جوعى فقلنا نشترى خبزًا، وانتظرنا ونحن ننظر فى التراب الذى سيكون ذهبًا، ولكننا نمنا، وعندما صحونا نظر كل منا إلى الآخرين. ولم نجد أذرعنا فقد أخذها الحاوى وهرب.

(٣)

ولأننا أصبحنا بلا أذرع، فقد أقسمنا إذا جاء الحاوى أن نقطع ذراعيه وقدميه أيضًا، ولكن جاء الحاوى يحمل زجاجة.

قلنا: سوف نقتلك أيها الحاوى.

t.me/qurssan

قال: لن تستطيعوا أيها الناس الطيبون، فأنا أحمل لكم إكسير الحياة.

قلنا: وما إكسير الحياة يا حاوى!!.

قال: لن تموتوا أبدًا، ستكونوا خالدين.

قلنا: ولكننا جوعى.

قال: لن تحسوا بالجوع.

فتجمعنا حوله وصفقنا له وباركناه، وقلنا لن نجوع بعد الآن، ولن نموت، سنكون خالدين، وانتظرنا أن يخرج إكسير الحياة، ولكننا نمنا، وعندما صحونا أصبحنا بلا سيقان، فقد أخذها الحاوى وهرب.

(٤)

قلنا أصبحنا عرايا، فقدنا أذرعنا، هرب الحاوى بسيقاننا، ونحن جوعى، ماذا تبقى لنا!! نظرنا إلى أنفسنا فوجدنا أن عقولنا مازالت تعمل فى رءوسنا، نسى أن يأخذها الحاوى، قلنا لن يجىء بعد اليوم لأنه نسى عقولنا، سوف يخاف أن نبطش به.

فى اليوم التالى جاء الحاوى يحمل آلة عجيبة بين يديه، قال: إنها سحرية.

قلنا: وما هى؟.

قال: يستطيع كل منكم أن يرى نفسه فيها.

راينا أناسًا يتحركون كانت الرؤوس منكسة، وسمعنا أناسًا يتكلمون.

قلنا: إنك حقًا ساحر أيها الحاوى. وكنا نريد قتلك.

قال: ما جئت بهذه الهدية إلا لأنكم طيبون.

t.me/qurssan

قلنا: فلندع له على حسن ظنه بنا ونشكر الله على نعمته التى اختصنا بها دون القرى، ولكننا جوعى بطوننا خاوية، أمعاؤنا كادت تذوب.

قال: ستنسون كل هذا الآن، لن تحسوا بالجوع، سيبنى كل منكم قصرا، وستخرج بقرة من البيضة، سيتحول التراب إلى ذهب، فقط اجلسوا لتشاهدوا.

قلنا: لنكن عبادًا شاكرين فقد أنعم الله علينا.

وعوض صبرنا خيرًا بهذا الرجل الصالح.

فى الصباح، نظرنا فلم نجد الحاوى، ونظرنا فلم نجد آلته السحرية، عندئذ شعرنا أننا جوعى لأننا لم نكن قد نمنا بعد.

أغسطس ١٩٨١

* * *

t.me/qurssan

الكائن الليلى

ابن الليل الذى لا يهمد هده المرض.

ابن الليل حار على الحكماء وكل من يعرف التشخيص ورجع كسير الجذع محزون الفؤاد، تساقطت الدعوات من حنكه الناشف، رفع كفيه اليابستين إلى السماء، قال:

شالله يا أهل الله، نَذّرن عليّا إذا خفّيت لأقيد دستتين شمع لأهل الله أدنى كفيه من حنكه، مسح شفتيه المتشققتين بباطن يده، ملّس على جلبابه.

قال: اللهم آمين.

ابن الليل الذى يعرف سر الليل كان يخافه الكل، ابن الليل سعدون جاء، ابن الليل سعدون ذهب، الخطوة تزلزل الأرض، الشارب قدادين مجدعة، الذراع يأكل بلد، الرجال حوله يبوسون الأرض تحت قدميه، يسيرون خلفه، البنادق فوق الأكتاف، الرعب يشل الصدور، بصة العين تنزل القلب فى الرجلين.

ابن الليل سعدون ليس من أبناء الأرض:

بنت «الهبلة» التى حطت فى البلد بالليل - كانت عاقرًا. كان العبط يركب النافوخ، اللون أبيض من حليب النهار، العيون سود كما الليل، الشعر راضع من حليب الشمس، بنت الهبلة تمشى فى البلد، الرجال يسيرون

t.me/qurssan

خلفها، يضاجعونها. فى الغيطان المروية، فى الخرابات المهجورة، قالوا: لا خوف علينا منها. هبلة بنت هبلة. أجمل من نسائهم، أنفقوا عليها، من يطعمها فهو رجلها. ذات يوم وجدت مقتولة على جسر الترعة، بجانبها طفل رضيع يبكى، قيد الحادث ضد مجهول، من أين أتت بالوليد؟. هى لا تلد!!.

حار الرجال، قالوا لقد ضاجعها الشيطان ثم قتلها. هذا الوليد ابن شياطين الليل، كادوا يقتلونه. أحس كل رجل فى القرية أن هذا الطفل من صلبه، تعهدوا بحمايته، ليكن ابن ليل، ويسمى سعدون.

السنوات الأولى من حياة ابن الليل سعدون كما رواها بنفسه:

الأرض فرشى، السماء لحافى، قالب طوب «نى» مخدتى، بلا أب، بلا أم بلا دار أحتويها وتحتوينى، أحسست أننى اختلفت عن أهل البلدة جميعًا. قالوا لا أصل لى ـ مقطوع من شجرة شيطان ـ فى السنوات الأولى أحسست بالحرمان، عوضنى أن كل بيوت القرية كانت بيتى، دخلت البيوت كلها، عرفت أسرارها، عندما خط شاربى فى وشى كانت نظرات النسوة قد تغيرت، تحسسن عضلات ذراعىّ النافرة، ركبت نساء القرية كلهن، فى البداية أحسست أننى أضاجع نفسى، شىء قريب إلى نفسى، تلاشى الشعور بفضل الإحساس بالدفء وطراوة الجسد، طردنى الرجال من القرية، فى الخلاء مرة أخرى، مواجهة الجوع والأرض الشراقى، لأنتقم منكم جميعًا يا ولاد الكلب. سوف أركب نساءكم أمام عيونكم، تعرفت على بعض أبناء الليل، أصبح اسمى كما الطبل، قيل الناحية كلها ترتعب منك يا بن الليل يا سعدون.

الآتى من صلب شياطين الليل يبحث الآن عن حكيم:

من يقدر يداوى العليل ياخلق الله، كما أيوب ابتليت.

t.me/qurssan

كمن يبتعد عن كلب أجرب ابتعد عنه رفاق الليل، هام على قدميه فى البرارى، شوروا عليًا يا خلق الله.

دى مصر فيها الدوا، دواك عند المشايخ.

شالله يا أهل الله، لآجى وأتمرغ على بابك يا سيدى يابو السعود يا طبيب الجراح.

من حضن الليل انفلت يبغى النهار، ركب أول قطار قادم إلى مصر، على أبواب المشايخ حط، دخل مقام السيدة، ملس على الحديد الناعم، أحس بالرطوبة تسرى فى جسده، دعك كفيه فى وجهه وجلبابه بكى، طبطب على كتفيه شيخ من مشايخ الضريح، يا بنى إن مع العسر يسرًا، رفع إلى الشيخ عينين ذابلتين، والنبى تدعى لى يامولانا. تدحرجت دمعة ساخنة استقرت على شفته السفلى، امتص الدمعة فأحس طعم الملح فى حلقه، ركب الفجر جلد السماء، حط ابن الليل على باب أبى السعود، قيل له: دواك عند أبو السعود، تنزل دقة زار ترجع عال العال، لو استعقدتم فى الحجر لأفاد. المرة الأولى فى حياته التى يذهب إلى المشايخ، قال: للضرورة أحكام. فاجأه إحساس بالوحشة لحظة أن ترك القطار، لم يترك قريته من قبل، طوفان من البشر، لا يعرفون قدرك يا بن الليل يا سعدون، أكبر شارب فى البلد ركع لك، أجمل نساء البلد ركبت. سمع التراتيل آتية عن بعد عبر المنازل المقامة حول الضريح، دخل المنزل المقام فيه الزار، شالله يا سيدى يا بو السعود، على الله يكون الشفا على يدك. الملابس البيضاء. الوجوه السمراء والحمراء، حلقة كبيرة يتوسطها رجال يمسكون دفوفًا، آخرون ينفخون فى مزامير، يرتدون الشيلان البيضاء فوق رؤوسهم والجلابيب، يرسلون شعورهم الطويلة خلف ظهورهم، يتمايلون يمينًا ويسارًا على أنغام الدفوف، فى منتصف الحلقة تجلس «الكدّية» تنشد الأناشيد وقد أحاط بها جمع من النسوة اللاتى يتمايلن على النغمات، أخذن يقعن مع تزايد الدقات فى الإسراع، انتهت الدقة، انصرف جميع

t.me/qurssan

الحاضرين والحاضرات، جلس العازفون والكدية لأخذ قسط من الراحة، تقدم سعدون، لمحته «الكدية»، طلبك يا عمدة!!.

مريض يا ست الشيخة. مفهوم، مفهوم، شوية بس نستريح وكل طلباتك مجابة. جلس على الحصير بجانب المرأة التى كانت تشرب الجوزة، الرجال أيضًا كانوا يشربون الجوزة العامرة بالكيف، تحسس جيب الصديرى واطمأن على حافظة نقوده، شعر بأن كل شيء يسير بسهولة ـ اللهم فوت الليلة دى على خير وارجع زى زمان، سعدون ملك الليل، الرجال حولى يبوسون الأرض و، آه.

وصف لما حدث فى حلقة الزار:

دخل الليل وقام عازفو الدفوف والمنشدون و«الكدية» وابن الليل سعدون، أحضرت المرأة كرسيًا وضعته وسط الحجرة، بجانب الكرسى كانت هناك قبة من القماش الأبيض يوجد بداخلها إبريق كبير من الفخار رصت على حوافه شموع أشعلت منذ قليل، جلس سعدون على الكرسى، أحضرت المرأة فرختين وديكًا، ربطت أرجلها، وضعت الديك على رأسه والفرختين على كتفيه، أخذت تخرج من شفتيها أصواتًا مبهمة، ارتفعت دقات الدفوف، تعالى صوت الفراخ فى الصياح ممزوجًا بدقات الدفوف وتراتيل «الكدية».

صلوا على النبى العربى، صلوا عليه، ماما الهدى آه يا ماما، بدر التمام يا «محمد»، نصبوا الكراسى لماما، ماما الهدى يا ماما، صاحب العوايد ماما، صاحب الدبايح ماما، نصبوا الميدان يا ماما، آه يا زهر الورد يا ماما.

أخذ ابن الليل «سعودن» يدور، تسارعت الدقات، وقع، يا سيدى يا أسمر على بابك جيت، قام، يا سيدى يا أسمر على بابك. تسارعت الدقات، ارتفعت يداه وقدماه فى الهواء، لم يعد يحس بجسده، سقط، سقط سقف الحجرة وهوت الأركان، تراقصت الظلال المضيئة لتصبح ضبابية شفيفة، هوى إلى الأرض، صرخ وعوى كما الذئاب، تقدمت منه

t.me/qurssan

«الكدية»، قالت: أهلاً وسهلاً، مين انت؟. تمطى الصوت فخرج عريضًا: أنا سيد هذا الكون. مين أنت؟.. أنا سيد هذا الكون، تطلب أيه.. أن أحكم هذا الكون. طب اهدأوا، طلباتكم كلها مجابة، ارتفعت دقات الدفوف مرة واحدة، ذبحت المرأة الديك والفرختين فوق رأس ابن الليل «سعدون». أخذت الدماء الساخنة تغمر رأسه وجسده، قامت المرأة والتصقت به، أخذت «تكبس» جسده بيديها قائلة: انصرفوا بسلام، طلباتكم على العين والراس.

هل خرجت الأسياد من جسد ابن الليل «سعدون»:

ابن الليل الذى رجع لا أحد يعلم عنه شيئًا، قيل إنه شفى ورجع كما كان ملك الليل، وقيل إنه لم يشف ومازال الجسد فسدانًا والدود يعربد كما ابتلى أيوب، وقال أهل الحكمة فى البلد «اللى تعب يوم بكره ينعدل ريحه»، وقال رجل: لعل حط فى بلدة أخرى.

أصل مخه فيه والعياذ بالله، وأمه هبلة بنت هبلة.

ابريل ١٩٨٢

***

t.me/qurssan

عن الدود والشرانق والموت

الدودة:

كان المطر ينزل شديدًا، وكنا نجرى وقعنا عند ملامسة أحذيتنا للأرض الموحلة، قمنا بعد أن لطخ الطين ملابسنا. قال «محروس»: يا مطرة رخى رخى، على قرعة بنت أختى، بنت أختى قرعة قرعة أخدها الديب وطلع يجرى، جرى «محروس» ينظر إلى المطر النازل من السماء وقد أغمض عينيه، جريت خلفه. أمسكت طرف جلبابه، قلت:

توت، توت. أكمل «محروس»: لف بيها حارة حارة بالطبلة والزمارة، يا مطرة رخى رخى، ضحك «محروس» ودمعت عيناه ضحكت ولكنى وقعت، قمت وأخذت أنظر إلى ملابسى، كان الوحل يملؤها، يدى أيضًا كانت مليئة بالوحل، لو أننى رجعت الآن لضربتنى أمى. أخذت أدعك عينى حتى احمرتا مسحت إصبعى مما علق به من وحل، غمسته فى فمى، مررت به على عينى، من يرانى الآن يجدنى أبكى، دخلت المنزل، صعدت على أطراف أصابعى، لمحتنى أمى، سألتنى ماذا حدث. نظرت إليها، رسمت تكشيرة كبيرة على وجهى، أردت أن ألفت نظرها لما يعلق بعينى من دموع، اقتربت منها، أنت بتعيط؟ أخذت تكشيرتى تزداد، تكلمت فظهر صوتى مبحوحًا. ضربنى عيل فى الشارع وجرى. أخذت أمى

t.me/qurssan

تخلع جلبابى، طبطبت على ظهرى: إياك تتخانق مرة تانية. مسحت عينى من أثر الدموع.

الأكل جاهز، روح أغسل وشك، اتجهت إلى الحمام وأنا أضحك فى سرى.

كنت آكل ويد أمى تلعب فى شعرى، قال أبى إنه قديمًا، عندما كان صغيرًا مثلى، كان يقوم بشراء الدود وتربيته، قال إنها تفرز نسيجًا يسمى بالحرير الطبيعى، وكان يكسب من هذه الهواية... قلت لأبى إن هناك رجلاً يقف بعربة كارو على باب المدرسة يبيع عليها دود القز، وقلت إن منظرها يخيفنى وأنها تأكل ورق التوت بفمها الصغير وأنه يتحول فى بطنها إلى «زبل».

عندما نظر إلى أبى فى دهشة كيف عرفت عن الدود كل هذه المعلومات أوضحت له أننى أقف لأشاهد العربة والدود كل يوم.

مددت يدى للرجل بقرش، أخذه وقال لى: ذكر ولا نتايه؟ أحضر الرجل صندوق سجاير كبيرًا فارغًا، وضع فيه الدودة «النتاية» وضع بجانبها بعض أوراق التوت الطرية، قررت أن تكون هوايتى تربية الدود، صرحت بهذه الرغبة لأمى، سوف تفرز حريرًا طبيعيًا، من الممكن أن أبيعه كما كان يفعل أبى، أخذت أبحث فى «الحتة» عن شجرة توت، وجدتها على جانب الترعة عند طابق الديابة، تسلقت الشجرة، ثنيت غصنًا كبيرًا يمتلئ بالورق، كان الغصن طريًا، أخذت أثنيه يمينًا وشمالاً، وكسرته، قمت بتنظيف صندوق السجائر من الورق الناشف ووضعت ورقا طريًا، راقبتها، وهى تأكل الورق فى شراهة، كانت سعيدة، وكان جسدها يقصر ويطول. وترقص ثنيت غطاء الصندوق عليها، وضعتها على المكتب قلت: سوف أشترى أكثر من

t.me/qurssan

واحدة، قد أشترى ذكرًا أيضًا.. فكرت أن اسأل الرجل ما الأحسن، الذكر أم النتاية. ولكن تذكرت أن أبى يعرف الكثير فقررت أن اسأل أبى.

الشرنقة :

أمى كانت نائمة، كان أبى وناس كثيرون بجانبها، وكنت أضع يدى على صدر أمى الذى يعلو ويهبط أراد الناس أن يأخذونى بعيدًا ولكنها قالت: اتركوه فتركونى.. نظرت إلى أمى ونظرت أمى إلى، جاء الطبيب بحقيبته السوداء، وأخذ يجس أمى بسماعته وينقر بأصابعه على ظهر يده، ثم أنه خرج، أبى وراءه.

وراء أبى خرجت، نظر أبى الى الدكتور. نظرت إلى أبى، قال: يلزمها غسيل كلوى، قال أشياء أخرى، لم أستطع فهمها، قسم الكلى الصناعية، عملية زرع كلى، قال أبى وأشار بيده: العين بصيرة واليد.. هز الرجل كتفيه وكتب فى ورقة أعطاها أبى، أبى عيناه تدمعان، جلس على الكنبة، وضع يده على رأسه، أسند رأسه بيده جريت حيث ترقد أمى، احتضنتها بذراعى، قبلتها فى عينيها، كانت عينا أمى تبكيان، بكيت، قال عمى: الجلسة الواحدة تتكلف مائة وخمسين جنيها.

كان أبى ينظر إلى الأرض، ورفع وجهه ونظر إلى عمى، خبط كفيه: والعمل؟ تلفت عمى حوله، كان صوته ضعيفًا: العمل عمل ربنا، يتولاها برحمته، عملنا ما علينا والباقى على ربنا. قال أبى: قصدك. نسيبها لحد ما.

تنحنح عمى وكح وبصق على الأرض: أنا شخصيًا لا أحتكم على مليم، مانت عارف البيرو..

أجيب منين بس يا ربى. دار أبى بعينيه فى الحجرة الضيقة، نظر إلى السقف الملىء بالبياض المعلق والذى يقع على رءوسنا: يارب أنت عليك جبر

t.me/qurssan

الخواطر، تجبر بخاطرها وتشفيها. قلت يا رب تجبر وتشفى أمى. طبطب أبى على ظهرى، مسح يده فى شعرى، ضمنى إلى صدره. يارب يا بنى يارب.

كانت الدودة قد كفت عن الحركة بعد أن نخرت فى الأبواب والشبابيك، وأخذت تنخر كل ما تجده من خشب داخل المنزل. لم تبق على شىء وقد شمل التلف كل الأشياء الخشبية، أحضرت لها أوراق التوت الخضراء الطرية ووضعتها فى الصندوق فلم تأكلها، لم ترقص كما كانت تفعل من قبل قال أبى إنها دخلت طور الشرنقة، كانت الأيام بطيئة، وكنت حزينا على الدودة، وقلت إنها سوف تموت من قلة الأكل، امتلأ الصندوق خيوطًا بيضاء تشبه حبة الفول السودانى، وقد اختفت الدودة تمامًا.

قال أبى: إذا أردت أن تجنى حريرًا طبيعيًا لابد أن تضع الشرنقة فى ماء ساخن.

قلت لأبى إنها سوف تموت لو وضعتها فى ماء مغلى. قال لابد أن تموت وإلا تحولت إلى فراشة بعد أربعين ليلة تشق الشرنقة وتخرج إلى الهواء، بذلك يضيع الحرير ولا أكسب شيئًا قلت سوف أضعه فى الماء، وقلت سوف أبيع الحرير وأعطى ثمنه لأبى حتى تشفى أمى.

كانت الليلة التاسعة والثلاثون من دخول الدودة الشرنقة، قلت سوف أضعها فى ماء مغلى عند عودتى من المدرسة. عدت من المدرسة مبكرًا، وصعدت درجات السلم، ركبت الدرابزين، ونزلت عليه، ثم صعدت مرة أخرى، كان هناك ناس كثيرون، دخلت وكانت أمى نائمة، الوجوه السوداء المرتدية سوادًا، تسللت إلى أن جلست بجانبها على السرير، كان شخيرها يرتفع، مغمضة العينين، أخذت يديها فى يدى، قبلتهما بعد لحظات

t.me/qurssan

انفجرت إحدى المتشحات بالسواد باكية، تعالت أصوات السواد وكن يغنين: يا صغيرة مال السرير بيكى، مال السرير كسر عناديكى. وكنت أجلس ووجدت نفسى ارتفع فى يد أبى، نظرت إلى أمى، مغمضة العينين كانت أمى، لم أسمع شخيرها، مزمومة الشفتين كانت أمى، ولم يكن صدرها يعلو ويهبط، ملأ الصوات البيت، وكانت هناك امرأة تغنى وتلطم الخد اليمين، وتغنى وتلطم الخد الشمال:

يا صغيرة يا أم البدل ألوان، عدمك خسارة يا شباب صغار.

ضمنى أبى إلى صدره فشعرت بشىء رطب يبلل وجهى، رأيت أبى ينهنه قلت: أنا ها أبيع الحرير. غمغم: إنا لله وإنا إليه راجعون. تخلصت من حضن أبى. جريت حيث أضع صندوق الدود، جلست بجانبه، فتحته، انطلق شىء من الصندوق وطار، لم أتبين ملامحه ونظرت إلى الصندوق، كانت الشرنقة مشقوقة نصفين ولم تكن الدودة بداخلها، بحثت عنها فلم أجدها.

إذا تحولت الدودة إلى فراشة فقد ضاع الحرير غضبت غضبًا شديدًا، كنت سوف أبيع الحرير وأعطى الثمن لأبى فتشفى أمى، بكيت، جريت إلى أبى، أبى كان يبكى وكنت أريد أن أقول له، ولكنى بكيت ضمنى إلى صدره، تعالت أصوات النسوة الملتفات حول أمى التى كانت تنام، وكنت أرى ضحكتها، وهى تنظر بطرف عينيها، ولكنى أخذت أنصت لصوت المرأة التى كانت تغنى:

أم الولاد مالت وعدلوها، ولادها زى الحمام جوها ياموت لا تاخد حبيبتنا، خللى الحبيبة لاجل عازتنا، قلت لأبى الذى كان يبكى: الدودة طارت يا بويا. هربت.

t.me/qurssan

نظر إلى أبى، كانت دموعه قد ساحت على وجهى، واستقرت على شفتى فذقت طعم الملح. قال أبى:

العوض على الله.

بصقت تحت رجلى وفعصتها بالجزمة فى البلاط قلت: العوض على الله، بكيت.

t.me/qurssan

المواجهة

ذات ليلة. دخل علينا أبى يحمل فى يده قطة كبيرة.

قال هى من النوع الرومى. أعجبتنى القطة، وكنت قد عجبت القطة، أخذت تتمسح بى وكنت أضربها، ولكنى قبلتها؛ لأنها كانت تحبنى قال أبى إن القطط ملائكة. سألت أبى ما معنى ملائكة؟

ونظرت إلى أمى التى كانت تنظر إلى بجانب عينيها فخفت.

إياك تضربها لاحسن يأذوك.

نظرت إلى أبى متسائلاً: مين دول اللى يأذونى؟

طبطب أبى على ظهرى ونظر إلى أمى: يا شيخة الولد لسه صغير على الحاجات دى، أحسن يخاف. هل الملائكة تخيف لم أقل لأبى حتى لا يغضب ويطرد القطة.

كنت نائمًا فى حضن أبى، انتقل أبى إلى حضن أمى، رقدت القطة فى حضنى. تحسست جسد القطة كان دافئًا، وكان شعرها ناعمًا طريًا. نمت ورجل القطة فوق رقبتى ويدى فوق ظهرها، صحوت فجأة على صوت فى الحجرة، تلفت حولى، لم أر شيئًا، نظرت إلى القط، عيناه تبرقان، هززته، كان نائمًا، وكانت عيناه مفتوحتين، سمعت الصوت مرة أخرى، كان صوت القط.

t.me/qurssan

أبى «يشخر» دائمًا، كان القط يشخر مثل أبى، ولم أكن أشخر والقط لايريد أن يسكت، ولا أعرف كيف أنام، ضربت القط، ضحكت من منظره، وهو يقوم مفزوعًا، وقف على رجليه تقوس ظهره وطوح بيديه الأماميتين ورجع برجليه إلى الخلف، أردت أن ألاعبه فأمسكت شاربه، زعق فى وجهى وبانت أسنانه، جذبت شاربه، رفع يده وضرب بها يدى، نظرت إلى يدى وصرخت، كان الدم يغمر يدى ولحس القط يده، ضربته بيدى المليئة بالدماء فضربنى بيده التى كان يلحسها. صرخت ولم يصرخ القط، جريت إلى الباب وفتحته، كان القط مقوس الظهر ممدود اليدين والقدمين، عيناه تلمعان، نظرت إلى عينيه فخفت، قلت: يمكن القط ده ملاك!! جريت إلى الحجرة الأخرى. كانت الحجرة مضاءة، وكنت أرقد فى حضن أبى، أبى يرقد فى حضن أمى، وأمى ترقد فى حضن أبى، وأنا أرقد فى حضن القط، القط ير.. دفعت الباب فلم ينفتح، وكان الظلام شديدًا خارج حجرة أبى وأمى، خبطت على الباب ولم يفتح أحد، خبطت مرة ومرة ومرات كثيرة، ولم يفتح أبى، لم تفتح أمى، صرخت ولم يسمعنى أحد، نظرت ورائى، كان القط يتمطى، وكان يلحس جسده، مد يديه وقدميه، ظهره قد تكور، نظرت إلى عينيه، وكان ينظر إلى فى غضب، عيناه تلمعان فى الظلام، خفت فصرخت، خبطت على الباب مرة أخرى، جلست على الأرض، كان يهم بالقفز، صرخت كان القط يصرخ. أنا مش خايف ـ كنت خائفًا ـ أنا ها أضربك. يداه وقدماه ممدودتان، يداى وقدماى ممدودتان، عيناه تلمعان، عيناى لا تلمعان، صرخت، كان القط يصرخ ـ أنا مش خايف منك. تقدمت منه، وكنت أمسك فى يدى «بالمقشة» أخذ القط يتراجع وأخذت أتقدم، وقلت سوف يأتى أبى، وسوف أقول له أن يطردك يا قط، أنا مش باحبك.

t.me/qurssan

رفعت المقشة فى يدى، لم يكن القط مقوس الظهر، ولم تكن يداه وقدماه ممدودتين.

كانْ القط يتراجع، كنت أتقدم.

مايو ١٩٨٢

***

t.me/qurssan

النحلة

تريك . تراك

زعقت للولد «شعبان» ولد الحاج «عبدالسميع»:

تريك.

رد على الولد «شعبان» ولد الحاج «عبدالسميع» أخو الضابط «عبد الرازق»: تراك.

قلت وأنا أمد يدى بالعصفور الخشب: عفريت. زعق، وهو يرمى جزعه للأمام: بعو.

طوحت العصفور الخشب بكل قوتى، وضعت قطعة الخشب الأخرى على الطوبتين، انتظرت الولد «شعبان» حتى يرمى العصفور الخشب، لكنه رماه، ولم يصب الخشبة على الطوبتين فأخذت أضرب سن العصفور بقطعة الخشب الطويلة ينط ويذهب بعيدًا أضربه ويذهب بعيدًا، ينط وأضربه، يذهب بعيدًا، حتى زهقت فقلت للولد «شعبان» أخو الولد سمعة: أنا زهقت، مش لاعب تانى، رميت قطعة الخشب ورميت العصفور وطلعت بيتنا المواجه لبيت الولد «شعبان» صاحبى الذى أكلت معه الفول الحراتى الذى نسرقه من أول الحارة، ودخنا أعقاب السجائر فأصبنا بالكحة وحريق فى الصدر، وقبلنا البنت «توحة» ذات الثديين الكبيرين جدًا،

t.me/qurssan

والحبوب التى تملأ الوجه، ضربتنى أمى، وقالت لا تفعل هذا مرة ثانية، ولكنى قلت أن البنت «توحة» هى التى قبلتنى ، وأخذت تفحص جسدى بيديها وجسدها. قالت أمى: إياك تعمل كده تانى، وإلا أخلى العفريت ياكلك.

قلت لأمى أننى رأيت العفريت أبو رجل مسلوخة ولعبت معه.

ضحكت أمى وقبلتنى. ثم أعطتنى قرشا، نزلت الشارع مرة ثانية لأشترى «حلبسة».

كان الولد «شعبان» يلعب هو والولد «سعيد» قورة وكنا نسميه «سعيد القرص» فيمسك زلطة ويجرى وراءنا، كانا يلعبان «الناكية»، وكان «شعبان» يلبس بيجامة جديدة. قلت إن أبى سوف يحضر لى بيجامة جديدة وحذاء يلمع ، وأردت أن ألعب «الناكيه» ولم يكن معى «جعران» ولا «قيطان» فقلت: تيجو يا عيال نلعب تريك تراك.

هز «شعبان» كتفيه وغمز سعيد قورة بعينه فدخلت البيت وأنا أبكى.

كان أبى يضرب أمى ويزعق، وكانت أمى تعيط وتزعق، فزعقت : أنا عايز قرش . زعق أبى وزعقت: أنا عايز قرش. زعق أبى وزعقت أمى فجريت، وكان «أستك» بنطلون البيجامة ينقطع وأقع وأعيط. قلت لـ شعبان»: ادينى الجعران ألعب حبة. لعب «شعبان»، وأخرج لسانه الأحمر الطويل الذى يتحرك مثل الثعبان الصغير الذى نزل من بطنى حين عطتنى أمى شربة ملح. و«سعيد القرص» وضع الجعران على الأرض ـ خل الدائرة.

إدينى ألعب شوية وحاجيبه وقال: توء.. توء ماليش دعوة.

قال «شعبان»: أنا معايا قرش. ودخل أبوه البيت يحمل فى يده بطيخة كبيرة جدًا فدخل معه، عاد شعبان يحمل شقة بطيخ كبيرة حمراء قلت: أنا

t.me/qurssan

لما أجيب حاجة أديلك، مش أنا باديلك يا شعب. قال الولد «شعبان» صاحبى أخو الضابط «عبدالرازق»: بس انتو ما عندكوش بطيخ، ولا أى حاجة خالص.

قلت لـ «شعبان» وكان الولد «سعيد القرص» واقفًا:

دا أبويا جاب حاجات كتيرة.

نظر شعبان إلى ولعب حاجبيه، قضم من شقة البطيخ ومضغها وقال: الله حلوة قوى. أكملت وكمان هايجيب لى بيجامة حمراء وجزمة تلمع.

ضحك الولد شعبان، قضم، مضغ، قال: الله مسح النازل من فمه بظهر يده وقال: انت بيجامتك مهريدة وقديمة، أبوك بيضحك عليك. اقتربت منه، أمسكته من ياقة بيجامته الحمراء الجديدة:

أبويا مش بيضحك عليا وها يجيب لى بيجامة حمراء وجزمة جديدة تلمع .. ضربت الولد شعبان صاحبى على خده فلم تتوقف أسنانه عن مضغ البطيخ، أمسكت به ودفعته بعيدًا، ولكنه لم يقع ولم تقع شقة البطيخ، قال:

مش ها تلعب معانا الناكية، أنا مخاصمك.

قلت وأنا أبصق على إصبعى الصغير: طظ، مشيت.

الناكية:

مرضت أمى وماتت، انقلب بيتنا صواتا وأناسًا كثيرين ونساء يرتدين السواد، أيضًا كراسى كثيرة جدًا، ركبت العربة السوداء وطبطب عمى «حسين» على ظهرى بكف يده الكبيرة الناشفة ومسحت خالتى أم «شعبان» صاحبى يدها فى شعرى.

دخلنا الترب، وكنا لمة كبيرة، وكانت النسوة يزعقن ويصوتن ويضربن على الخدود بأكفهن. جلست بجانب شجرة التوت الحمراء المواجهة للتربة

t.me/qurssan

التى سوف تنام فيها أمى، كانت دودة صغيرة تزحف على الأرض زعقت على أبى:

شوف يابا الدودة الخضرا دى. لم يلتفت إلى أحد، وكانوا يحفرون فأخذت أتتبعها حتى اختفت فى أحد الشقوق، المرة الأولى التى أرى فيها دودة خضراء، عند دخولنا المنزل قلت لأبى: إحنا سيبنا أمى هناك لوحدها.

نظر إلى أبى، نظر أبى إلى الناس، نظر الناس إلى طبطب على ظهرى، قلت له: إدينى قرش يابا.

أخرج أبى من أنفه هواء كثيرًا، وأعطانى قرشًا أخذته، وخرجت، كان العيال يلعبون الناكية، لم يكن معى جعران. قال «شعبان»:

تعالى العب معانا، خد العب بجعرانى شوية.

قال «سعيد القرص»: خد العب بجعرانى أنا، هى أمك مش ماتت!.

قلت: أيوه ماتت، سبناها فى الترب لوحدها وجينا.

أخرجت القرش، وقلت أننى ذاهب لأشترى جعرانًا وقيطانا فذهبوا معى.

اشتريت واحدًا، وكان سنه طويلا، قلت سوف ألعب معهم وأغلبهم، أغلب «سعيد القرص» وأكسر له جعرانه، وأغلب «شعبان» صاحبى وأفلق جعرانه نصفين بسن جعرانى «الفولى».

بدأ اللعب، لففت القيطان على الجعران، أمسكت طرف القيطان بين أصابعى، طوحت به فنزل على الأرض دائرًا، فردت أصابعى على الأرض، التقطت الجعران على كفى وكان يدور، فوق دائرة الناكية تركته يسقط،

t.me/qurssan

جرجرته بالقيطان خارج الدائرة.. مرت ساعة ودخل «شعبان» البيت وعاد يحمل «سندوتشا».

مرت ساعة أخرى، ولم يقع أحد فى الدائرة، ذهب «سعيد القرص» وعاد يحمل لقمة عليها جبنة. كنت أشعر بالجوع، ولكنى لم أتحرك، قلت لـ«سعيد»: إدينى لقمة عليها جبنة يا سعيد . هز «سعيد» كتفيه: توء، توء أنت بتدينى حاجة؟

مش ها أديلك.

قلت: بس أنا أمى ماتت ورحنا الترب وسيبناها هناك.

وأنا مالى، ماليش دعوة ـ قال «سعيد»:

تركت العيال، ودخلت البيت، كان أبى جالسًا وأناس كثيرون، ولم يكن هناك أكل، قلت لأبى: أنا جعان يابويا.

نظر إلى أبى فبانت عينه اليمين بيضاء، خفت.

روح العب دلوقت.

بس أنا جعان قوى يا بويا.

خرجت إلى العيال، كانوا يأكلون، قلت: مين يراهنى اللى أفلق له جعرانه يدينى ايه؟ رد «شعبان» نديلك قرش وقال «سعيد القرص»:

تبقى جدع وراجل.

اللى أفلق له جعرانه يدينى لقمة.

نظر إلى العيال وضحكوا. القرش أحسن يا عبيط.

قلت: بس أنا جعان.

إذا كسرت الجعران أديلك لقمة عليها جبنة. قال «سعيد»:

t.me/qurssan

رد «شعبان»: وأنا أديلك نص الرغيف.

التف العيال، تكونت دائرة كبيرة، وكان العيال يضحكون، وأنا ألعب وقلت لـ «شعبان» صاحبى ألا يأكل من الرغيف حتى يعطينى النصف كما قال.

نزل الجعران على الأرض يزن ويدور، زن مثل النحلة التى قرصتنى فى عينى، ووضعت أمى مكان القرصة لبناً من صدرها حتى يبرد الوجع، فى المرة الأولى نقر السن جسم الجعران الموضوع داخل الدائرة، قلت أننى سوف أفلقه فى المرة الثانية. لكنه لم يفلق وضحك العيال، وقال «شعبان» إنه سوف يأكل الرغيف أخذت أضرب جعران «شعبان» بسن جعرانى، وأخذ يأكل الرغيف حتى انتهى منه، ضحك العيال وقالوا: المره أهو أهو. المره أهو أهو ولكنى قلت: أنا راجل غصب عنكم يا خويا أنت وهو. وكنت داخل الدائرة فدفعت الولد «سعيد» بيدى، وخرجت قذفت الجعران الذى فى يدى فوق حجر فانكسر، دخلت البيت، كان أبى وخالتى عايدة زوجة عمى «صالح» جارنا يلعبان، وكان أبى يضحك ويقرص خالتى «عايدة» زوجة عمى صالح. وهى تضحك وتقرص أبى

قال أبى: خش اتخمد فى سريرك يا وش الفقر.

دخلت، نمت على سريرى، دفنت رأسى تحت اللحاف.

كانت خالتى «عايدة» زوجة عمى «صالح» تضحك ضحكة طويلة، وكنت أنام، وكانت شقة البطيخ الحمراء الكبيرة، الكبيرة جدًا، ياه.. أخذت أتسلقها. أطلع فوق، فوق حتى جلست فوقها ودلدلت رجلى، أخرجت سكينًا كبيرًا جدًا. أخذت أقطع وأمضغ وأقول الله، أقطع أمضغ، الله.

كما كان يفعل الولد «شعبان» صاحبى أخو الولد سمعه.

t.me/qurssan

حكاية البنت «زقلط»

لو سمعت الحكاية من البداية لصدقت ما أقول. فإن العفريت لما طلع لى، وكان شكله شكل حمار، وقال لى دلنى على الطريق. فعرفت أنه عفريت حمار، وأنه كشف نفسه بنفسه، فقلت أضحك عليه، وقلت له أدلك بشرط أركب فوقك، وقبل أن أركب أغمدت مسمارًا فى مؤخرته، فنهق وشهق ورفس الأرض بقدمه، ومرغ جسمه فى التراب، وأخذ ينط، وكنت أضحك، وقال أرحمنى ياسيدى وانزع المسمار، وأنا أفعل ما تطلب، فلما تيقنت أن العفريت أصبح حمارًا بحق وحقيق، وأنه لن يتحول إلى عفريت إلا إذا نزعت المسمار ـ ركبته. وفوق ظهره هززت رجلى، وعلى قفاه ضربته، ثم إننى كلمته وقلت: حا يا حمار.

فشهق ونهق ورفس وضرب الهواء ببوزه وقال: حاضر يا سيدى، ارحمنى وشيل المسمار. ولما وصلت حد البيت قفزت إلى الأرض، سقت الحمار حتى باب البيت، واربت الباب وأنا خلفه، أدرت الحمار حتى أصبح ظهره فى وشى، مددت يدى، ونزعت المسمار من تحت ذيله، بسرعة أغلقت الباب حتى لا يتسرب ريحه إلى بيتنا فيحرقه.

ضحكت البنت «زقلط» الطويلة ذات الضفائر الطويلة، والضحكة الطويلة التى تشبه صوت الضفدعة.

t.me/qurssan

قالت خالتى «جازية» إنها عانس وبايرة، وإنها مثل البيت الوقف. وكنت أجلس بجانب البنت «زقلط» فتقوم وتبوسنى فى فمى بوسة طويلة فأتضايق وأقول:

ريحة حنكك وحشة يا «زقلط» فتقف وتضربنى على قفاى بكفها الكبير فتفرقع وأعيط. وأحلف أنى لن ألعب معها مرة ثانية، ولكن البنت «زقلط» التى تسكن أمام بيتنا تجىء عندنا وتقول: ماتزعلش منى ومش ها أضربك. فأطلب منها ألا تبوسنى فى فمى مرة ثانية لأن ريحته وحشة».

فتقول : مش ها أبوسك من حنكك، أبوسك من خدك. فأوافق أن تبوسنى من خدى، وتبوسنى ولسانها يلحس خدى فأقرف وأتضايق وأقول: أنتى مقرفة يا «زقلط» فتضربنى على خدى وعلى قفاى بيدها الكبيرة الثقيلة الناشفة فتفرقع وأعيط، وعندما أقول لأمى أن البنت «زقلط» تضربنى تقول: ما تلعبش معاها تانى.

***

فى بيتنا تسكن خالتى «أم نبيل» زوجة أبو «نبيل» الترزى، والذى لا يرجع البيت إلا فى آخر الليل، فتأخذنا ونجلس على مصطبة السلم، وتحكى بالليل والدنيا ظلام، وأنا أخاف مما تحكيه «أم نبيل» فإنها لما رجعت من الشارع، وجدت الباب مفتوحًا وكانت أغلقته قبل أن تمشى، ولم تأخذ فى بالها، ودخلت الشقة، لكنها وجدت الأرانب تملأ الشقة عن آخرها فقالت من أين أتت الأرانب! وعندما نظرت وجدت عيون الأرانب تطق بالشرر، فأيقنت أنها عفاريت عاملة أرانب، رمت ريقها فى عبها، وقرأت الكرسى، فأخذوا يحترقون، وهم يصوتون ويقولون: الرحمة الرحمة - وهى تقرأ، وتقرأ حتى أحرقتهم جميعًا.

وتلمسنى «زقلط» فأفزع وأرتعد فتقول لى «أم نبيل»:

t.me/qurssan

اسم الله عليك يا خويا، الشر بره وبعيد.

أقول وأنا أتلفت حولى: هى العفاريت بتنقلب أرانب؟ إزاى أعرفهم لو طلعوا لى؟

تقول لى خالتى «أم نبيل» ما بيطلعوش إلا إذا كنت وحدك.

وترد البت «زقلط» أنا معاك ومش ها يطلعوا لنا.

بس إنتى بتبوسينى وأنا باقرف يا ختى.

فيحمر وجهها وتقرصنى وتنظر إليها «أم نبيل» وتضحك وتقول لها: يا شقية، ربنا يعدلها لك ويرزقك بابن الحلال، وتنظر «زقلط» إلى الأرض فى كسوف شديد.

ولم أطلع بيتنا. ويطفئ أبى نور الشقة، أخاف وتأخذنى أمى فى حضنها وتقول:

من إيه بتخاف؟. فأقول: من العفاريت الأرانب.

وترد أمى وهى تضحك:

ما عفريت إلا بنى آدم، نام و ما تخافشى، إنت معايا، فألتصق بها والدنيا حر، والعرق البارد يملأ وجهى، ولكنى ألتصق حتى أننى لا أستطيع أخذ نفسى وأحس «بخروشة» فأكتم نفسى حتى أسمع جيدا صوت العفاريت وهم يتحولون إلى أرانب، إلى أن أنام.

كان الرجل يعلق «الكهارب» على بيتنا وفى الشارع، وكانت أمى تزغرد ونساء الشارع، وهن يفركن «الكسكسى» فى الطشت الكبير. وكنت أقف بجانب البنت «زقلط» وقالت خالتى «أم نادية: ربنا يعدلها لك يا «زقلط» يا بنتى يارب. وانكسفت «زقلط» وأدارت وجهها للناحية الأخرى وقرصتنى فى وركى وقالت:

t.me/qurssan

تعالى نزغرد قلت لها أننى لا أعرف، ولكنها وضعت يدها على فمها وأخذ لسانها يطلع وينزل، وكانت الزغرودة تخرج صواتا قلت: أنتى رخره مابتعرفيش تزغرتى ياختى. أخذتنى من يدى ومشينا إلى شارع عشرة، وكان الزرع طالع كبير جدًا والأرض مروية، والدنيا كحل. قلت: أنا خايف ياختى.

طبطبت على ظهرى وقالت: ماتخافش، أنا معاك وكمان أوعى تخاف احسن يطلعولك. ودخلنا الزرع، وأخذت تبحث عن ضفدع حتى وجدتها وكانت كبيرة جدًا. أخذت تنظر إلينا بعينيها الكبيرتين وتبلع ريقها وتنط. جرينا خلفها، ونحن ننط ونحلق عليها إلى أن أمسكناها. قلبتها «زقلط» فى كفها وكمان قرفان يا ختى، ويمكن كمان تكون ضفدعة عفريت. ضحكت «زقلط» وقالت إن العفاريت ينقلبون، أرانب وحميرا فقط، وأنهم لا يتحولون ضفادع أبدا.

قلت لها: إلحسى أنت الأول. فلحست بطنها الأبيض بلسانها الأحمر الكبير، وكانت تلحس وتبلع ريقها، فأخذت ألحس أنا أيضًا، ولكنى رميت ريقى على الأرض، أبلع ريقك عشان تعرف تزغرت. وكنت أحس بالقرف، ولكن البنت «زقلط» لفت رجلها حول رجلى فوقعت على الزرع ووقعت فوقى.

وقالت: يالله نلعب عريس وعروسة.

قلت: لا وكنت خائفا أن تضربنى زقلط.

فقلت: نلعب فى البيت عريس وعروسة.

قالت: نلعب هنا يا بلاش.

قلت: بلاش. ولكنها أخذت تبوسنى فى خدى وكانت المياه تملأ الأرض فملأ الطين هدومى، وأخذت هى تفك أزرار بنطلونى.

t.me/qurssan

فقلت : لو جت العفاريت دلوقت ها يقلبونا حمير أو أرانب ومش ها نعرف نرجع بنى آدمين تانى.

وقالت: يا له بوسنى، فبوستها، وأخذت تحك فخذيها برجلى وكانت تصرخ.

فقلت: مالك «زقلط»؟ لكنها لم تتكلم واتسعت عيناها، ولمعتا ثم أغمضتهما فجأة. حين قامت من فوقى قالت: أوعى تقول لحد على اللى حصل، وإلا هاضربك.

ثم أعطتنى قرشا وقبلتنى، ولكن الطين كان يملأ ملابسى فقالت: قول لأمك إنك وقعت وأنا هاغسلها لك.

دخلنا البيت، كانت أختى تجلس جنب عريسها، أخذت أتسحب على السلم فلم يرنى أحد، غيرت هدومى ووقفت بجانب أختى التى كانت تضحك، وكان عريسها يوشوشها فى أذنها، «زقلط» كانت تقف جنب أختى فقرصتها فى ركبتها وضحكت.

قالت أختى: إن شاء الله تحصلينى وتلاقى ابن الحلال يا «زقلط» يارب.

ردت «زقلط» أنا أكبر منك بعشر سنين.

ياحول الله، البنت القطر فاتها، همست خالتى «أم سعيد» وكنت أقف بجانب «زقلط».

فقلت: أنا ها أتجوزك يا «زقلط» ما تخافيش.

ونظرت إلى وقالت ياريتك كبير شويه.

فقلت إننى كبير، وأننى ألعب معها عريس وعروس وسوف أتزوجها لأن أحدًا لم يتزوجها. ووقفت زعلانه فقلت: يا لله بينا نلعب عريس وعروسة.

t.me/qurssan

فنظرت إلى بجانب عينها الشمال ووضعت إصبعها الطويل على فمها وقالت: أسكت فسكت.وقالت: أخرج استنانى بره. فخرجت، وكانت أختى تضحك وعريسها يوشوشها، وأمى تضحك وتزغرد، وأبى يضحك ، وكان الجميع يضحكون، والبنت «فردوس» تغنى: البنت حبت الجزار، والجزار حبها، ساب الجزارة وراح لها، وضربها بحق السلمون.

وجاءت «زقلط» وأمسكتنى من يدى، واتجهنا إلى شارع عشرة، وكانت الأرض مروية، والزرع طالع كبير جدًا، والدنيا كحل، ولم نكن نبحث عن ضفادع.

سبتمبر ١٩٨٣

***

t.me/qurssan

الدفانة

أقول لأمى وأنا «أنهج» أمى، أمى، إدينى قرش يامه.

تنظر إلى أمى، عيناها حمراوان، تقول: أنا مش لسه مدياك قرش حالا! إنت ما بتشبعش أبدًا.

ما هو، ما هو، ما هو وقع منى وأنا بالعب فى الحارة.

تضربنى أمى، «باللكمية» فوق ظهرى فأقع وأعيط، ولكنى أقف وأجرى، فيلاحقنى صوت أمى ويسبقنى: روح دور عليه يا خايب يا ابن الخايبين إن شا لله تقرصك دفانة يا رب. أبكى.

أخرج إلى الساحة التى يلعب فيها العيال، ونلعب «الاستغماية»، «كلوا بامية»، أجرى، أختبئ وراء صخرة كبيرة، تجرى العيال ولكنهم لا يبحثون عنى، أخرج من وراء الصخرة، لا أجد العيال، ولكنى أجد «بهية» فتظهر أسنانها الصفراء المسوسة، تمسح النازل من أنفها بكم جلبابها الأزرق المرقع، تقول: العب أنا العريس، وأنت العروسة إيه رأيك. تهز «بهية» كتفيها: ياكدة يابلاش لعب، أنظر إلى «بهية» التى كانت تضحك: بس آزاى يا «بهية» العب أنا العروسة وانتى العريس. دا أبويا عمره ما لعب عروسة وأمى عمرها ما لعبت عريس. وتصر «بهية» على أن تلعب عريسا وألعب أنا العروس، ولكنى أضرب «بهية» وأجرى فتجرى ورائى ولا تلحق بى فتقذفنى بطوبة فأطئ رأسى ولا تصيبنى، وأخرج لها لسانى وأدخل بيتنا.

t.me/qurssan

أقول لأبى وكنا نجلس حول «الطبلية» أنا ضربت البت «بهية» يابويا وكان أبى يمضغ فقال من بين أسنانه: وضربتها ليه يا وش الفقر.

ـ قلت لها تعالى يا «بهية» أنا وأنت عريس وعروسة قالت الغب أنا العريس وأنت العروسة.

يضحك أبى فيخرج الطعام من فمه وينزل فى «الصحن» تضحك أمى ويضحك أخواتى، أقول أنتم بتضحكوا ليه.

يضحك الجميع أضحك.

يرد أبى: راجل من ضهر راجل يا واد، طالع لابوك، بنت أبو عدس عايزة تخليك حرمة! والله عشنا وشفنا.

ـ يعنى إيه حرمة يا با؟

ـ أسأل أمك تقولك.

ـ يعنى إيه حرمة يامه؟

ـ أنت ما تتعبش أبدا من الكلام على الفاضى والمليان، دماغنا وجعنا يا أخى.

ـ يعنى إيه حرمة يا خويا؟

ـ يعنى بنت، عروسة، واحدة ست.

ـ «بهية» كانت عاوزانى أعمل حرمه وضربتها وجريت.

يخرج أخى قبل أن أكمل كلامى، أحس بالزهق، أخرج «بهية» تلعب عريسا وعروسة مع عوض، أقول مين العريس يا عوض، إنت ولا بهية؟

يضحك عوض، يزعق فى «بهية»:

قومى يا حرمة اعملى دورين شاى للرجالة.

t.me/qurssan

تجرى «بهية» وهى تقول: حاضر يا سى عوض» عينى.

ـ الرجولة هما العرسان يا وله.

يفرك «عوض» الهواء المقارب لأنفه بأصابعه.

ـ أنا مش ها أكلم «بهية» يا «عوض» مرة تانية، إنت معايا ولا معاها.

ـ «بهية» دلوقت هى الحرمة بتاعتى وأنا مش هاقدر أخاصمها.

ـ أنا مخاصمك يا «عوض» أنت و «بهية» . أمد يدى إلى عوض،

ـ أنت فى أنهو صابع يا «عوض» الصغير ولا الكبير.

يمسك «عوض» الإصبع الصغير، أمسك أنا الأصبع الصغير أقربه من فمى وأبصق عليه، أمشى وأنا غضبان.

كنا بالليل وكنت أنام، ولكنى سمعت أبى يوشوش أمى: هاتى بوسه يا وليه. وكنت أريد أن أتبول، ولكنى لم أتحرك من مكانى، وقالت أمى العيال لسه صاحيه، أصبر شويه يا راجل. رد أبى، وكان صوته ضعيفًا: تعالى نروح أى أوده تانيه. وكنت أسمع وأكاد أتبول على نفسى ولكنى لم أتحرك وقالت أمى: الأود كلها مليانة عيال، أصبر يا راجل شوية لما العيال تنام. ونفخ أبى فى الظلام: فالحة أنتى يا ختى عاملة زى الأرنبة، كل يومين تسلتى عيل، والنتيجة الواحد مش عارف ياخد راحته فى بيته. وضحكت أمى ضحكة طويلة، وكان أبى يلتصق بها، وتتراجع أمى، يلتصق أبى، أقع أنا من فوق السرير، يغطى أبى رأسه باللحاف الذى خرج القطن من كل جوانبه وينام، تغطى أمى رأسها وتنام، أبول أنا على نفسى.

يموت أخى، يموت أناس كثيرون، وقال أبى إن الكوليرا تحصد الناس حصدًا، وأقول لماذا يموت أخى الذى أحبه، وكان يشترى لى الحلوى والفول السودانى المقشر، وقال الناس اتحد الموت مع الفقر والمرض وحصدوا فى الخلق. ما الفقر؟ ما المرض؟ لا أحد يقول لى.

t.me/qurssan

«أصيح فى البنت «بهية»: فزى قومى بوسى ايد جوزك.

تبوس «بهية» يدى ورأسى. أقول: من هنا ورايح تسمعى كلامى.

أضرب «عوض» وأبى يريد بوسه، أتلفت فأجدها، دفانة كبيرة تمشى بالراحة فى الرمال تمتد شوكتها أمامها، أقول لها أمى قالت: إن شاء الله تقرصك دفانة انتى جيتى تقرصينى؟ هو أنا عملت لك حاجة، ردى علينا يا دفانة، أنتى مخاصمانى زى «عوض» و «بهية» طب يا له نلعب أنا وانت، بس نلعب ايه، آه، أنا أقول هاتى بوسه، وأنتى تبعدى، أبويا قال هاتى بوسه وأمى بعدت، وأنا وقعت من على السرير، هاتى بوسه بأه.

آى، آى كده برضه تقرصينى، طب أنا مخاصمك وها موتك، أخذت أصرخ بصوت عال: أنا هاموتك ، هاموتك.

يقوم أبى، تقوم أمى، يقوم أخواتى، أقول

ـ أنا قتلت الدفانة لأنها قرصتنى.

ـ طب نام انخمد لحد الصبح.

ـ قلت لها ادينى بوسة قرصتنى.

يقول أبى: ..

تقول أمى:..

يقول إخوتى:..

أسحب الغطاء فوق وجهى ولا أقول شيئًا.

فبراير ١٩٨١

t.me/qurssan

الحجاب

شكة ـ من عين أم محمود

شكة ـ من عين أم محمود

شكة ـ من عين أبوك

من عين أمك

من عين كل من شافك ولا صلى

وكل من لمحك ولا قال بسم الله

يكفيك شر الأزية

وكل عين رضية

وكل يد عفية

يا محسنة يا بنت عزيزة ومحمدين

البنت القاعدة فى المندرة الكبيرة، مريضة بالداء الذى لا شفاء منه. حطت وفرطحت على السرير ولم تحرك ذراعًا ولا رجلا.

كانت تتأوه وتزعق بالصوت الحى: من ينجد العليل يا خلق الله، النار ـ يا خلق الله فى جوفى لهيب، والجسم ما عاد يحتمل.

t.me/qurssan

وقف أبوها على باب المندرة، وضرب يده فى جيب الصديرى، وأقسم بالطلاق ثلاث: من يشف ابنتى يأخذ كل مالى. وانحدرت دمعته على خده الأيمن واستقرت على شفته، امتصها فأحس بطعم الملح فلطمها على الأرض وأزاح عليها التراب بقدمه.

فى البداية أقول، اسم الله عليك، وعلى السامعين:

بعد الصلاة على النبى الزين الذى ملس على الضرع الناشف فسال بين يديه.

إن من يروح، لا يجىء والملك بهرمان كان زين الملوك الأعاجم، وكان وزيره شمس النهار لا يطاوله وزير فى طول البلاد وعرضها، وكان قد رزق ببنت تسمى «فرط الرمان» هى كالرمان حلاوة وطلاوة.

فهى درة عصرها ما ثقبت، وجوهرة قصرها، وكما تدور السواقى، هكذا تدور الدنيا، وكما يأتى الفرح، يعقبه الحزن والغم. وشكت «فرط الرمان» من علة خفية، وطال المرض، وفرط الرمان على هذه الحال العجيبة، وما حدث لها من الأمور المحزنة الغريبة، حتى قام الوزير شمس النهار ونادى فى البلاد طولها وعرضها: ياناس، من يشفى ابنتى ونن عينى له نصف فلوسى، وأتنازل له عن الوزارة، وله جواهرى وقصورى وأزوجه ابنتى، ياناس، لا تأخذكم الدنيا الغرورة كما أخذت من قبلكم، ومن يفشل فى العلاج فعليه يقع الجزاء. (رفض الوزير شمس النهار أن يبوح بالعقاب، وهناك، فوق تلال المدينة البيض، كانت أسنة الرماح تحمل جماجم لشبان ذوى شعور سوداء ناعمة، كانوا يحلمون بقصور وجواهر بنت الوزير).

جاء الشيخ حمبوسة ذو السر الباتع من آخر البلاد. أقام الأيام بالليالى يحوقل ويبسمل ويقرأ التعاويذ ويطلق البخور، أخذ يملس على جسد البنت محسنة بنت محمدين وعزيزة، يقرأ فى كل جزء من الجسد تعويذة، أخرج

t.me/qurssan

دواة حمراء، وريشة خضراء وورقة صفراء، كتب عدة أحجبة طواها مثلثات: وضع أحدهم تحت المخدة، الثانى دسه فى صدرها والثالث أذابه فى ماء بكر، وشربت منه عزيزة ومحمدين، ما تبقى رشت به عتبة الدار، الأماكن التى كانت تذهب إليها، قال: ابنتكم يا سادة قد انعرضت من الجن: ذبح بعض الطيور فوق رأسها واستحمت بالدماء الساخنة، خطت فوق البخور سبع مرات، نقشوا كفيها ومشطى قدميها بالحناء المخلطة بالقرد. مشى الشيخ حمبوسة بعد أن وعد بالشفاء، وأن كل شىء كما كان يعود.

من يتحمل الشدة إلا الرجال!.

هكذا يقول الأولون، ومن يصبر على المحن إلا كم. هكذا نقول نحن. والوزير شمس النهار شد شعر رأسه من الغيظ، وضرب جبهته بالحائط فانكسر، لطم عمامته على الأرض، وأخذ يبكى فى حرقة شديدة لمرض ابنته فرط الرمان، ونتف لحيته لعجز الحكماء من كل صنف ولون عن مداواتها، أما ما حدث للتلال البيض، فإنها زرعت بجماجم الفتيان الذين كانوا يحلمون بالملك والزواج السعيد، لم يبق فى المملكة إلا الكهول والعجائز، وأجدبت النساء ولم يعدن يحبلن.

اغتم الوزير شمس النهار من أحوال ذلك الزمان الذى إن أعطى بيد أخذ بالأخرى، ولم يطق فانفجر ومات.

البنت القاعدة فى المندرة الكبيرة لم يكن فى شفائها رجاء. فجأة قامت رمحت. البنت التى قالت أمها عزيزة: وحياة مقصوصى هذا ابنتى ما عاد لنا رجاء فى شفائها. طابت وزغرد أبوها محمدين الفقير من فرحته. قيل لولا حجاب الشيخ حمبوسة ما كانت البنت شفت ورمحت وتزوجت وأنجبت رجال يعمرون بر مصر، وقيل لا يوجد فى بر مصر اثنان كالشيخ حمبوسة، ولو كان، لكانت مصر محروسة، ولا كان حدث ما حدث ودخلها الجن والعفاريت.

t.me/qurssan

الوطواط

قيل لم يحدث لأحد من قبل مثل ما حدث، ملعون هذا الرجل، تلك اللعنة التى يرسلها الله شهبا تمرق كالسهام فتصيب من تشاء، يوم أصاب قوم نوح أرسل إليهم الطوفان فأغرقهم جميعا إلا من ركب معه، يوم أنزل على عاد وثمود غضبه فأحرقهم جميعًا إلا لوط وأصحابه، أما قارون فقد خسف به وبداره الأرض، ونجا موسى وقومه وغرق فرعون.

«ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسف فى قلبه».

وقيل إنه فى تلك الليلة التى يؤرخون لها بعدم ظهور القمر ومجموعة النجم القطبى، وكانت ليلة شؤم، بدأ فى السير وقد دخل فى رداء الليل وأوغل فى الدخول، ولم يشعر إلا وشيئًا يلتصق بوجهه فيحجب الرؤية عن عينيه، تنبه إلى نفسه التى كانت بعيدة عنه، أحس بانفراس مخالب اقشعر منها جسده، انتفض. قيل لم يبال أول الأمر، ولكن الخطر له أجنحة، حام، از أزيزًا عاليًا. فى منطقة اندلقت فيها حزمة ضوء رأى، نظر فارتدت النظرات خائفة مشروخة، نظرة أخرى والتقت العيون، تحركت يداه دون إرادته، ارتفعت إلى وجهه أمسكتا بالشىء الملتصق بالوجه، جذب بشدة، تحشرج زفيره فى الحنجرة، جذب مرة أخرى، انطلقت الصرخة، ردد

t.me/qurssan

الصوت الصرخة عدة مرات، رجعت يداه كما كانتا بجانبيه، قيل إنه أعاد المحاولة عدة مرات ولم يفلح فى اقتلاع هذا الشىء الذى كان يجهل اسمه حتى الآن، وقيل إن هذا الشىء كان هادئًا مستكينًا فوق وجهه، وقد أمسكت مخالبه بالأذنين، وانتشرت أجنحته فغطت الوجه، أما عيناه فكانتا تقابلان عينى الوجه، بل تقعان فى المواجهة، إذا نظر يمينًا أو شمالاً تحركت العينان المقابلتان فتلتقى أربعة أعين فى آن واحد. ومر الوقت بطيئًا، وأخذ يحدق فى العينين الواسعتين الملتصقتين بالوجه، انخلع قلبه، رماديتان، بل سوداوان، بل.. آه، تلفت حوله، منطقة، مهجورة، ليس فيها صريخ ابن يومين، استعاذ بالله من شياطينه، قرأ الكرسى، تنفرس المخالب حتى النخاع، العينان الهادئتان حتى الموت، نسى أين كان ذاهبا، نسى كل شىء، أصبح هذا الشىء هو ما يفكر فيه الآن، لا يعلم أين رآه قبل الآن، لكنه تذكر، وطواط رآه كثيرا، كمحاولة أخيرة امتدت يداه، أمسكتا بالجسم الرخو، جذب، صرخ الوطواط، المرة الأولى التى يسمع صراخه، صرخ هو الآخر، امتزجت الصرختان، امتلأ جوف الليل صراخًا، تقطر وجهه دمًا، أخذ يجر قدميه متوغلا فى الصمت والليل، حاملا الوطواط فوق وجهه. كانت العينان ترمقانه، وتدلت أحشاء السماء.

«أوعى يا ولدى من طريقك، أوعى يا ولدى من غراب البين، خلى بالك من الوطاوط، لو لزقت فى وشك مش راح تطلع، الوطواط يا ولدى لا يلزق غير فى الوش، ما يطلع يا ولدى غير بالطبل والزغاريد، والفرح يا ولدى ما عاد له مكان بينا، عمك ياولدى عاش قدر ما عاش فى وشه لازق وطواط، عملنا له طبل، وعملنا زمر، لا نفع الطبل، ولا نفعل الزمر، أوعى ياولدى من طريقك، أوعى يا بنى من غراب البين، خالى با..»

لما أحس الجوع يمضغ المعدة، تلفت حوله لم يجد ما يأكله فأكلته الحسرة وأيقن بالهلاك «لما أحس الجوع تحلب ريقه وسال على الوجه، أكل منخارى الوجه، كانا ناتئين».

t.me/qurssan

العينان فى العينين، والأنف ينزف، وذوبان المعدة فى البطن، بلا أنف سار، بلا أنف جلس ليستريح.. بلا أنف رأى السماء تسقط على الأرض.

فإنه لما أراد الرب خلق السماوات والأرض خلق جوهرة مثل السماوات السبع والأراضين السبع، ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع وعلاه زبد ودخان، فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء، ثم فتقها وصيرها سبعا للسموات وسبعًا للأراضين، ثم بعث الرب تعالى من تحت العرش ملكا، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأراضين السبع فوضعها على إحدى يديه فى المشرق، والأخرى فى المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرض السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميها موضع قرار، فأهبط الرب من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمى الملك على سنامه فلم تستقرا فأمر الرب ياقوته خضراء من أعلى درجة الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض، وهى كالحسكة تحت العرش، ومنخر ذلك الثور فى البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسا، وإذا تنفس مد البحر، وإذا رد نفسه جزر البحر».

تهرا جلد السماء، تقلصت أمعاء البحر «تعب الثور من حمل الأرض».

يغوص، غاص. شهق فامتلأت الرئة دما نزفت الريح حشرجة ثقيلة ممزوجة بعواءات آتية من عالم الجن والعفاريت، والغول أبو عيون تولد لهيب. وكما جسدين لحظة اختلاط الدم بالدم وتأوهات اللذة بالألم، لحظة خروج البذرة من جوف الجوف، كانت المخالب تنغرس، وتنغرس، العينان فى العينين، والألم يعجن الجسد، الوجه بلا أنف كان، والذراع بلا عروق كانت والرجلان بلا.. والأرض بلا.. والسماء بلا..

t.me/qurssan

«أوعى يا ولدى من طريقك، أوعى يا بنى من غراب البين، خاللى بالك من ..»

قيل لا أحد يعلم عنه شيئًا، ولا زال الناس يبحثون عنه، فى الطرقات، فى الأزقة، والشوارع والحارات والبيوت.

«الناس تنتظرك يا ولدى كما عمك، بالطبل، والزمر، والزغاريد و ...».

يناير ١٩٨٢

***

t.me/qurssan

ظل الحبيب

فى اللحظة التى انقلب فيها الحذاء على وجهه. قررت أن أتركه مقلوبًا، وانتظرت أن تنقلب السماء على الأرض، أو تخسف الأرض من تحتى. وكلما أمعنت النظر فيما حولى كانت نظرات أمى تلاحقنى أينما ذهبت، فقلت، لماذا تنظرين إلىَّ يا أمى؟ فإن نظراتك تتعبنى: فتقول لى أمى إنك يا ولد لم تعدل الحذاء، وتركته مقلوبًا، ألا تخشى يا ولدى من غضبة الرب من حذاء مقلوب فى وجه ملائكته حملة أمنا الأرض؟ وقلت لأمى التى كانت ترتجف خوفًا وهلعًا: لا تحزنى يا أمى فإن الرب لا يغضب من عباده الفقراء، ولا تخشى يا أمى أن تميد الأرض فالذى يحملها ثور قوى، ونحن نثق به وبقرنه، ثم كيف تميد الأرض الآن وهى التى تتقبلنا فى آخر أيامنا، حين يصبح اللحم طعام الدود، والجلد عظمًا، والعظم فتيتًا. ولابد أن أمى قد اقتنعت بما أقول فقد هزت رأسها وكنت أحسبها موافقة، ولكنها وقفت وجرت على الحذاء المقلوب، وجهه فى وجه الأرض وظهره للسماء وعدلته ـ أنت ملعون أيها الولد الكبير ولابد أن الرب غاضب منك وعليك حتى تغضب أمك، قلت لأمى وأنا أقعد تحت قدميها وأتناول يديها أقبلهما. ولماذا تغضبين يا أمى؟ وهل غضبت أمنا الأرض ذات يوم فانقلبت على نفسها كما تنقلبين الآن؟ رحم الرب زمن السماحة والقلب الطهور والدعوات التى تفتح الأبواب.

t.me/qurssan

قلت لأمى: حدثينى يا أمى كيف تركنا رب بيتنا وظلّنا الذى هو أحسن من ظل حائط.

أشرقت الدمعات من عين أمى العجوز، أمى البالغة العاقلة التى تفهم من أمور المخبوء الكثير: يا ولدى وظلى الجديد، الأيام سواقى يديرها الثور الأعمى، وأبوك تركنا كما الريح تمر على الرمال فتكنس وتكنس حتى يبان عميق الأرض.

قلت لأمى التى اقترب فرعها من الأرض: حدثينى يا أمى عن ظل الحبيب، كيف كان يمشى، حدثينى عن عاداته، التفاتاته، ضحكاته، نظراته، همساته، بسبساته، حمحماته، خبرينى يا أمى هل كان الحبيب يحبك؟

قالت أمى وأخذت تشير بأصابعها مثلما يفعل معلم الحساب:

أول عهدى به، كان حبيبًا، وكان ضاحكًا، وكان طيب الريح.

منتصف عهدى به انطبعت صورته فى الرحم، وكان حنونًا طيبًا، يربت على خدى فيحمر، ويلمس شعرى فأروغ من يده، ويلثم الفم بأعذب القبلات فأكون كما الماء لينًا وطراوة.

أما آخر العهد به: فكان كما ريح الخريف، وكان كما شمس منتصف النهار فى يوم شديد القيظ، وكانت ريحه قد تحولت إلى امرأة أخرى هاجر إليها لينكحها، لكن ظله انطبع فى الرحم، وكان أوان حصاد الزرع فقطفتك الداية يا ولدى، ولم أحل حزام وسطى حتى أصبحت ولدًا طويلاً يرى فردة الحذاء فلا يعدلها ولا يخاف الرب ولا انطباق السماء على الأرض.

وأمر بيدى على شعر أمى الأبيض المجعد واقول:

لابد أن التعب أصابك فى تربيتى يا أمى. وينام خد أمى المكرمش على كف يدى، وكانت الدمعات تسح على خديها فتختلط بلعاب الأنف فتشن

t.me/qurssan

وتقول: لأجلك يا ولدى يخفق الحشا، ولأجلك أنا عملت طباخة، أطبخ الطبيخ ولا أذوقه، وغسالة أغسل الأحمر والأبيض والمقلم ولا أرتديه، وعجانة أعجن العجين وأخبزه ولا آكله، وأنت تكبر وأفرح. وظلك يتكون فيحجب ظلى، وليس لى مطلب سوى أن ينطبع ظلك الحبيب فى رحم فتاة اختارها لك فتملأ بيتنا زقزقة ونقنقة وكركرة، وأصبح جدة أحكى الحكايات فى الأماسى الباردة.

قلت لأمى: والله يا أمى رغباتك على العين والرأس، وسوف تكونين جدة عما قريب، وسوف أكون أبًا ورب بيت لا أفعل كما فعل أبى وأترك أولادى للوحوش الكواسر.

من أقوال الحبيب:

.. لا ينام الليل غربة، وسهد، وضنى.

.. لا ينام ليل الشتاء إلا أبو قلب خال.

.. ليل الشتاء «تعشر» فيه العنز وتلد مرتين.

قلت لأمى: أمى يا أمى، باركينى وملسى على جبينى فسوف أحمل حالى وأبحث عن ظل الحبيب عسى الظلال تتجمع بعد طول شتات يا أم، وإذا مت فقولى كان لى ولد بار، وكان كبيرًا يسمع كلام أمه ولم ير ظل الحبيب.

فى البداية تبدو الطريق وعرة، وفى البداية ترى النهايات بدايات، وترى أرضًا واحدة، ونهرًا واحدًا، وسماء واحدة، وشجرة واحدة، وقمرًا واحدًا، وشمسًا واحدة، ونفسك اثنتين، رأيت نفسى ونفسى نبحث عن ظل الحبيب، قلت: وهل العصافير تتكلم كما تتكلم فى الورق الأصفر؟

وهل هناك الأخوات الثلاث ذوات العين الواحدة التى لا ترى إلا بجوهرة.

t.me/qurssan

ولكنى قلت أيضًا إنه لابد أن هناك من يحمل السماء حتى لا تنطبق على أمنا الأرض.

صعدت جبلاً وجبلاً، ونزلت واديًا فواديًا، وعمت فى نهر ثم صعدت جبلاً فوق جبلٍ، وعندما لمحته كان يقف منحنيًا قليلاً يحمل فوق رأسه السماء.

تمامًا كما رأيته فى الورق الأصفر. عضلاته نافرة، شعر رأسه يغطى جسده، تقدمت منه: عليك السلام يا أبانا. نظر إلى ونقل السماء إلى كتفه اليسرى فأبرقت وأرعدت وهطل مطر بلل جسدى وأرضى التى أقف عليها.

من أنت؟. قلت له وأنا أحدق فى عينيه الكبيرتين كانتا بلون السماء.

ألا تعرفنى يا أبانا!! أنا الولد الكبير الذى كتب عليه أن يبحث عن ظل الحبيب.

هكذا قالت العناكب ووطاوط الخراب، تجده مكتوبًا عندك فى سفر الغربة.

قال فأرعدت وأبرقت وهطلت: أنا أعرف مكانه، إذا حملت السماء عنى لحظة جئتك به.

نظرت حيث ملأ الصوت جنبات الوادى: وكيف يحمل السماء من هو فان يا أبانا؟

وهل أستطيع أنا أحمل السماء؟

ـ نعم تستطيع أيها الولد الكبير.

ـ لنجرب يا أبانا.

وقفت خلفه، تقلدت عمدان السماء، كانت فوق رأسى، ووقف أمامى وقال لى:

t.me/qurssan

احمل السماء رئيما أتريض، احملها ريثما أنط وألعب كما يلعب الخلق.

تلبسنى الخوف وعلمت خبيث فعلته، قلت أضحك عليه، وقلت سوف أتركك تلعب وتنط، ولكن احمل عنى السماء حتى أعدل نفسى وأتهيأ للحمل الثقيل، ولابد أنه قد انخدع فقد حملها وتركته ينط من الغيظ، وقلت: كيف يحملها من هو فان يا أبانا عمن هو غير فان.

أواصل السير، وفى الليل الوحدة تفتت الكبد، أتذكر الكلمات:

سوف تمضغ الشمس وتشرب العواصف أيها الولد الكبير، سوف تمشى وتمشى، تصعد جبالاً وتهبط وديانًا تأكل وتُؤكل، تشرب وتُشرب، تقتل وتُقتل، اتذكر الملامح، طويلاً كشجر السرو، عريضًا كبحر بلا شطآن ضاحكًا كزهر السوسن، مجلجلاً كريح الشمال، سخيًا كنسيم البحر. أتذكر أننى لحظة رؤياه يكون الموت، وتكون سقطت ورقتى الصفراء منذ أربعين ليلة دون علمى، وأذكر أنى لحظة أن كنت أحلم فى حضن أمى قمت مخضوضًا، ورمت أمى ريقها فى عبها، عملت لى طاسة الخضة أم أربعة وأربعين مفتاحًا فشربتها وهدأت ـ مالك يا ولدى ويا كبدى تقوم مفزوعًا؟ هل تجرى وراءك قطط البرارى؟.

لا يا أمى، رأيت ما رأيت والسلام. وقال الذى رأيته لا تقص رؤياك على أمك فأكيد لك كيدًا .. وقلت لن أقص وعلى الأمان منك يا ذا المروءة والرهبوت، خبرنى كيف حال الأحوال. فزمزم وقال فتجست الكلمات:

سوف تراه ويراك، وتكلمه ويكلمك، ولكن حذار أن تكلمه فيما حدث وما قد يحدث، فحديثك لن يجد قلت:

ولكن ما حدث وما يحدث يا ذا المروة أقوى من احتمال السكوت.

قال: هكذا تقول الصفصافة العجوز، وقد آن الأوان فدعنى أرحل وإليك سلام الفانى. يتركنى ويرحل، وحيدًا كما بدأت، أتلفت حولى، تهب العاصفة، أقول هل يمكن أن تكون العاصفة هى ظل الحبيب ولكن العاصفة

t.me/qurssan

لا تلبث أن تهدأ فأقول ظل الحبيب أقوى من هبوب العواصف. تطلع الشمس فأقول هذا الضوء ضوءه، لكنها لا تلبث أن تغيب، أين هو إذن؟ أهو القمر ذلك الرغيف الساخن المضيء في السواد. أهو تلك النجوم التي تشبه في السماء سواد العين في العين، أهو النار التي لا تلبث أن تطفئها المياه، هو الماء إذن، بل هو البخار الذي يحمل الماء، بل هو السحاب، بل المطر، بل، بل، هو، هو، أشعر بدوار عنيف، أشاهد عن بعد فتى طائرًا، يرتدي نعلاً ذا جناحين، يقترب، أتأمله، حلو الملامح، شعره الأصفر المتماوج يغطي جسده ويضفي عليه مهابة، عليك السلام يا رفيق الغربة. وعليك يا رفيق، جئتك بنعليّ الذهب ليعيناك على البحث. وضع أمامي النعلين وذهب، ألبسهما فأحس بخفة الوزن والقدرة على تقليد الطير.

ألمح عن بعد غبارًا شديدًا، شيئًا يتدحرج حتى يقف أمامي ـ كأنه فرخ من فروخ الجان، أو من عفاريت السيد «سليمان»، ينظر إليّ ضاحكًا، تظهر أسنانه البيضاء في وجهه الأسمر. يحمل فوق كتفه جرابًا صغيرًا. إليك السلام من حمزة الأمير، وأضع نفسي في خدمتك أيها الولد الكبير. تندى عيناي بالدمعات، أقبل يده، لك الشكر مني يا أمير، أعذرني لعدم معرفتك فصيتك ملأ الآفاق، ولولاك لكان العربان في ذل ومهانة، وقالت أمي إننا في انتظار عودتك والأمير حمزة، قريتي كلها تنتظر يا أمير، مد يده فأعطاني جراب إسماعيل، أعطاني مكحلة ومرودًا، أعطاني مرآة أرى بها كل ما أتمنى رؤيته، قال خذها تعينك على الطريق.

قلت: ما أشد مروءتك يا أمير، لا ذل الرب أمة أنت فيها حاميها. عند صعودي الجبل رأيت «سيف القوة» يتلألأ بأشعة الشمس، تقدمت منه كان مقبضه وجزء منه معرضين للشمس الباقي مغروسًا في الصخرة، تأملته، كان مكتوبًا عليه بحروف النار والنور: هذا سيف القوة، خذه أيها الولد الكبير علّك تحتاجه، فهو مرصود باسمك، وقد حفظته لك أمك الصخرة، وسهرت عليه أمك الشمس وأبوك القمر.

t.me/qurssan

مددت يدى، نزعت السيف، تلألأ فى أشعة الشمس فأضاء جنبات الوادى، كان ضوءه أقوى من ضوء الشمس، كان نصله حادًا لامعًا كالمرآة ـ حين كنت أهبط واديًا عصر الألم قلبى، رفعت وجهى فخبرتنى طيور الفلا، أيها الولد الكبير: اليوم يموت آخر من يحبك، اليوم مات آخر من آحبك، أيها الولد الكبير تقول أمك: ولدى ظلى، حينما تصلك الكلمات أكون فى موات، أحملّك السلام أمانة، وأوصيك بالكلام الذى يكتب على آماق البصر ليكون لك عبرة، احترس يا ولدى، حرص ولا تخّون، لا تأمن إلا نفسك، اليوم أعود إلى حضن أمى وأم أمى الأرض، منها جئت وإليها أعود، أوصيك بألا تكذب، فكذبك يقتل جزءًا من العالم يا ولدى. وقالت وحوش الفلا: لك الرحمة أيها الولد الكبير، اليوم صرت وحيدًا ولكن لا تخف نحن معك.

وقالت السمكات:

لا تخف نحن معك أيها الولد الكبير.

وفجأة، وحين كنت أمد بصرى، وقع نظرى عليه فنظرته، قلت: أنت من أبحث عنه.

رأيته بعلاماته الثلاث: واقفًا وجالسًا، وماشيًا.

قلت أعرف علاماتك، أرنى العلامات.

عندما تحقق ظنى عدوت إليه، قالت الطيور:

احذر أيها الولد الكبير، وكانت الأرض تشق صدرها فقالت احذر يا ولدى، واحذر يا كبدى.

اسمع كلام أمك الأرض.

وقالت السمكات: احذر يا أخانا.

وكانت الريح تهب فقالت: احذر، احذر.

ولكنى لم أحذر. ورميت نفسى فى قلبه.

فبراير ١٩٨٤

t.me/qurssan

الديب رماح

ساعة العصارى، نادى علَّى الولد «أحمد»، ونادى على الولد «حازم» والبنت «كوثر» بنت عمى «مصطفى» وقالوا جميعًا فى نفس واحد: هيا بنا فقلت: هيا بنا.

وهناك، وحين نذهب إليه نفرح جدًا لأننا سوف نقابله، ونفرح جدًا لأن الطريق مليان بالبط الأسود والأوز الأبيض الذى يجرى وراءنا يريد عضنا فنخاف ونجرى ونحن نضحك. حين وصلنا، وقفنا على حافة النهر، وجعلنا من أيدينا قراطيس وضعناها على أفواهنا وناديا بالصوت العالى فى نفس واحد: اطلع لنا يا ديب. وسكتنا فجأة فلم يطلع أحد. وقلنا:

جئنا إليك يا ديب. وسكتنا فسمعنا صوت العصافير ولم يرد أحد. وانتظرنا أن يخرج لنا ـ فخرج، وانتظرنا أن يتكلم ـ فتكلم: أهلاً بالعيال. دخل فدخلنا. بيته فى النهر، وقال أبى: إذا خرج الديب من النهر مات كما السمك. جلس على الحصير فجلسنا، تجمعنا حوله، أهلاً بالعيال. أهلاً يا ديب. قلنا:

احك لنا يا ديب. يا ديب احك لنا حكاية. تنحنح الديب، ورقّص شاربيه وشعر رأسه فضحكنا وضحك وقال: أحكى لكم حكاية العنزات الثلاث. واحدة بازى وواحدة مازى، وواحدة تلعب على عكازى.

t.me/qurssan

قلنا: تؤ تؤ، سمعناها أمس يا ديب إحك لنا غيرها، سمعناها أمس.

حين جلس الديب مقرفصًا تململ فاستند بكوعه على المسند ومدد رجليه ونظر إلينا وقد ملس على شاربيه، قال: صلوا على من يشفع فيكم.

قلنا: ألف صلاة عليك يا نبى.

زيدوا النبى صلاة.

عليه الصلاة والسلام.

كان بالليل يا عيال، والدنيا كحل ليس فيها صريخ ابن يومين، وكان البرد رصاصًا يخرم البدن، خرجت للنهر، ركبت المركب وفردت الشبك فوق ذراعى وطوحتها بعزم قوتى فاستقرت فى النهر، تركت المركب تمشى مع التيار وعفرت سيجارة وغنيت عينى عليك يا مراكبى، فعجبنى اللحن فزدت فى الغناء: البحر بيضحك ليه وأنا نازل أدلع أصطاد سمك. توقفت فجأة فقد هدنى السكون، وقلت لو أن ولدًا يؤنس وحدتى فى النهر ولكنى كنت مطمئنا فالنجوم معى والقمر كان بجانبى فى النهر والأسماك أصدقاء لى ولا أخاف الليل وكنت أسحب الشبكة ووجدتها ثقيلة جدًا فحمدت الله وقلت الخير يأتى دائمًا فى الليل. وأنا أحب الليل ووشوشة النهر، وسحبت، وسمعت عويلاً وصراخًا وأصواتًا كثيرة فقلت أنا لا أخاف شياطين النهر، ولمحت سمكة كبيرة معلقة فى الشبك. وكنت لا أستطيع رفعها فصحت صيحة عجيبة وجذبت بكل قوتى ـ تخيلوا يا عيال ـ السمكة جذبتنى، وكتاب الله السمكة جذبتنى، أنا أشد وهى تشد، وكانت قوية فسحبت المركب بسرعة شديدة فانقلبنا، المركب، وأنا، لففت الحبل المربوط فى الشبكة على يدى ولم أتركها واخذت أغوص، وتحت الماء رأيت أشياء عجيبة، فهذه قصور من الذهب الخالص، وهذه نساء من الحليب الصافى، هل تدرون ماذا حدث بعد ذلك يا عيال.

t.me/qurssan

قلنا: لا يا ديب، أكمل يا ديب.

قال: لن أتحدث قبل أن نأكل، سوف نأكل سمكًا، خرج الديب وكنا نستعجله حتى يكمل لنا ماذا رأى تحت الماء، وضربت الولد «أحمد» على قفاه فزغدنى فى بطنى. عاد «الديب رماح» يحمل قفة مليئة بالسمك، سمك قرموط يلعب ويهز شواربه، أمسكته من أحد شواربه فعضنى فى إصبعى، قلت: سوف اكلك يا قرموط. أشعل «الديب» نارًا وأخذ يشوى السمك، وقلت: ألم تجد خاتم «سليمان» فى بطن سمكة يا ديب؟

فأخذ يقلب السمك وقال من بين شاربيه: أنا عثرت على خاتم الجن فى بطن حوت كبير.

قلنا: خبّرنا يا ديب، خبّرنا كيف عثرت على خاتم الجن، وهل رأيت الجن.

لن أحكى لكم حتى نأكل. فأخذنا نأكل بسرعة شديدة حتى نسمع حكاية خاتم الجن، وكان السمك ساخنًا فلسعنى فى حلقى ولسع البنت «كوثر» فأخذت تنفخ الهواء بفمها المليان بالسمك، وكنا نضحك، ومسح الديب يده فى سرواله الأسود الطويل وقال نشرب شايًا. وقام لعمل الشاى، وقلت لو أن الواحد يعثر على مفتاح الكنز المرصود خارج كوم الضبع كما قال أبى. قال الولد «حازم»: الكنز لا يفتح إلا بالدم، ولم يعثر عليه الرجل الذى قتل منذ ثلاث سنوات، هل تذكرون حين وجدناه مذبوحًا عند الترب، هذه الترب هى باب الكنز، ومن يومها لا أحد يمشى ناحية الترب بالليل. قلت: سوف أجده، فأنا أعرف مكانه. ضربنى «أحمد» على وجهى وقال سوف أعثر عليه قبلك.

جاء الديب يحمل براد الشاى وكوز صفيح صغيرًا فشربنا، وأشعل سيجارة ونفخ فى الهواء فتكونت سحابة من الدخان كبرت حتى كانت عفريتًا كبيرًا بحجم الهواء.

t.me/qurssan

قلنا احك لنا يا «ديب». شد نفسًا طويلاً نفخه وتنهد وقال:

أحكى لكم عن ابنى «محمود»، كان مثلكم بالضبط، ولد جميل بلون النهر، أمه كذلك، هل رأيتم أم «محمود».

لا يا «ديب» لم نر أحدًا.

أخذتها الجنية هى و«محمود»، لو تعرفوا السبب زال عجبكم، أصل الجنية كانت تحبنى جدًا فغارت من أم «محمود» لأنها أجمل منها، ولأنى أحب أم «محمود» ولا أحب الجنية.

قلنا: احكى حكاية «محمود» و«أم محمود» يا «ديب».

إيه.. كان ذلك قبل أيام الجفاف بأيام.، فى اليوم الذى ذهبت فيه لأصطاد بعيدًا، عند الضفة الأخرى للنهر، كان القمر كالرغيف البتاو، وكان يعوم فى النهر، قلت: سوف أصطاد القمر، وطرحت الشبك، وأخرجت من قاع المركب لقمة ناشفة وحتة جبنة وأكلت فشبعت، ملت على حافة المركب وغرفت حفنة ماء شربتها فارتويت، دخنت سيجارة بلمونت، وكان النهر هادئًا فتحدثت مع السمكات مقدار ساعة أو يزيد، وفى الليل سمعت صوتى يغنى أغنية النهر، وسمعت موسيقى النهر فزدت فى الغناء، ووضعت يدى على أذنى وقلت بصوت عال: اسمع يا نهر واسمعى أيتها السمكات الطيبة:

أول ما نبدأ نصلى على النبى

نبى عربى لم بعد نوره نور

عاشق رأى مبتلى قال له إنت رايح فين

وقف قرا قصته بكوا سوا لتين

راحوا لقاضى الغرام لتين سوا يشكوا

t.me/qurssan

بكوا تلاته وقالوا حبنا راح فين

كان السمك ينط يلعب، وكان يقفز عاليًا فيقع فى الشبك، وكنت قد توغلت فطلبت الرجوع، وقاع المركب امتلأ عن آخره بالسمك القرموط، والسمك البساريا، وكان المركب يشق النهر نصفين، وحين اقتربت من البيت اصطدم المركب بشىء يكاد ينقلب، وحين دققت النظر رأيت وجهين يطلان من قاع النهر.

انعكس القمر على وجهى «محمود» وأم «محمود».

بكى «الديب رماح»، وأخذنا نطبطب على ظهره وقلنا لا تبك يا «ديب». وأخذنا نبكى فقال لا تبكوا يا عيال، وبكينا جميعًا ومسح الديب عينيه بكم قميصه وقال: اسمعوا يا عيال، أحكى لكم حكاية.

قلنا احكى يا «ديب».

كان هناك ثلاث عنزات،عنزة بازى، وعنزة مازى، وعنزة تلعب على عكازى. نظرت إلى الولد «أحمد»، ونظر أحمد إلى «كوثر»، ونظرنا جميعًا إلى «حازم»، وقلنا فى صوت واحد: احكى يا «ديب» حكاية العنزات الثلاث. أشعل سيجارة وسحب نفسًا نتره فى الهواء فبان العفريت كبيرًا، وبانت أسنانه بيضاء مسنونة تلمع وهو يأكل العنزات الثلاث، وقلت أنا أعرف هذه الحكاية، وكنت أنام، وبدا صوته خافتًا:

صلوا على النبى. ألف صلاة عليك يا نبى . زيدوا النبى صلاة.. هم ثلاث عنزات، عنزة وعنزة،وعنزة، ولما كانت العنزات الثلاث واحدة بازى، وواحدة مازى، وواحدة تلعب على عكازى..

كان صوته يخفت، يخفت، وكنا نسمع صوت النهر، وأصبح صوته همسًا، وكنا ننام.

سبتمبر ١٩٨٤

t.me/qurssan

حكاية المرأة التى ولدت تحت الجمل

أول ما نبدأ القول نصلى على النبى ونعيد

اسمعوا يا صحاب، والله على ما أقول شهيد:

إن فتاة الريف الساذجة، حين أتت إلى المدينة، تزوجت رجل البنادر الكبير، الطالع دومًا دومًا ـ لأنه بناء ـ وخدمت على ثمانية أفواه صغار ماتت أمهم، وشالت الطين وهى بعد صغيرة، جاعت وتعرّت وأنجبت أول بطن فتاة سمراء بلون الحزن المعشش فى الحشا،

وقالت نحمده على كل حال فسمت البكرية «قدم السعد»، وباست باطن وظهر اليد، وصارت تنشد وهى تعيط وتقول ـ وأنا وأنتم نصلى على طه الرسول:

ابكى يا عينى واجرحى خدك

كداب من كاده الزمان زيك

ابكى يا عينى واجرحى عينك

كداب من كاده الزمان غيرك.

وبكت على فراق الأهل والأحباب، وقسوة أولاد الزنوج اليتامى، وبكت «قدم السعد»، وقالت الأم:

t.me/qurssan

قدم السعد، لا تبك يا حبة القلب، هـووه.. يا لله تنام قدم السعد - يا لله تنام، وأدبحلك جوزين حمام، هـووه. فازدادت قدم السعد بكاء، وازدادت فتاة الريف بكاء على بكاء قدم السعد.

***

يا سامعين القول صلوا على النبى

فتاة الريف حين أتت المدينة، كانت صغيرة قدر صدرها الذى لم يطلع بعد، وكان أولاد المعلم مثل ذلك أو يزيد، مقدارًا أو مقدارين، وكانت لا تأكل إذا أطعموها، ولا تلبس إذا لم يلبسوها، ولا تمشى حاملة قدم السعد فوق صدرها دون إذن وعلم،وقالت وكانت قدم السعد نائمة فوق الصدر:

يا بنت الناس، العيشة ليست سهلة، ويا بنت الناس عليك بالصبر وقد باعك أبوك للرجل الذى يكبره قدر سنوات الحزن، ولم يدفع إلا حق العربة التى شالتك وحطتك بالليل، من كوم الضبع حتى بولاق الدكرور، وسط لحم صغير يريد يأكلك أنت الصغيرة التى لم تر من أمور المخبوء الكثير، يا بنت الناس، تذكرى ما قاله أبوك وصدقت عليه أمك وستك الخضرة: كوم الضبع فيها ولدنا، وفيها رأينا مولانا الشيخ «الضبع» يخرج من البحر ويعود حين يطلب الجسد الأرض التى أنبتته.

وحين تطلب الروح مكان الميلاد.

ولما أحست أن البطن مثل بيضة الرخ التى قالت عنها الجدة «خضرة» توحمت - فتوحمت، وقالت:

نفسى فى عنب بز العنزة يا معلم.

وحياة أبى يا المعلم نفسى آكل عنب بز العنزة.

ولما سمع أولاد المعلم قالوا:

t.me/qurssan

اسم الله على وحمك الشين، أنت لا تراعين مصلحة أبينا، أبونا ليس حملك وحمل دلعك الماسخ.

وجاءها المخاض فتمخضت، وبكت وصرخت، وعضت الشفة فانغرس صف السنان فى اللحم، وقالت الداية يا مسهل سهل، فأطل رأس صغير طرى، وأطلت ذراع وذراع، وأطل جسد، ورجل ورجل، ونِدهت الداية على بنات المعلم: جاءتكم اخت لكم، بشروا أباكم.

فأطلت الحسرة من عيون البنات والصبيان.

أقول أنا الراوى ـ بدمع جرى فوق الخدود «سكايب»:

أن «سعدية» الجديدة، كانت فلقة قمر، وأن كل من رآها صلى على الحبيب. حبيب الحبيب الذى يصلى على النبى.

وأن الناس صارت تتفرج عليها، وقالوا ليست طالعة لأبيها المعلم وليست طالعة لأمها فتاة الريف التى شربت من لبن البنادر، وقالوا سبحان الله يرزق من يشاء، وكان من يراها، يظن أنها ابنة ربيعين وليست ابنة أسبوعين، وعلقت الأم حجابًا، فوق صدر «سعدية»، وعلقت خمسة وخميسة، ورسمت فوق جبينها الأبيض والأحمر صليبًا بالفحم، ولكن هى العين التى فلقت الحجر. نظرت وشافت فاتسعت وحسدت. تململت البنت فى يد الأم. وكما الخرقة القديمة صارت، ورأت الأم ابنتها تموت فبكت، وأنَّت واشتكت، وأخذت تضرب صدرها، ورفعت وجهها إلى السماء، وصارت تنشد وتقول ـ صلوا بنا على طه الرسول:

عيانه يا بنتى صعبانة عليا يا عيانه

وكل من شافتك طلعت زعلانه

عيانه هاتى إيديكى ـ صعبانه عليا

t.me/qurssan

عيانه هاتى إيديكى

قلبى وقع جنبى وأنا باطل عليكى.

ثم بكت فماتت البنت.

وقالت الأم: يا ناس، ابنتى كانت حلوة حلاوة خلوف النحل، وابنتى يا ناس أنا ربيتها على لبن يخرج من صدرى شعرت به يبل عروقها الخضراء فى جسمها الأبيض، راحت ابنتى يا ناس، هاتولى ضناى «سعدية»

طبطب الزوج على صدر الأم وناداها:

يا بنت الناس، وديعة أخذها الله، وربما أعطاك غيرها.

وباس الخد والخد وقال: حكمته. وملس على الجبين وقال: ما تعز على واهبها. وناداها: أنا أعطيك غيرها. ولما قبل عينيها. انتفخت بطنها، وتوحمت فتوحمت وقالت: نفسى فى لحم الجمل مسلوقًا يا معلم.

وحين جاءوا بلحم الجمل ـ أكلت، وشربت «مرقة» لحم الجمل بالبصل وأكلت «فتة» بمرقة لحم الجمل، وطلبت السفر لرؤية الأهل والأحباب ـ فسافرت.

نقول يا سادة: إنها ليلة سافرت، وقعدت على الفرن فى القاعة الكبيرة التى ليس لها شباك، وولت وجهها شطر الطاقة التى فى السقف، ونامت فرأت نورًا يخرج منها فيملأ الأرض والسماء، ورأت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر ساجدين. صحت فجأة على صوت يناديها أن قومى يا «أمينة» فقامت، واجلسى يا «أمينة» فجلست، فركت عينيها، تلفتت حولها، لم تجد أحدًا، نامت على الفرن، تذكرت الرؤيا التى رأتها. تعجبت نظرت. إلى الطاقة التى فى السقف، كان القمر بدرًا، وكان هناك أرنب يدق «الهون»،

t.me/qurssan

وكانت هناك فتاة حلوة بلون القمر تقف تجاه الأرنب.

تنهدت، قالت: لو تجيئنى فتاة حلوة بلون فتاة القمر، شعرت ببطنها تتحرك، أحست بألم، قامت، نزلت، وقفت أمام «البحراية»، سارت، راحت وجاءت، تقوس ظهرها للأمام، قالت: الليلة هى السابعة بعد المئتين، والليلة يكون البدر ساعة كماله، والليلة أنا رأيت نورًا يخرج منى فيملأ الأرض، ورأيت الشيخ «الضبعى» يخرج من البحر راكبًا البراق وحوله جنوده يرتدون البياض، والليلة أنا مندوهة من جنية البحر، وأنا أكلت لحم الجمل مسلوقًا وشربت المرق. كانت الشمس طلعت، وكانت بطنها تتقلص، و«زغدت» أمها الراقدة على ظهرها كالسمكة الميتة، وقالت: قومى يا أمى فقد هدنى التعب، واللحم يلعب فى بطنى يا أمى من الليل حتى طلوع الشمس، ولابد أن أوان الولادة حان.

لما قامت الأم ـ يا سادة ـ ونظرت، ورأت التعب قد أصاب فتاتها آخر العنقود قالت: تمددى على الفرن يا نن عين أمك ـ فتمددت. وقالت: افتحى رجليك حتى يتسع مخرجك ـ ففتحتهما. وقالت: احزقى فحزقت، وحزقت مرة، ومرة، من الصبح لما قرب الليل، والروح رخصت وهانت، وقالت الأم الولادة عسيرة ولابد من وجود الداية.

ولما جاءت الداية قالت: احزقى يا نن عين خالتك.

ـ فحزقت، ونظرت فلم تطل رأس من بين الرجلين فسترت الرب، ويا مسهل سهل، فلم تطل رأس، وبركاتك يا شيخ «عبدالله يا ضبعى» يا ساكن البحر.

نظرت إلى الراقدة تعض ملاءة حصير الفرن، نظرت إلى الجمع الملتف حول الفرن، قالت: ماذا أكلت اليوم؟

لحم جمل. وماذا شربت اليوم؟ مرق لحم الجمل

t.me/qurssan

حين خرجت الداية وعادت، عادت بجمل ذكر.

جمل عال بسنم وسنم وشخير. قالت هذا لابد منه حتى ينزل العيل.

سارت منحنية حتى وقفت أمامه، كانت لا تستطيع الوقوف، لكنها تحملت، قالوا خطّى ـ فخطت.

فى المرة الأولى كانت الشمس تضحك فبانت أسنانها الذهبية، ورأت أحد السنمين يتحرك، وقالوا ارجعى ـ فرجعت، كانت عيون النسوة الملتفات حولها ترمقانها، وكانت هناك امرأة تولول وتلطم الخد والخد فسمعت رنة الخدين، وصوت المرأة يناديها خطى يا عزيزة عينى وعين أمك.

فى المرة الثانية زعق الجمل وفتح ما بين رجليه فجفلت ووقعت، أسندوها حتى وقفت.

فى المرة الثالثة أحست بدبيب النمل فى بطنها، ورأت السماء قريبة من الأرض فمدت يدها قطفت نجمة خبأتها فى صدرها.

وفى الرابعة سمعت صوت خرير مياه الساقية وسمعت صوتًا آتيًا من بطن الجمل أن خطى، فخطت. فى الشوط السابع سمع الجميع بكاء «عيل».

وفى الشوط الثامن جلست وجلس الجمل، فتحت رجليها، رأى الجميع شهابًا ينبعث منها فيملأ الأرض نورًا، كان الجمل جالسًا يئن فاتحًا ما بين رجليه، ورأى الجميع رأس جمل صغير تطل من بين رجليه، وكان الجمل يموت، وكان هناك طفل يخرج وقد مس الأرض يتقيها بيديه، رافعًا رأسه للسماء، وصرخ الجمل ثم سكنت حركته.

والشىء العجيب الذى حدث يا سادة، وتعجبت له كل ذى عينين وأنف وأذن، أن الطفل نزل بلا خلاص.

أغسطس ١٩٨٤

t.me/qurssan

لما أتانا الموت

لما كنا إذا مات الواحد منا، تكسرت فروعنا وتحممنا بالطين، وأقمنا العديد، ولبسنا السواد ـ فقد مات واحد منا.

وأول أفعال مساعدة الميت هو فعل توارثناه حتى سابع جد، وهو إسبال الجفن ـ فسبلناه.

وثانى الأفعال نطق الشهادتين ـ فنطقنا بهما.

ثم فردنا اللحاف فغطاه إلا رجليه فتذكرنا وقلنا: رحم الله أباءنا وآباء أبائنا، كانوا لا يمدون أرجلهم إلا على قدر ألحفتهم، أخونا الذى كان يبلغ الجبال طولا هده الحزن فمات موت الفوارس الذين كان يسمع نبأهم من أفواهنا فيردد: أريد موتة كما موتة «الزناتى خليفة» لا كما مات الخفاجى عامر، لكنه ما مات إلا بعد أن اقترب من شمس العرب التى أذابت جناحيه فهوى.

قلنا لم يجئ أوان التلقين الذى نقشه «عبدالجواد» الكبير على سقف الجرة التى ما ترك غيرها لأبنائه الإثنى عشر ذكورا وإناثا فقامت الحرب التى استمرت من السنين أربعين على من يرث الجرة وناديا على النسوان وأذنا لهن أن صوتن يا نسوان «عبدالجواد الكبير «على عبدالجواد» الصغير، الذى كان يرى ماشيا وكأنه راكب، وبيده العصا الخيزران التى

t.me/qurssan

قال عنها: هى عصاى أتوكأ عليها وأهش الناس والعصافير، وأحفظ فيها حربة الزغبى الأحمر.

وقلنا: يا نسوان شققن الصدور والطمن الخدود حتى ينزل الدم الخائب الذى ما عمّر وجوهكن الا لسبب، ففعلن. وجعلنا كل نجاب يمر على بلد بالطبلة والجلدة المعمولة من ذيل العجل فيضرب وترن: يا أهالى البلد الفلانى، مات اليوم فلان الفلانى، إبن فلان. من عيلة فلان، الحاضر يعلم الغائب، والعزاء بالليل، وقلنا:

لن يمر وقت حتى تزدحم البلدة بالمعزين أصحاب الواجب، يأتون راكبى الركايب، من كل صنف ولون، وقلنا لم يمر وقت حتى نقوم بواجب الدفن، فاشترينا، الكفن الغالى من الحرير الأخضر والساتان الأبيض وماء الورد، وقمنا بتسخين الماء وغسلنا وقلنا، سنحن رفاقك يا عريس، بيدك غسلناك لابيد أحد آخر.

وكنا نرى يده تتحرك لتستر عورته فنعجب لذلك ونقول هى حكمة الله أن يرينا معجزة تتحقق، وأنشدنا وجهرنا بالقول. وصلوا بنا على طه الرسول: مادى اللاجدع ياشين صبحيته، ودوه للغاسل بطاقيته. مادى اللاجدع ياشين صبحيتك، ودوك للغاسل بطاقيتك، حتى إذا ما انتهينا من تكفينه، فقرفصناه، ووضعنا تحته لحافه الجديد الذى كان يحبه حبه لامرأته، وقلنا مع السلامة يا «غندور»، سيرى أيتها الخشبة فوق أكتاف الرجال، فأخونا كان يحب أن يحمل على كفوف الراحة، وأخونا كان لا يخاف الموت، وكنا نقول له: إن الموت مخيف يا أخانا.

فيقول: الموت لحظة، حين يريكم سيدنا «عبدالرحمن» نفسه كما يراها الرحمن، ويفرد لكم جناحيه بعرضهما الذى يقدر بمسيرة خمسمائة ألف عام، وطولهما الذى مثل ذلك، فتطلع الروح من الرهبة والخوف، هكذا كانت مراسيم أخونا تتم.

t.me/qurssan

حتى إذا انتهينا وخرجنا قلنا للنسوة الملطخات، بالطين والزهرة الزرقاء،: قدمن تحية الميت، فصوتن وعولن ولطمن الخدود حتى سال الدم، ومرغن وجوههن فى التراب والطين، وحملناه على أكتافنا وجهرنا بالقول فأنشدنا:

طالع واحنا وراه ننوح. قال عاودوا بخاطركم تروح..

طالع واحنا وراك بالعين. قال عاودوا رايحين ورايا فين..

ثم سارت الخشبة بقوة السر الأعظم ناحية الجامع الكبير الذى على كتفيه حمل حجارته، وبيديه «غفق» مونته، حتى أصبح يسر الناظرين، فصلينا عليه مع الصحابة، وقلنا ما صلى أربعون مؤمنا على ميت إلا دخلها، وسقناه إلى قبره الذى تظلله أشجار التوت الأحمر، والتوت الأسود الحبشى الذى يحبه وقلنا قد جاء أوان التلقين:

منها خلقناكم، وفيها نعيدكم تارة أخرى، منها خلقناكم للأجر والثواب، وفيها نعيدكم للدود والتراب، ومنها نخرجكم للعرض والحساب، يابن آدم أذكر وتفكر على ما خرجت عليه من الدنيا، وهو شهادة أن «لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»، إذا أتاك الملكان الصديقان وأخذاك وسألاك عن الكريم الحنان فقل لهما بلسان عربى فصيح: الله ربى حقا، ومحمد نبى صدقا، والقرآن إمامى، والكعبة قبلتى والمسلمون إخوانى، وإبراهيم الخليل أبى. هذا آخر ما تسمع بأذنيك طعام الدود، عليك سلام الله يا أخانا، وحملناه بأيدينا، أخونا الذى حملته الطائرة التى لم يركبها أبوه من قبل ذاهبا إلى بلاد العرب، راجعا يده اليمين وراءه، ويده الشمال قدامه، وسقناه إلى القبر، ووضعناه برفق، وأنمناه على جنبه اليمين الذى كان لايلذ له نوم إلا عليه، وكبشنا من تراب القبر، وقلنا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، إنا لله وإنا إليه راجعون، وضعنا التراب تحت صدغ أخونا اليمين ووجهناه إلى القبلة وقلنا:

t.me/qurssan

لما كنا إذا مات الواحد منا، وانفرط عقدنا، وجب علينا عمل الواجب نحوه ووقفنا موقف الرجال. ولطمنا الخد، وجهرنا بالصوت فأنشدنا بالقول، صلوا على طه الرسول:

باب اللحود مش زى باب البيت، وكتفك عريض وازاى خشيت.

باب اللحود مش زى باب الدار، كتفك عريض وازاى تندار،

ولما رجعنا قلنا قد جاء أوان العزاء ورواية الحكاية من البداية حتى النهاية على الاخوان، وقلنا اسمعوا يا أخوان:

أول ما نبدى القول نصلى على النبى.

نبى عربى ركب البراق وسار،

تبدأ الحكاية من هنا لا من هناك، وهنا كان أخونا جالسا يأكل العيش البتاو مغموسا فى المش، وهنا ضحك، لكنه إغتم بعد أن قالت له زوجته التى شاركته أيام المآسى ولم تشاركه أيام الفرح بعد:

يا زوجى ودرة عمر الصبا الذى ما ولى وما ذهب، أولادك يحتاجون من الهدوم ما يستر مؤخراتهم من ملقيح الشمس، ويا زوجى عيالك يبغون المصروف ليعمروا «سيالاتهم» حتى إذا ما طلبت النفس شراء «الحلبسة» اشتروها كما يشتريها أولاد «الأفندية»، ويا زوجى، ويا زوجى، فازدادت حسرته، وأقسم بالطلاق ألا يزدرد الطعام الآن وقد شفّه الحزن.

هو قام من جلسته حول الطبلية ومشى غضبانا، وتعلقت عياله برجله، لكنه رفسهم فبكوا وصرخوا:

أبانا يا أبانا، لا تتركنا يا أبانا لكنه اختفى من أمامهم، اختفى إلى أين!! هذا ما لا يعلمه إلا الرب، لكن البعض تقولوا على أخينا، فقالوا هو يذهب إلى المرأة الجميلة التى تقع دارها فى أول البلد ناحية الترب، والتى لحظة

t.me/qurssan

يجيئها تفرش له جسمها يتمرغ عليه ويتغطى به من برد الشتاء، وتسقيه من لبن العصفور الكثير حتى يغيب عن نفسه وعن جسدها، ثم تعمل له العمل الذى لا يفيق بعده أبدا فيهيم على رجليه ماشيا على سكة الزراعية متجها ناحية «الشعب» مغنيا:

الطشت قاللى، ترلم، الطشت قاللى.. تررلم،، يا حلوة ياللى.. ترلم لم لم. فيسعد ويضحك وتسمع ضحكاته فى أول البلد وآخرها حتى البرارى وأبو زلوم.

هكذا راوه ماشيا وعلى وجهه انبساطة، وعلى شفتيه بقايا من لبن العصفور الأزرق والأحمر، الذى تقتنيه المرأة الجميلة والذى يتحدث بلسان عربى فصيح وينادى على المارة من شرفته العالية زاعقا: أبوك السقا مات. فيندهش الخلق ويقولون إن هذا إلا سحر هاروت وماروت، وقلنا للناس: أبكوا يا ناس على أخينا زين البلاد الذى ذهب ليرى بلاد العرب بعد سماعه حديث الهلالى سلامة من الراديو «الفيليبس» الذى اشتراه معوض حين سافر ورجع فما اشترى غيره وقميص تلبسه إمرأته الحولاء الحاملة بيضة الرخ بين كتفيها فى ساعات الضيق فيحل الأنس.

ووقف أخونا ذات يوم وتحدث فى الناس، يا ناس، سوف أمشى حتى بلاد العرب، وأكبش من كوم الفلوس وأرجع، فباع أرضه، وذهب إلى البندر لعمل «البازابورت»، وقالت له امرأته: بلاد الغربة ناسها لا يأكلون الملوخية فخذ منها مقدارا أو مقدارين، وصرت له البصل والثوم وذكر البط المحمر، وسافر بعد أن أوصته بجلب الملبوس من الحرير الطبيعى والمقصب، والمشموم من العطور والا ينسى رائحة القسيس التى تحبها والتى تشمها على بدن امرأة مهندس الرى.

سافر أخونا يا مستمعين وما كان فى وداعه أحد. وانتظرنا رجوعه يا ناس فما رجع.

t.me/qurssan

وانتظرنا أن يحمل سلامة نجابا يجوب البلاد فما بعث سلامه.

وانتظرنا، وانتظرنا شتاء بصيف، وصيفا بشتاء، أعقبه خريفًا بخريف، لكنه عاد وعودة الزغبى الأحمر الذى كان يحمل حربته، عاد فى ردائه الأبيض ولم يكن قد كبش من بلاد الفلوس بعد.

t.me/qurssan

ثلاثية موت أمى

أحدوثة عن الفقد

وفيها ما جرى لأمينة بنت مرشدى راضى من
الأمور العجيبة والحوادث المدهشة الغريبة التى
تطرب سامعها وتلذ قارئها
بالتمام والكمال
والحمد لله على كل حال.

t.me/qurssan

القصة الأولى
لما بدأ يتسلل الموت إلى أمى

«لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى
إلا على جبل وعينى تراكم»
أمينة توصى أولادها

أمى التى جاءت من كوم الضبع حتى بولاق الدكرور بالليل فى عربة دفع اجرتها أبوها، حين تزوجها من يكبرها من السنين . بمائة إلا ستين وصار أبى . سوف تموت الآن.

قالته لى بلسانها الذى لا ينطق عن الهوى. إن هى إلا رؤيا رأتها ليلة النصف من شعبان حين نامت على جنبها اليمين فرأت ما لا عين رأت، وسمعت ما لم تسمعه أذن قط، ولا خطر على قلب بشر من قبل، إذ قالت أمى وجلسنا حواليها نسمع:

رأيت مناما، إنما المنام راعنى، طير عقلى من دماغى وراح.

رأيت سبع حمامات نزلن من العلا . نزلن دهاشى يغلبن الرياح.

ورأيت حمامة خضراء تنزل وحدها، وتشير لبيتى فى مساء وصباح

ورأيت بركة ماء مسرد ماؤها، جميع من وقع فيها أكله التمساح ورأيت نفسى داخل قاعة مظلمة، فلا لها ضبة ولا مفتاح، هذا ما رأيت يا أولادى فى رؤيتى، والحكم لله العلى الفتاح.

وحين سأل أمى . أبى، عما إذا كانت قد تغطت جيدا، أقسمت بتربة أمها أنها رأت رؤيا الموت، وسمعت موسيقى الموت ترن فى أذنها الشمال فتأكدت.

t.me/qurssan

قلت لأمى لماذا يا أمى «تفولين» على نفسك بالموت، فأل الله ولا فألك يا أمى.

فتقول لى التى حكت كيف أحبت وكانت بعد صغيرة، وكيف علم بزواجها فمات حزنا، تقول ويحمر وجهها:

والله يا ولدى أحببت فزوجونى من لا أحب. وتخبئ وجهها الأحمر فى صدرى فيختبئ: الموت علينا حق يا ولدى، وسيدنا «نوح» عاش من العمر نحو ألف سنة إلا خمسين فلما جاء سيدنا «عبدالرحمن» فى عشته المعمولة بالخوص قال: يأتى من بعدك خلق يعيشون من العمر ستين ويعمرون ويبنون، ويسعون فى مناكبها، فتعجب من ذكر ذلك. وقال: لو عشت ستين عاما فقط لانتظرت هذه الستين جنب قبرى.

قالت أمى وطلعت مددت على سريرنا العمدان، وطلبت منا الخروج فخرجنا، ثم أنها طلبت من يرتل القرآن ترتيلا فوق أذنيها، فجاءها صوت الشيخ «عبدالباسط»: إذ قال «يوسف» لأبيه يا أبت، ونطرب لذلك ونقول الله يفتح عليك يا شيخ مثل ما فتحت قلوبنا بالذكر الحكيم، ولما سمعت، فصبر جميل والله المستعان، أشاحت بيديها فلم نفهم ماذا. حتى مرت ثلاثة نهارات وليال بالتمام والكمال قالت أمى فى نهايتها، تعالوا يا أولادى سلموا على أمكم.

فجئناها وحدانا، وكانت تقول للواحد منا: سامحنى يا بنى. فيقول: سامحتك يا أمى ليوم الدين، حتى إذا ما انتهينا من السماح الأخير. وكان لأبى. قالت:

ربى اشرح لى صدرى بأولادى فقد خلقوا فى كبد

ثم أنها نظرت إلينا فى حسرة، وقالت بعد أن ذرفت عبرة، أوصيكم تكونوا عند حسن ظن أمكم بكم:

t.me/qurssan

اذكرونى أذكركم، لا تدفنونى تحت شجرة تظلّنى، إلا على جبل وعينى تراكم ـ ليطمئن قلبى.

ثم قالت: غطونى بلحافى الجديد، ثم راحت فى النوم العميق الذى لم تألفه من قبل.

كيف ذهبت بأمى إلى حكيم المصحة

وكيف قال لى: ارجع بأمك يا ولدى

فإنها تموت:

أقول: إن أمى حين تهيأت النوم ـ نامت، وحين دخلنا عليها وجدنا صوت تنفسها عاليا جدا فخفنا أن يزعج صوت أمى ـ أمى، واقتربنا أكثر، اقتربت أنا أكثر فلم تدر بنا، ولما قبلتها فى جبينها لم تضمنى إلى صدرها، ولم تلعب بأصابعها فى شعرى فانزعجت وناديت على الأسطى «خليل» صاحب العربة التى تقف أما الباب فطلع، ورجوته أن يأخذنى وأمى إلى حضرة حكيم المصحة المجاورة فأخذنا، وكانت أمى تنام على صدرى وغطيطها يرتفع. قلت:

نامى يا أمى فى هدوء فقد وصلنا لحضرة الحكيم:

واحد اتنين سرجى مرجى، أنت حكيم ولا تمرجى، أنا حكيم الصحية، العيانة أديها حقنة، والمسكينة أديها لقمة، بدى أزورك يا نبى، ياللى بلادى بعيدة، فيها «أحمد و«حميدة»، «حميدة» ولدت ولد سمته «عبدالصمد» مشيته على المشاية، خطفت راسه الحداية، حد ياحد يا راس القرد، انت ولد ولا بنت.

ضحكت أمى ضحكة طويلة جدا قالت فى نهايتها وهى تمسح عبرة: خير، اللهم اجعله خير، قلت: والله يا أمى حكاياتك جلوة، لكنى بكيت، ووصلنا فحملتها والأسطى «خليل» الله يستره.

t.me/qurssan

ناديت حضرة الحكيم فجاءنى، ولما نظر إلى عينيها نظر إلى، ولما أمسك ساعدها اليمين نظر إلى ساعته وترك أمى ومشى، وحين أمسكته من البالطو نظر وراءهّ، ثم أنه حدثنى هامسا:

خذها معك يا ولدى ولا تتعبها فإنها تموت، واطلب الرحمة من الله.

فلما سكتت حضرة الحكيم بكيت، ثم أننى رميت نفسى على أقرب مقعد فوقعت على آقرب أرض، ولطمت لطمتين.

كيف استقبلنى الأحباب

حين عودتى وأمى بالعويل

والصوات، كذا اللطم:

أقول بعد الصلاة على النبى الزين:

إن بكائى على الضنا الغالى، كان بكائى على أمى لحظة موت أخى الأكبر لما حرمت الزاد على جوفها أسبوعًا إلا يومين.

وهى الآن فى حضنى، وإذ تقترب العربة من البيت أتمنى ألا نصل فتجرنا جرا.. تتنفس بصوت عال، صدرها يعلو ويهبط، وكلمتها لكنها ما كلمتنى، قال الأسطى «خليل»: كن رجلا يا «جمال».. فلم أعد أبكى، لكنى قبلتها فى خدها اليمين وكان بعيدا عن خدها الشمال، شعرت بدفئه فنزلت دموعى على خد أمى دون حس ولا خبر، لم يرنى الأسطى «خليل» فتركتها تسيل.

وصلنا، وكان شارعنا ملآن بالناس، من الأحباب صنف، ومن الأعداء صنفان، استقبلونا بالصوات والعويل حتى باب البيت، حملت أمى فوق كتفى فوضعوا لحاف أمى الجديد على الأرض، أنمتها برفق ووقفت فوق رأسها أشن وأبكى، وفتحت أمى عينيها نصف فتحة أو نصفين، نظرت إلى

t.me/qurssan

دون الخلق، لكنهما أغلقتا قبل أن تتملانى عينا أمى فتحيرت من أمرها وتعجبت. قلت: لازالت الروح فيها، قد تصحو أمى فى أية لحظة، قد تعود لزمن الرمح الذى ولى وما عاد يجىء، تحلقوا حولها، وجعلوا من بين أيديهم سدا، ومن خلفهم، فغشى على ولم أعد أبصر أمى.

ولما أفقت، سمعت أحباب أمى ينادون على أمى أن قومى يا حبيبتى وأن قومى يا ورد فى جنينة قطفوك مبدرين يا عين أمك. انتظرت أن تقوم أمى، هى التى قالت:

لا أطلب من ربى إلا ثلاث: يوم وداع، ويوم نزاع، ويوم أقابل ربا اسمه الكريم..

لكنها لم تقم، فأيقنت أنها تأهبت للرحيل الطويل.

t.me/qurssan

القصة الثانية

العودة إلى كوم الضبع

«وفى كوم الضبع رأيت ما لا عين رأت،
وسمعت ما لا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر».

أحدثكم عن أمى، وأم أمى، وآخرين، وهو حديث متواتر خبرنا صحته، أنهم قالوا فى الحكمة من وجوب الموت فى كوم الضبع.

من كوم الضبع خرجتم إلى الدنيا لتعمروا البنادر، وتنتشروا فى أرض الله الواسعة، وتنجبون من خلق الله ما يسد عين الشمس وإليها عودتكم حين يكون العمر قد بانت أواخره، وحين يغيب الثريا والميزان، ولما يتسرطن السرطان، ويحمل الحمل وحشة الليل فيلين سواده، وحين تطلب الأبراج الأمان، وتضرب الجوزاء بشروق الفجر فتتصدع كالسنديان، وإذا تحصد السنبلة بمناجل النور جيوش الظلام، وتميل كفة الميزان، ويقع الحوت ويظهر عليه الخسران، وإذ يلدغ العقرب الأسد، وإذ يجرى على الجدى من الثور ما يهدكوا سر العقبان، وإذ يباع المشترى بأبخس الأثمان، وإذ يطلب الجسد مكان المنشأ والمختبر، وتطلب الروح غيطان الصبا والنشأة الأولى حيث الجذر ما يزال، وفيها يلقاكم مولانا «الضبعى» راكبا البراق وحوله جنود لم تروها، حيث يدثركم بعباءته المنسوجة من ماء البحر، وحيث يسقيكم شربة لا تظمئون بعدها أبدا، ويهون عليكم لحظات الفراق، وهو صعب، أن العودة آتية لا ريب فيها، تكاد تخفى عن أعينكم، فاذكروا كوم الضبع تذكركم، هذه وصيتى فاستوصوا ولا تهنوا ولا تحزنوا.

t.me/qurssan

بداية العودة :

قلت لأمى النائمة فوق اللحاف الجديد على الأرض أمى يا أمى، لماذا تنامين هكذا، قومى حتى لا يتفرج علينا خلق الله من الأحباب والأعداء، لكن أمى عاندتنى، هى التى لم تقل لى أف من قبل ولا نهرتنى، وصاحبتنى فى الدنيا معروفا، كان صوت تنفسها يسمع على مسيرة يوم، ودخلت مرحلة السكون الموحش، ولم تسمعنى فخرجت، رأيت الأحباب والأعداء فى اجتماع يلطمون الخد والخد، ثم الصدر.

قلت: لماذا يا أحباب أمى تعذبون أمى، ألم تنهكم عن لطم الخد وشق الصدر يوم فاجأها ملاك الموت يقطف ورقة أعز الولد. ولما جاء الأسطى «خليل» بالعربة وقال هيا، حملتها على كتفى فأطاعتنى، وكان جسمها ساخنا فتدفأت، ثم أننا ركبنا العربة ووقف أحباب أمى لوداعنا فى الشارع الذى عاشت فيه من السنين ثلاثين مما تعدون، وخرجت منه بيضاء من غير سوء.

استقبلنا الطريق الصحيح، وبدأنا رحلة الشتاء والصيف.

الآن، والساعة تقترب من الثانية صباحا، والأحوال هادئة تماما، النفس يتردد فى صدر أمى زيادة أو نقصان، العربة يسوقها الأسطى «خليل» أخى جالس بجانبه، أمى نائمه على صدرى، أختى بجانبها من الناحية الأخرى تضع كف يدها اليمين على عينيها وتبكى فى صمت، وأنا أربت فوق خد أمى. استقبلنا أول لافتة على جانب الطريق:

القاهرة - الباجور ٦٠ كم.

الجو حار والأشجار مرتخية، ضوء شاحب من قمر الموت يضيع فى العتمة والحزن، عما قريب سوف نصل كوم الضبع، تماما بعد ألف شجرة تعرفها أمى، وتكون السواقى دائرة وبعض الحلاليف، كذا يكون الشيخ

t.me/qurssan

«الضبعى» خرج من مقامه فى البحر، فى انتظار العائدة يحمل برديته المنسوجة من ماء البحر، ومن حوله جنود لم يرها أحد من قبل.

كوم الضبع ٥٠ كم.

الآن، لا صوت يعلو فوق صوت أمى، والعيون تعبت من البص فى العتمة، أخذت أحملق فيها، هادئة تماما، صدرها يعلو ويهبط، إحك لنا يا أم، والزمان زمن الشتاء حيث الليل أطول من النهار.

والمكان ـ بيتنا الحجرتان وعفشة مياه وصالة.

والأحوال ـ حال من ينتظرون عشاء تأخر كثيرا، واحك لنا يا أم، أحكى لكم يا نن عين أمكم، ولما قابلها، وكان الشرر يطق من عينيها، والأفاعى تلعب على شفتيها، قال لها: السلام عليك أنا الغولة، فلما قرأ عليها السلام، و نظرت إليه فى حسرة، ونطقت بعد أن ذرفت عبرة: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك، ثم أنها أرضعته من لبنها: شربت من بزى اليمين صرت كولدى أمين، شربت من بزى الشمال صرت كما ولدى هلال.

كوم الضبع ٣٠ كم.

خرجت من كوم الضبع وأنا بنت «بنوت» وكان صدرى لم يطلع بعد، فى بولاق الدكرور خدمت على ثمانية أطفال وأب، وصرت أعامل كما تعامل امرأة الأب، ذقت من المرار مقدارين حتى جئتم إلىَّ وحدانا، الحق أقول لكم يا عيال أمينة أننى هدّنى التعب والمرض، وقد صرت مريضة بداء «الكلى» حين يكون وجودها مثل عدمها، وأمراض أخرى من الحزن على أيام ولتّ وما عادت تجىء، وهذا أوان الموت يبدو.

بعد الشر عنك يا أمى ـ يجعل يومنا قبل يومك.

t.me/qurssan

كوم الضبع ١٥ كم.

قال طبيب الأطبة: إن استطاع أحدكم التبرع بكلية قد تنجو أمكم، زعقت: أنا يا أمى ولدك البكر، وأنا يا أم أحق من إخوتى. وأنا آخذ منى لأعطيك.

قلبى لا يطاوعنى يا نن عين أمك، وهل أخرب فيك لأعمر فى، أيامك يا ولدى آتية، أما أنا فعائدة إلى حضن أمى وأم أمى الأرض، عائدة يا ولدى إلى كوم الضبع، ففيها نشأنا النشأة الأولى، وفيها تفرعت سيقاننا، وإليها نعود، عليكم بحفظ وصايا أمنا الخضرة فهى الجذر، سمعت بكاء أختى فنهرتها حتى لا تزعج أمى، وكان أخى يتحدث إلى الأسطى «خليل» كيف أن الرؤية غير واضحة فى الليل.

كنا نقف خلف رجال القرية نعمر البنادق أيام الاحتلال، نقطع السكة الحديد، نغنى: يا عزيز، يا عزيز، كبة تاخذ الإنجليز، حين طلع علينا مولانا «الضبعى» راكبا البراق فى سماء الله الواسعة متدثرا بعباءته، ماسكا سيفه «الظامى»، حاربنا خلفه حتى كسرنا الأعداء، وخلفه جنود بعرض المشرق يسمع صليل سيوفهم على بعد مسيرة خمسمائة عام، وإلى مقامه فى البحر عاد . هذه يا ولدى هى كوم الضبع.

كوم الضبع ٥ كم:

أيها الأخوة المؤمنون، نبدأ أولى شعائر الفجر من مسجد مولانا الإمام «الحسين» يتلو علينا القارئ الشيخ عبد الباسط محمد عبدالصمد» ما تيسر من الذكر الحكيم.

أمى الآن هادئة تمامًا، لا تنطق عن الهوى، إن هو إلا نفس بطىء يخرج وهنا على وهن، بعض التقلصات الخفيفة أسفل الشفة السفلى، لكنها هادئة، ابتسامتها ناضرة، إلى ربها ناظرة، و حين بلغت أمى التراقى، وقيل من راق، وظنت أنه الفراق، والتفت الساق بالساق، قالت، اليوم إلى ربى المساق، وقالت: هذا جلبابى تصدقوا به على روحى وادعو لى.

t.me/qurssan

عمل إبن آدم يرفع إلا من ثلاث، منها ادعوا لى يا أولادى، ومنها لا تنسوا أمكم، ومنها زورونى تمنعوا عنى وحشة القبر.

أبكى، وأختى تبكى، أخى لا يبكى، الأسطى «خليل» يشق الظلام بالعربة السوداء، الضوء الشاحب الآتى من أعمدة النور يموت فى العتمة قال الأسطى «خليل»: نحمد ربنا، الطريق خال وأحدا لم يوقفنا من عساكر المرور، رد أخى، لكنها لا تزال فيها الروح. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب والعصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذبان.

من سنواتى المعدودات لم أر يوما إلا أسود من قرون الخروب، أتيت من كوم الضبع يا مولاى كما خلقتنى، ولى من التصاوير عن البنادر الكثير. فى بولاق الدكرور عشت على الحلاوة الطحينية والعيش «السوقى» ولم أزهق، أكلت الدقيق السن معجونًا فى الزيت أأشكر أم أكفر بنعمة الله، حزمت وسطى بحزام «الألشين» وحملت وراء أبوكم الطوب والرمل كما الأنفار، وكنت أناوله حتى علا المدماك فوق المدماك وبنينا ما يستر ولا يفضح، وصرت حاملا، والحمل مصيبة الغلابة، وكانوا يتفرجون على حين أمسى حاملة ما يهد الجبال الرواسى، وحين أصبح على لحم بطنى إلا ما يعصمنى من الماء لكنهم إخوتكم على كل حال، من صلب أبوكم المعلم جاءوا بحكمة الله.

خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، فبأى آلاء ربكما تكذبان.

أوصيكم فاستوصوا بمحبة أبناء البطن الواحدة، اعتصموا بحبل الأخوة ولا تفرقوا. واذكروا أمكم وصلوا الرحم، إذ كنتم نطفا فألف بينكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا الموت والضياع فأنقذكم منه، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد أمهم.

t.me/qurssan

وما أنا إلا بشر جاء أوان مواته، أفئن مت انقلبتم على أعقابكم قال الأسطى «خليل»: لا تذكر علينا ذنوب الأولين لتتقدمنا مراحمك سريعا لأننا قد تذللنا جدا، أعنا يا إله خلاصنا من أجل مجد اسمك، ونجنا واغفر خطايانا من أجل اسمك، فبأى آلاء ربكما تكذبان.

«مرحبا بالزائرين «الباجور» محافظة المنوفية».

تهادت العربة لحظة اجتياز كشك المرور، خرج شرطى يحمل كشافا للضوء، نظر إلينا وأشار أن سيروا بالسلامة، فرقع بشفتيه:

يحيى العظام وهى رميم.

قلت: أنى يحيى الله أمى بعد موتها، لكنى تأسفت فى قلبى فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان.

قال أخى: خالى يخشى دائمًا الموت الفجأة، ومن دعائه

«اللهم اكفنى شر القضاء والمستعجل، ومنه أيضًا»

«اللهم لا أسألك رد القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه»

سوف يصابون بالذعر من قدومنا الآن.

قال الأسطى «خليل» أليست لكم مدافن فى القاهرة!

قال أخى: لنا مدافن كثيرة، ولكنها العادة أن نكدح إلى ربنا كدحا فنلاقيه وسط الأحبة والأهل فى كوم الضبع، تشهد علينا ساعتها سنوات الصبا والرمح ويشهد علينا مولانا «أبو الفتوحات عبدالله الضبعى».

لحظة أتانى فى المنام، شممت رائحته على بعد مسيرة خمسمائة عام، ورأيت نوره يسبق هيبته فعلمت أنه هو، وأنه ما جاء إلا بمقدار، وأن سبب إتيانه ما هو بالهين، كلمنى دون أن ينطق، ورنت كلمات فى وجودى البدنى فارتبكت، واهتز فرعى، وكاد صوته يدكنى، دكًا، ويزلزلنى زلزلة، ولما رآنى

t.me/qurssan

لا أعى من حقيقة وجودى الدنيوى شيئًا ضمنى إلى حيز وجوده فكان بردا وسلاما على قلبى العليل، وألقى فى مسامعى فأنصتت جوارحى، سلام عليك أمينة يوم ولدت ويوم تموتين ويوم تبعثين حية، فرددت عليه بمثل ما قال.

قلت : أرنى أنظر إليك.

قال : لن ترينى، ولكن انظرى إلى شفتى فإن تحركتا فسوف ترينى. فلما نظرت إليه خررت صعقًا، ولما أفقت تأسفت فى قلبى، وعلمت أن رؤيته محال، وخفت غضبه منى.

قلت : مولاى، اجعل لى آية.

قال: آيتك ألا تكلمى الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا.

قال: مع السلامة يا أمينة.

ثم قال: وهذا فراق بينى وبينك.

فعلمت أن زمن الموات آت لا ريب فيه، وأن هذا أوان قدومه، فتأهبت للرحلة التى قطعتها أمى، وأم أمى، وأبى من قبل.

قلت: ولكن هذا السفر يزعج أمى فى لحظات، الموت فيها أقرب إليها من حبل الوريد.

وقلت : لكنها كانت تحب كوم الضبع.

ثم قلت: وكانت تعشق البحر والترعة، وشجر التوت الأسود الحبشى.

وقلت أيضًا: هل أتاكم حديث أمى لحظة يفجأها حنين قلبها بنبأ لذهاب لكوم الضبع، تنجلى كما العروس ليلة الجلوة، وجهها ليلتئذ أبيض من غير سوء، تتعجل الذهاب فتصحو مع نجمة الفجر، تجهز «السبت» الكبير من الليل، تستحم وتمشط شعرها السارح على ظهرها فيكون ضفائر، ويكون كما ذيل الحصان، أكوى جلباب السفر الأسمر القطيفة

t.me/qurssan

والطرحة الحرير الطبيعى، لا ترتديهما إلا على سفر، تعبئ «السبت» بالأرز والسكر والعدس، وأخرج لوداعها فى الصباح حاملاً «السبت» تشترى بعض الفاكهة، تعطينى واحدة من كل صنف، تضحك فى وجهى: هم يفرحون لمجيئى. خذ بالك من نفسك واخواتك. أقول:

لا تتأخرى يا أم.

تدمع عيناى، تخبط بكف يدها على صدرها: هل يبكى الرجال يا «جمال»، يا وكستى فى أول بطنى كأنك لم تصبح ولدًا طويلاً بعد.

ـ أختك «نادية» الصغيرة لم تبك.

لا تتأخرى يا أم. تقبلنى، اجرى إلى العربة فأحجز مكانًا لها، تجلس، تهم العربة بالسير، تنظر إلىّ: هل معك نقود؟!

أهز رأسى: نعم. تمد يدها إلى صدرها، تخرج «البُك»، تفتحه وتخرج نقودًا. خذ . لا معى. خذ. أمد يدى وأضع النقود فى جيبى. سأغيب يومًا أو بعض يوم.

سلمى لى على خالى، وجدى، وكل الناس. أنزل.

أقف على المحطة، تطل من الشباك، ألوح بيدى وتلوح بيدها، تسير العربة فأظل ناظرًا للشباك: مع السلامة، مع السلامة. حاسب على نفسك. عند رجوعى البيت ينظرون إلىّ، يضحكون، يأكلون ولا آكل، هل تصوم حتى ترجع أمك، طفل كبير. ابن أمك.

أنتحى ركنًا وأقرأ «روكامبول»، وحين يهم بقتل «أندريه» أتذكر أمى فأبكى. متى تعودين يا أم، فإن لك وحشة عظيمة، كأنك تسافرين فى زمن بعيد.

فبأى آلاء ربكما تكذبان.

t.me/qurssan

كوم الضبع - هدئ السرعة:

الآن، وكوم الضبع راقدة فى حضن البحر والترعة، جامع جدى الكبير فى أول الطريق، المقابر على شماله، البيوت الطين.

فيهما فاكهة ونخل ورمان، فبأى آلاء ربكما تكذبان. هدأت العربة، ووقفت تمامًا أمام بيت جدى، قال أخى:

سوف أذهب لأخبرهم بقدومنا. كنت أبكى، وأخذت يدى تتحسس ضفائر أمى، ضممتها إلى صدرى، قبلتها فى عينيها المغمضتين.

سمعت صواتًا عن بعد، جاء أخى، وجاء خالى وامرأة خالى وعيال خالى، أخذوا يلطمون، لطم خالى زوجته على فمها وقال إخرسى، فخرست إلى حين، وقال اسكتوا كلكم، لا أسمع نفس أحدكم.

قال خالى وأخذ يضرب صدره: حمد الله على السلامة يا أختى.

حملناها إلى الداخل، وضعناها فى المندرة الكبيرة.

قالت أمى: نفسى فى ميتة كما مات أبى وأمى على سرير واحد.

صعد خالى بجانبها على السرير، وضع كف يده على فم أمى وأنفها: لازالت تتنفس، الروح لم تطلع بعد. قبلها فى جبينها وكنا حواليها، يا حبيبتى، أنام نومتك يا ختى. كانوا يصرخون.

قلت: خلاص يا خالى!! مازالت تتنفس والروح فيها.

يا صغيرة على الموت يا ختى. امتلأ البيت بالناس أشعلوا الصوات فى البيت. صرخ خالى: لا أحد يصوت، الروح لم تطلع بعد.

سكتوا فجأة ونظروا إلى أمى، وضع خالى كف يده على فمها، نظر إليها ونظرتُ إليها، أمى كانت هادئة، قبلها خالى فى جبينها وأسبل جفنيها، أمى كانت تبتسم لى فابتسمت لها. سحب خالى اللحاف فغطى كل

t.me/qurssan

أمى، وأمى أخفت وجهها فى اللحاف ونامت. نزل خالى من جنب أمى، جلس على حصير الأرض وقال: خلاص.

ثم وقف وضرب كفًا بكف وقال: خلاص.

ثم جلس وقال: خلاص يا ختى ، العوض على الله.

وبدأ يلطم خديه.

t.me/qurssan

القصة الثالثة

الجنازة

وفيها ما حدث بالتمام والكمال
والحمد لله على كل حال

يا أيها الناس، إذ أقص عليكم حكاية موت أمى فاستمعوا وانصتوا ـكم تبلغون من الحزن ما أنا بالغه.

إذ لا يعلم أحدكم كم من السنوات رمحت فى غيطان البرسيم. كلا لا ـعمون. ثم كلا لا تعلمون كم من السنوات جلست على حافة البحر فطلعت ـ امرأة ذات ثدى واحد وعين فى منتصف الرأس تملأ «البلاص» ونادتها ـ تعالى يا «أمينة» لحضن أمك ـ وكانت تشبهها، ونادتها أن ضعى ـلاص» على رأسى يا ضناى.

فخافت وجرت تنتفض إلى الدار، واختبأت فى حضن أمها «زينب» ـلت: زملينى يا أم.

وكم مرة أغراها الماء فخلعت ملابسها ورمت بدنها الصغير فى حضن ـجر.

ـذى يعلم ذلك واحد فقط لمحها ذات مرة تستحم، ولمحها ذات يوم ـمح رمح أنثى النعام فى السهول.

وهاله جمالها حين التفتت وراءها فتربص بها، وصار يتعقبها ولما ـست بانفلات أنفاسها. وانحلال عضلات رجليها، كان قد تحول إلى ريح

t.me/qurssan

دخلت أول ما دخلت إلى صدرها الصغير - فتكور، وانتفض لها ثديان يطلان من ثنايا قميصها الصغير فانفتق، ونظرت رأت نفسها كما فتيان البنادر اللاتى تطل أثداؤهن من غير حشمة - فاحمر وجهها الأبيض الشارب حليب الشمس، واخضرت عيناها بلون البرسيم، واحمرت شفتاها بلون ثمار «الخوخ»، وصار يمشى فى بدنها فيرسمه رسمًا يسر الناظرين، ثم كر راجعا إلى وجهها فكوره وختمه عند خدها اليمين وأسفل ذقتها.

حين فعل ذلك وقف ينظر إليها فأعجبه رسم يده ثم رجع إلى النهر كما جاء منه. ولما عادت إليه فرح كثيرا جدا، وضمها فى عباءته الماء، وأمدها بألف من أتباعه ازدادوا مائتين، زفوها وهم يحملونها حتى باب المستقر. ولم ينس أن يتلو عليها ما تيسر من حكاياته التى تحبها.

جفت الأقلام، وطويت الصحف، وكان نهارا. وإذا الأرض يضج رملها وحصاها، كذا ترابها.

وإذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا السماء كشطت، وإذا البحار فجرت، وإذا يذهب خالى إلى الباجور فيعود بالكفن الغالى والقطن وماء الورد، وإذا يذهب أخى فيعود بشهادة الموت الخضراء وإذا تجىء المغسلة والنساء ويبدأن فى تجهيز أمى، وإذا تخرج أختى وترانى فتهز جذعى ولا تساقط من عينى دمعة واحدة.

وتقول لى: إبك.

وأقول: ما أنا بباك

إبك

ما أنا بباك

إبك لأجل أمك التى ما عاد ينادى عليها أحد.

t.me/qurssan

فأبكى.

أقف تحت شباك ترقد خلفه أمى.

أيا وردة فى جنينة ياختى

أخى الذى يحرس جو مصر يجىء بملابس الجيش والناس يسندونه، لم يقل له أحد إن أمك تعيش انت، لكنه راى رؤيا عجيبة أثناء الخدمة «شنجى» تعجب لها الحاضرون، وجاء يبكى.

يا وردة فى جنينة قطفوك ياختى.

قالت أمى: «جمال» يا ولدى، و «جمال» يا ضناى، لا تجعل من يقف على غسلى يعدد على حتى لا يحرقنى.

يا مرحبا اللى جيتى.. يا ما القبر يقولك ياختى. يا مرحبا اللى جيتى. وحيات شبابك لأدوبك وأبليكى. وقف الرجال عن يمينى، وعن شمالى وخلفى، ولما صرخت: أتركونى - لم يتركونى فبكيت. ووقفت أختى الصغيرة وصرخت: يا ناس، ما تفعلونه حراما يعذب أمى، دعوها تنام فى هدوء ولا تحرقوها بالعديد ثم جلست تقرأ ما تيسر من قصار السور.

هو الحكيم. قال ايه، حكيم الندامة يا أختى.

هو الحكيم قال ايه.

عطانى دوا يا ختى ما جيتش عليه. يا خرابى أختى.

يا دايم هو الدايم، لا دايم غير الله.

هب الرجال يجرون، وخرجت النسوة السود وراء الخشبة الخضراء المحزومة بحزام أخضر.

يا دايم هو الدايم... ولا دايم غير الله.

t.me/qurssan

طلعت الخشبة أمام الجنازة إلى الطريق الزراعى انضمت الخلق إلى الخلق استقبلوا الطريق الصحيح وبدأوا يزفون أمى يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله.

جرت الخشبة تكاد تطير ـ بل طارت ـ فجرت الناس وراءها ورأى البعض الشيخ «عبدالله الضبعى» راكبا البراق يتقدم الجنازة، فتعجبوا من ذكر ذلك.

أمسك «عبدالصبور» ماسح الأحذية بيد رجل ورجل ورجال، كونوا حلقة أمام النعش، أخذوا يسيرون بظهورهم للأمام، يتمايلون ويقرأون: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا».

اقتربوا من جامع جدى الكبير، الطريق مسدود بالناس والعربات.

«ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا». يا خرابى.

ياعين أمك يا أختى.

«قواريرا من فضة قدروها تقديرا».

أخذنا نخلع أحذيتنا ونتسابق فى دخول الجامع.

قالت أمى: إذا صلى على أربعون مؤمنا ضمنت دخولها.

حين اقتربنا من الترب نادينا: السلام عليكم آل دار الحق.

فردوا علينا بأحسن منها، ثم وضعنا الخشبة برفق أمام المقبرة المفتوحة.

وبدأنا فى دفن أمى.

أبريل ١٩٨٥

***

t.me/qurssan

حرب أطاليا

t.me/qurssan

إليـــك

إذ كنت فى الزمن الفائت
لا خوف على ولا انا فى حزن،
إذا نسيت: توحين إلى بما قد نسيته،
أما الآن: فلك الله يا معلمتى،
فإن أكن قد نسيت، فلن يكون
لك ذكر من بعدى.

خيرى عبد الجواد

t.me/qurssan

«سرى وسرك يا أمى

فى طبق صينى

والطبق انكسر

يا أعز من عينى»

t.me/qurssan

أول ما نبدى القول

« ممر إلى جبل الحكايات »

الحمد لله الذى أظلنى زمن الرمح الذى أظل معلمتى، والصلاة والسلام على نبى تظلله غمام.

إذ تقول معلمتى ـ يا سادة ـ وكان أوان رحيلها على مسيرة ثلاثة أيام بليل طويل لا يبين:

الآن، لا خوف عليك ولا أنت تحزن، اذهب أيها الولد الكبير الذى سمع من حكايات أمه الكثير، ولم ير فى حياته إلا عفاريت السيد سليمان من المردة والجان، وأحذر يا ولدى الكبير ، فالمرتقى صعب، وسوف يأتى زمن لا خير فيه، القابض على حكاياته كالقابض على الجمر، وفيه خلق كثيرون يسدون عين الشمس، ينتشرون فى أرض الله الواسعة، يعمرون ويبنون، ولا يحفظون الحكايات.

وتقول معلمتى: هل تذكر البدايات يا ولد، حين قلت من الحكمة كلمات: قلبى على ولدى انفطر، وقلب ولدى على حجر.

الآن أقول عكس ما قلت ويزيد: قلبى على ولدى مثلما قلب ولدى على. اذهب أيها الولد الكبير، واتل عليهم ما تيسر من حكاياتى ورتلها ترتيلا.

أوقفتنى فى موقف الموت وقالت لى: قد حان حينى وانتهى أجلى، وهذا أوان الفراق، وقالت لى: إليك سلام الفانى للفانى.

t.me/qurssan

وحين ألقت على معلمتى بكلمة السر، أسلمت روحها لخالق الخلق، وماتت من وقتها وساعتها، رنت كلماتها فى صرصور أذنى شمالها واليمين فاقشعر منى بدنى، وانهد أساسى وفرعى، فقد خفت ـ يا ناس ـ ألا أكون قد حفظت عن معلمتى، كذا كلمة السر خفت من ضياعها، فبدونها يصبح وجودى فى عدم، إذ كنت فى الزمن الفائت لا خوف على، إذا نسيت توحى إلى بما قد نسيته، أما الآن، فقد انقطع زمن وحى معلمتى ـ وقعت فى البلبلة ـ قلت: لك الله يا معلمتى، فإن أكن قد نسيت، فلن يكون لك ذكر من بعدى.

ارتديت رداء الحكايات، حملت معى ما تيسر حمله من الآت الحكى، أغمضت شمال عينى واليمين، وتوكلت على الحى الذى لا يموت، ثم أننى رميت نفسى فى بحر الظلمات ـ أول طريق المجاهدة ـ فاتنبه ـ؟

فى البحر رأيت ما لا عين رأت، وسمعت ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط. إذ رأيت أول ما رأيت أبا زيد الهلالى واقفا كما الفوارس، حاملا سيفه فوق رأسه بيديه حتى بان سواد ابطيه، تماما كما رأيتك يا هلالى فى تصاوير الكتب، كان يحمى أول الطريق، رميت عليه سلام الهلالية فرد بأحسن منه، سألته عن جبل الحكايات، فهو مرادى ومقصدى، وأنا غريب يا أمير، وهى تغريبتى الأولى وأنت عركت المسألة.

فتكلم بنظامه، وأخذ يشرح معنى كلامه، وصار ينشد ويقول، أنا وأنتم نصلى على طه الرسول:

انا اول ما نبدى القول نصلى على النبى

نبى عربى والمدح فيه حلال

ثم اخذ يشرح لى اصل الحكاية . حكايته . من البداية للنهاية، ثم قال لى:

امانة يا فتى تروى عنى:

انا ابو زيد حامى العرايب

t.me/qurssan

وبينما هو كذلك، إذ خلع آله حكيه التى كان يحكى بها وناولها لى فحملتها وكانت ثقيلة، لكنى احتملتها لأنى أحبها، وقلت:

سوف أحكى بها بمقدار. وقلت:

- أعذرنى يا أمير، فقد أخذت العهد ألا أحكى إلا عن معلمتى. انطلقت، وكنت أسير وخطوتى تسبق بدنى على مسيرة خمسمائة عام، حين لمحت أحد أبطال الهلالية الكبار، عامر الخفاجى ينزف ما بين كتفيه، ولما رميت عليه السلام ورد بأحسن منه أغرورقت عيناه وفرت من عينى دمعة لكنى تماسكت، ثم أنه جلس وجلست قدامه، وقال وأخذت أنصت فى خشوع - وكيف لا وأنا فى حضرة أستاذى - صار يفطننى على مخاطر طريق جبل الحكايات وأنا أطمئنه حتى اطمأن، ثم أنشدنى والله يا سادة لم أسمع أعذب منها وهأنذا أذكر لكم بعض لا كل:

الا يا عباد الله يا ميلة الزمن

الأيام والدنيا تسوى عجايب

إذا ما صفت للمرء اول زمانه

ففى الآخرة تسقيه مر المشارب

ولما انتهى من نظمه غشى علينا مدة ساعة، ثم أفقنا فأخذنا نبكى على ما صارت إليه حال الأبطال، وقلت:

فى زماننا يقتل الأبطال غيلة أيضا، تنوعت الأسباب والموت واحد، فلا تبتئس يا أمير. فنظر إلى نظرة أعقبتها ألف حسرة وقال: لا تنسى أن تروعنى أيها الولد الكبير.

قلت وأنا أقف موقف التأهب: ولكنى أحمل من حكايات معلمتى ما ينوء بكلكى. وقلت وأنا أنطلق: أعذرنى يا صاحبى، وتأسفت وكنت أسير بسرعة الحكايات لما لمحت سيف ابن ذى يزن - الملك - التبعى الحميرى، وكان يبكى،

t.me/qurssan

ورايته يرنو إلى قلب أمه قمرية الذى وقف منتصبا أمام عينيه يرفرف كما حمامة ذبحت قبل حين، الدم ينز منه قطرة فقطرة، فلا الدم ينتهى، ولا القلب يغيب عن العينين.

وقال هذه لعنة أمى قمرية، لما تركت زوجاتى تقتلنها. وقال أيضا:

لكنها عذبتنى أيها الولد الكبير حتى أنها رمتنى. هل تصدق. فى وادى السبع مهلكات.

قلت أواسيه: لك الله يا ملك.

وقلت أيضا: لكنها كانت أمك على كل حال. ثم أننى جلست بين يديه ساعة، وقال لى، اروعنى يا ولدى، ليطمئن قلبى فاعتذرت ثم اننى استأذنت فى الرحيل وانصرفت، وكنت أمر من مضيق وعر، وهنا تلكأت، ثم أننى تذكرت قول معلمتى: احذر يا كبدى حين تصل إليه، فأحد لم يطأه ونجا. وهنا خبرت وعاينت صفة المضيق فتحققت صدق معلمتى، إذ أنه يقع بين صخرتين تتحركان بفعل الرياح فى تطابق وتفارق دائمين، يحطمان ما بينهما ويطحنانه طحنا، المهم. يا سادة. توكلت على ربى ورميت نفسى وأنا أتل الشهادتين وأتفكر فى أبطال «الأرجو» فقد مروا من هنا. خيرة أبطال اليونان،وما أنا بأحسن منهم على كل حال، اجتزت المضيق، بالعناية والتوفيق، وقلت أن التاريخ يعيد نفسه.

والله، وتأملت الحكمة من وراء ذلك. فما وصلتنى. وكنت أجتاز صحارى ومفازات لما لمحت فارس العرب عنترة مكبلا وفى حالة لا تسر عدوا ولا حبيبا، إذ رأيت السادة يضربونه، كذا العبيد، فتعجبت، ثم إننى بكيت لحاله وقلت:

وهل هذا زمن البطولات تحسب؟ فنظر إلى نظرة اعقبتها ألف حسرة، ثم أنه بكى، وأنَّ واشتكى، وصار ينشد هذه الأبيات، أنا وأنتم نصلى على صاحب المعجزات:

t.me/qurssan

حاربينى يا نائبات الليالى

عن يمينى إن شئت او عن شمالى

وكان يسترسل فتركته وانصرفت، وقلت:

ولا هذا زمن المعلقات يا عنتر.

وكنت على مسافة طرفة عين تقدر بثلاثمائة سنة مما تعدون حين رأيت من وقف له شعر راسى وشاخ. إذ رايت شهرزاد، كبيرة أساتذتى العظام، تبكى بغزير الدموع، وكانت تجلس فى واد يقال له وادى الزروع فيه زروعات واطيار، أشجاره باسقة، وطيوره مغردة وناطقة، وأنهاره جارية، وفيه من كل صنف زوجان، فسبحان منشى الجنان، فلما رأتنى - يا سادة - تلففتنى وأخذتنى بين ذراعيها، وقبلتنى فى فمى فقبلتها بين عينيها تأدبا، فأنا فى حضرة شيخة أهل هذه الصناعة التى أنتمى إليها، وما منا إلا من تلمذ على يديها. جلست بين يديها ساعة، إذ تقول وأنا أنصت فى شوق عظيم، حتى ظننت أننى مفارق من شدة وجدى وإنصاتى:

بلغنى أيها الولد الكبير، ذو الرأى والتدبير، فقد حدث فى هذا الزمان، وحاضر العصر والأوان، أن عسس السلطان، قاموا بإحراق ما رويته فى غابر الأزمان، وهو درة من الدرر، وعبرة لمن يعتبر، وأنه لن يكون لى ذكر بعد الآن. بكينا ساعة حتى عشى علينا مدة من شدة المصيبة، وأحوال هذا الزمان العجيبة، ولما أفقنا، اتكأت على حجر، ومددت ساقى على ملمح البصر، وصارت تنادمنى وأنادمها، وتواسينى وأواسيها، ثم أنها ارتدت آلة حكيها، وبدأت تقص علىّ أحسن القصص، وعما يفعله فى زماننا السلطان والعسس، وقالت لى بعض الحكم، ونبهتنى أن أضعها حلقة فى أذنى. حتى وصلت إلى آخر الحكايات فقلت:

صدقت والله يا أستاذة، وما هو بالشعب الهين، فإنه يمهل ولا يهمل. ثم استأذنت فى الرحيل فأذنت لى، وقالت لى:

t.me/qurssan

اروعنى تحفظ هيبتى.

وكنت اسير حين قلت:

اعذرينى يا شيخة، لن أروى عنك إلا بقدر. هكذا أقسمت ألا أروى إلا عن معلمتى، وانطلقت وقد فاض بى الكيل، وبى من الوهن عظيمه، فالرحلة طويلة، ونهايتها لا تعنى نهايتها، وفضاء الله واسع رحيب، وسيرى وحدى بلا أنيس ولا ونيس سوى حكايات معلمتى. ولكن ما بالى أشعر بالغربة تزلزلنى زلزلة، وتدكنى دكا، تثقل كلكلى. ولا هذا زمن الحكايات ولا يحزنون، ولا بد من الوصل من أجل الوصول. وهنا أتوقف برهة لالتقاط النفس، وأقص بعض نشأتى:

فى أفقر الأحياء فقرا نشأت نشأتى الأولى، وبين حبوى واستقامة عودى رأيت أكثر مما يحتمل سنى، وبين سعى وانتشارى فى أرض الله الواسعة ذقت مرارة فقد معلمتى، حفظت عنها وكنت أقرب إليها منها، خبرت أبى وحارتنا، وقريتنا التى خرجنا منها يد من أمام وأخرى وراء، خبرت النائم على لحم بطنه . فهو منى .، كذا خبرت شقاء اليتم حين يموت آخر من يحبك وما هذا بالهين.

قلت: مثلى كمثل الحامل حجرا يصعد به جبلا، وكلما بلغ نهايته عاد إلى بدايته، ومثلى كمثل الواقف وسط نهر يبلغ الماء صدره، ويشتد به الظمأ وكلما أراد رى ظمئه انحسر الماء عنه، ومثلى مثل مثلى، كدت أوشك على يأس يرجع بى ألف سنة إلى ورائى لما لمحته، جبل الحكايات، رأيته على مسيرة يوم شددت حيلى وتقدمت، وفى هذا اليوم خطوتى تسبق بدنى، تماما كما وصفته معلمتى، لما اقتربت، وقع نظرى على أمنا الغولة، كانت تقف أول الجبل تحرسه، قلت: عليك السلام يا أم.

ردت: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك. مدت بزها اليمين فشربت، مدت بزها الشمال فارتويت حتى شبعت، لم أخف من

t.me/qurssan

لأفاعى وهى تلعب على راسها، فى كل عنق مائة رأس، جلست بين يديها ساعة، حكت لى حكاية ست نتر، أمها الشمس وأبوها القمر، وأخوها على ملك البحر.

أعجبتنى إذ تقول: صلى على النبى الزين.

فأرد فى فرح لا يخفى عليها: وعليه الصلاة والسلام.

وتقول: كان يا ماكان. فأطرب وأنا أنصت.

وقالت: الآن صرت كولدى وحشاشة كبدى، أيها الولد الكبير، أوصيك لا ترتقى، فالمرتقى صعب وأخاف عليك الوقوع.

قلت: ولكن يا أمى فات أوان الرجوع، وقد وهن عزمى وانهد حيلى.

قالت: اقنع بما وصلت إليه ولا ترتقى، ثم إنك صغير السن ولا تعلم كنة السر. تبسمت وتحسست نفسى وقلت: هى معى يا أمى فاطمئنى.

قالت فى دهشة: وكيف كان ذلك، كيف حصلت عليها؟

قلت: من معلمتى قبل أن تفارق.

أوقفتنى وقالت لى: أنظر.

رأيت جماجما بطول جبل الحكايات والعرض، ولما أطل من عينى سؤالى حيرتى أجابت:

هؤلاء ارتقوا جبل الحكايات، لم يستقر أحدهم أكثر من ساعة، وكانوا يحملون - كما تفعل - من آلات الحكى الكثير، لكنها ما نفعتهم فى شىء، فكر يا ولدى أنها البداية لا النهاية كما ظن البعض، بل كل هؤلاء ظنوا أنه، واحذر احذر أن تخفق مرة، فسوف يدق عنقك من وقتك وساعتك، تصبح كما هؤلاء فى عدم.

t.me/qurssan

ثم قالت: هاك بداية جبل الحكايات. اصعد، اصعد، حتى تقابله. لا تجعل شيئا يوقفك حتى تلقاه، وحين تراه لا تكلمه، ارم عليه كلمة السر. لو أنك حدثته قبل أن تقولها عدمك العافية وكنت هباء منثورا.

أخذت اصعد حتى تقطع نفسى، لكن من شدة شوقى واصلت حتى وصلت، ولما لمحته خفت، عفريت كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل، طوله يسد عين الشمس، عرضه مثل ذلك ويزيد، حين رآنى مد يده وهى كسارية المركب وأمسكنى من جزعى، رأيت نفسى معلقا فى الهواء فخفت أن يجلد بى الأرض قبل أن أنطق قال لى فارتج الجبل:

جئت لحتفك أيها الولد الكبير، فأنا أنتظر مجيئك منذ زمن، تمنى على ميته فلابد أن تموت وهذا لا مفر منه. انعقد لسانى وخشيت البلبلة. وكدت أقع فى عرضه والطول وأنطق لولا ستر ربى من فضيحتى. استجمعت نفسى ورميت عليه كلمة السر، فلما سمعها وضعنى على الأرض وارتجف، نظر إلى نظرة غضب حتى كاد يقع جلد وجهى، ثم أنه صاح صيحة عظيمة:

- قتلتنى يا ملعون.

ووقع ميتا من وقته وساعته.

واصلت صعودى وأنا أحمد المولى فى سرى وجهرى، اقتربت من النهاية التى هى بدايتى، خطوت أولى خطواتى، وقفت فوق قمة جبل الحكايات. تذكرت كلمات معلمتى: لحظة ترتقى وتصل إليه، فان معك من آلات الحكى الكثير، عليك باستعمالها جيدا، إذا أخفقت فعليه العوض فيك. أخرجت آلات الحكى بيد ترتجف وقلب يخفق، أخذت أرتبها على التوالى، قلت:

- الآن آن أوان الامتحان، فاما جاءنى كرم ربى، أو أهان.

حمدت الرب وأثنيت ثناء متصلا جميلا. ثم أننى ارتديت رداء أولى الحكايات، أمسكت آله الحكى بيد ثابتة.. وبدأت.

* * *

t.me/qurssan

حرب أطاليا

حين قامت الحرب بيننا، نحن أبناء حارة على أبو حمد، وبين شارع عشرة الكبير، بعياله الذين يبان الواحد منهم مثل «الفلق»، لم يكن يستطيع أحدنا التنبوء بالنتيجة النهائية، ومن الذى سوف يكسب فى النهاية.

لكنها بدأت، وما كان علينا إلا أن نحارب مهما كانت الخسائر، ومهما كانت النتيجة.

هكذا بدأت صباح يوم أحد شمسه طالعة وهواءه وفير. لما كنت أطير طائرتى «الفانلة» من فوق سطح بيتنا العالى، وكان الولد «جالون» يطير طائرته «النجمة» من شارع عشرة. ولم تكن رائحة الحرب التى سوف تقوم منتشرة فى الجو، فقد كان صافيا، وطائرتى تقف ساكنة فى الهواء. مقتربة من مواقع النجوم حتى أننى خفت أن تصطدم بالشمس وكنت أغمزها يمينا فتميل، وأغمزها شمالا فتميل، وأتمايل فرحا، وزيلها يتمايل مع الهواء وجناحيها يهفهفان. تركت كل الخيط فعلت حتى لامست الشمس. لحظتها فاجأنى خاطر نفذته على الفور. بعثت للشمس خطابا مررته من الخيط حتى وصل الميزان فتمايلت، وشممت رائحة الحرب، فقد تحت طائرة الولد «جالون» تطير فوق سمائى. ولمحتها تقترب من طائرتى، ورأيته يغمزها فتميل نحوى. لم يكن أمامى سوى أن ألملم خيطى بأقصى سرعة، وكان هذا مستحيلا لأسباب: منها ـ إن الخيط سوف يلتف على

t.me/qurssan

بعضه ويتشابك. ومنها: أن الخطاب الذى بعثته للشمس فما ردت - كان يعوق حركة اللم لالتفافه حول الميزان. ومنها أيضا: أن الخيط كان مشدودا جدا فخفت أن ينقطع فتقع الطائرة. على هذا الأساس تم اتخاذ قرار سريع وحاسم.

- قلت: سوف أقوم بعمل مناورات، قد تفلح وتبعد طائرة الولد جالون عن طائرتى.

- وقلت لو اصطاد جالون طائرتى فسوف أقتله هو وشارع عشرة كله. وبدأت على الفور فى المناورة.

أخذ يغمز فيقترب، وأخذت أغمز فابتعد. وكان العيال قد تنبهوا للصراع الدائر بين الطائرتين فوقفوا فوق الأسطح يتفرجون، ولمحت عيال شارع عشرة يقفون جنب جالون يهتفون ارم يا جالون، ارم عليه. وهتف عيال شارعنا: حاسب يا جمال سيب الخيط يا جمال، سيصطادك يا جمال. استمرت المناورة عشر دقائق كان الجميع خلالها يهتفون:

- صده ياجمال: صده يا جالون.

مهارتى الشديدة فى المناورة يعرفها العيال، لكنهم يعرفون أيضا أن خيطى ضعيف، وأن طائرتى صغيرة عملتها بعد طفح الدم لما بعت كتب المدرسة لحسن العلاف فى «المسامحة». وأن طائرة الولد جالون معمولة من «الأزرار»، وأن بها موس حلاقة أسفل الذيل.

وكان هذا ما يخيفنى فى الحقيقة. فلو أن ذيل طائرته جاء على خيطى فسوف ينحله ويقطعه. وهذا ما حدث بالفعل فى المرة الأخيرة.

لما خرجت عن مدار طائرته بأعجوبة هتف لها العيال وأخذوا يصفرون ويصفقون، وكنت قد تعبت حين أعاد المحاولة فاقتربت طائرته جدا.

t.me/qurssan

فدعوت عليه أن يموت من وقته وساعته. أصبحت فوق طائرتى تماما. ثم أخذ يغمزها يمينا وشمالا فيحتك الذيل بالخيط وينحله. اضطربت طائرتى، وتشقلبت فى الهواء، ثم أنه بحركة بارعة تعجب لها العيال صار تحت طائرتى. انقلبت على نفسى ثم عليه. اشتبكت الطائرتين ببعضهما، كان علينا أن نلم خيطينا بسرعة رهيبة. كنت أعلم أن نتيجة المعركة سوف تحدد الآن، فالأسرع هو الفائز. أخذ يشد وأنا أشد. انقطع خيطى فسحب الطائرتين ناحيته، وعيال شارع عشرة ينطون ويضحكون، وعيال شارعنا نزلوا إلى شارعنا وتجمعوا، فعلمت أن المعركة سوف تبدأ الآن.

عند نزولى الشارع كانوا واقفين، ولما لمحونى تجمعوا حولى.

قال سعيد فرجانى:

ـ لابد وأن نؤدبهم ولاد الكلب.

وقال شعبان عبد السميع:

ـ حرمونا أن نطير طيارة.

وقال محمد عبدالقادر:

ـ دائما يصطادون طائراتنا.

وقلت:

ـ يجب قتال جالون بأية طريقة.

عند هذا الحد، انفض مجلس الحرب وتفرقنا طلعنا بيوتنا، لبس كل منا حذاءه الكاوتش حتى نعرف نجرى، وأخذ كل منا نبلته المعمولة من جلد الخنازير التى رأيناها فى عزبة الزبالين. ولما تجمعنا مرة ثانية أخذنا فى جمع الزلط الصغير حتى ملأنا جيوبنا.

t.me/qurssan

حانت ساعة الصفر فانطلقنا وقد ساق كل واحد عجلته الكازوز أمامه، وصلنا خرابة شارعنا المؤدية لشارع عشرة. اختبأنا خلف ساتر الزبالة وانتظرنا. أطل محمد عبد القادر برأسه «القلقاسة» وقال:

ـ أراهم مجتمعين.

وأطل سعيد فرجانى وقال:

ـ جالون واقف يلم الخيط ويضحك.

وأطل شعبان وقال:

ـ يعطونا ظهورهم ولاد الكلب. وعندما أطلت قلت:

ـ اهجموا عليهم. أسرعنا بوضع النبل فى أصابعنا وقام كل واحد بتعمير نبلته وبدأنا الحرب. نشنت على قفا جالون وقذفت.

صرخ جالون وصرخ العيال وجروا. وقذفنا وجروا، لكنهم عادوا يتقدمهم جالون. وحين لمجونا، كان الطوب يتساقط علينا من كل الجهات، وجيوبنا خلت من الزلط فأمسكنا طوبا صغيرا، كانوا أسرع وكان أسرعهم جالون. اقتربوا وابتعدنا بظهورنا ولم يكن أمامنا سوى الجرى فجرينا وتركنا عجلات الكازوز الذى تعبنا فى لمه من عند «الكاكولا» ومن تحت كراسى المقاهى فى شارع همفرس الكبير. جاءت طوبة فى رأسى محمد عبد القادر وشعبان عبد السميع فصرخا وبكيا والدم يغمر وجهيهما فخففنا وجرينا أسرع. حين نظرت ورائى، كانوا قد اقتحموا ساتر الزبالة ودخلوا شارعنا، وفاجأنى جالون بطوبة أصابتنى فى قصبة رجلى بكيت لها على الفور.

عند وصولنا حدودنا، كانوا قد كفوا عن اللحاق بنا لما رأونا ندخل بيوتنا، ثم أننا خرجنا مرة ثانية بعد أن ابتعدوا ورأينا عجلاتنا الكازوز فى أيديهم فأصبنا بالحسرة.

t.me/qurssan

قلت: لابد من هزيمتهم.

وقلت: لابد من قتلك يا جالون الكلب، وقتل أم حظ أمك التى تبيع لجاز «الرتل» بخمس تعريفات وكابون. أيضا سوف نقتل أباك الذى ندخل عنده لنشاهد خيال الظل فيسحرنا ولا نعرف رؤوسنا من أرجلنا حتى يسرق ما معنا.

قال شعبان:

- لم نكن مستعدين للحرب.

وقال مصطفى:

- هزمونا على أرضنا.

قلت:

- إننا لم نهزم بعد، وأن علينا أن نشن حربا جديدة نقتل فيها شارع عشرة كله. وتدمير محلاته المعمولة بالزجاج الملون.

قال محمد عبد القادر:

- ونسرق فيديو الحاج عبده الجزار، بل نسرق كل محلاته.

ولكن كيف يتم ذلك؟

لم يتكلم أحد. كانت راس محمد تنز دما فكبسناها بالطين، وجلست أربط رجلى عند القصبة، وكانت تؤلمنى.

واحد فى شارع على أبو حمد لم يتوقع أن حربا شاملة على وشك الوقوع. وأن معركة أخذ الثأر يعد لها فى الخفاء فى سرية كاملة، وكانت توقعاتنا كالتالى:

محمد عبد القادر: قد تشتعل الحرب فى أية لحظة، فور انتهائنا من الاستعداد الجيد لها.

t.me/qurssan

مصطفى: أتوقع أن تنحاز بولاق الدكرور لشارع عشرة، خاصة إذا هاجمنا السوبر ماركت الذى على أول الشارع، كذلك المقاهى التى يجلس عليها العيال، وعلى هذا الأساس يجب وضع ـ بولاق الدكرور فى حسابات الحرب.

شعبان: علينا تقسيم أنفسنا لعصابات، عصابة تهجم عند أول الشارع، وأخرى من المنتصف عند الخرابة، والثالثة من آخر الشارع، وبذلك نسد عليهم جميع منافذ الهروب.

قلت: علينا أن نبحث فى أمر السلاح. يجب شراء أكبر كمية من البمب والصواريخ الصغيرة والكبيرة، كذلك حرب أطاليا، حتى نشيب ولاد الكلب الجبناء، لما نشوف من الأقوى.

كانت النقود هى ما نحتاجه لشراء أسلحة الحرب، ولم يكن مع أحدنا سوى مصروفه القرشين، اتفقنا أن نشترى «بلى» ونلاعب عيال الحارات المجاورة. بدأنا نلعب «الترنجيله». و«المثلث». ولأن مهارتنا عالية جدا فقد ربحنا «بلى» كثير بعناه واشترينا الأسلحة: خمسة بواكى «بمب»، ٢ باكو شرائط حرب أطاليا، عشرين صاروخا سريعة الاشتعال، علب ورنيش فارغة، وعقدنا مجلس الحرب، وتم تحديد ساعة الهجوم فى السابعة مساء الخميس لحظة يلعبون «حاورينى يا طيطا» وعند بدء مسلسل «سنبل» حتى نضمن خلو الشوارع، ونضمن أيضا عدم تقديم المساعدة من بولاق.

مرت الدقائق بطيئة قبل بدء العد التنازلى، كانت قلوبنا ترجف من لحظة اللقاء، رغم ثقتنا من هزيمة الأعداء هزيمة لا يرفعون فى وجوهنا عينا بعدها أبدا.

حين وصلنا للرقم صفر، انطلقنا، جيوبنا مليئة بعلب الورنيش المعمرة بالبمب وحرب أطاليا، أيدينا تحمل الصواريخ الكبيرة والصغيرة، فى

t.me/qurssan

الجيب العلوى لكل منا مشط كبريت ماركة «الهلب»، ولم ننس أن نردد ما ردده «على». بطل «رد قلبى» حين قال له «سليمان» انت من الضباط الأحرار يا على. لأن على يحب «انجى» «مريم فخر الدين». انقسمنا ثلاث فرق، انطلقت كل فرقة لتنفيذ مهمتها. معى مصطفى وسعيد فرجانى وشعبان وأبو العلا، كل واحد مثل «الشحط». عند وصولنا الخرابة انبطحنا خلف ساتر الزبالة. رأيناهم يلعبون «حاورينى يا طيطا» انتظرنا حتى وصلت بقية الفرق أماكنها. قلت الآن نبدأ تنفيذ العملية. ثم أننى صرخت: خذوا يا جبناء. طوحت وطوح العيال علب الورنيش ثم اختبأنا خلف ساتر الزبالة. سمعنا صوت الانفجار عاليا، فى اللحظة التالية سمعنا صوت انفجارين وصوت صراخ أخذنا فى إشعال فتيل الصواريخ وطوحنا بها أضاء الضوء الناتج عن الانفجارات الشارع فرأيناهم يجرون فى فزع شديد، خرجنا من خلف الساتر، أشعلنا شرائط الحرب أطاليا وجرينا خلف الأعداء رميناها عليهم وجرينا، وكانوا يجرون. سمعنا صراخا عاليا وأصوات بكاء وساد الظلام. فرغ ما معنا من أسلحة فبدأنا نتراجع نحو الخرابة، رأيته يجرى تجاهى فعرفته، جالون زعيم العصابة. جريت وجرى ورائى. أخذنى مقص رجل فوقعت على وجهى ووقع فوقى. ضربنى أسفل رأسى بسيف يده. استدرت له فضربنى على عينى بقبضة يده. كانت ضربته شديدة فصرخت، ظل يلكمنى وكنت أعيط من شدة الألم فإن يده مثل «المرزبة». حين قام من فوقى كانت رأسى تنزف، وعينى اليمنى «مزغللة»، أما عينى الشمال فما عدت أرى بها فأغلقتها، ثم أنه ضربنى «بالشلوت» وأنا أهم بالجرى وصرخ ورائى: عاملين شطار وشجعان يا أولاد الكلب. التفوا حول محمد عبد القادر ومصطفى وشعبان وبقية الفرقة وعدموهم العافية وكانوا يصرخون من شدة الضرب، لكنهم وقفوا وجروا ناحية شارعنا، جرينا بأقصى سرعة وجروا وراءنا، فاجأتنى طوبة فى ظهرى فانقطع نفسى لحظتها، ثم أننى انفجرت باكيا. بكى محمد عبد القادر

t.me/qurssan

وهو يعرج، وكان مصطفى يمسك رأسه، أما شعبان فكان يصرخ ويقول كسروا ذراعى. وسمعنا صوتهم وراءنا:

ـ اوعوا نشوف واحد منكم هنا يا أولاد الكلب ولما وصلنا حدودنا، جلسنا على أرض الشارع ـ وبكينا.

فى الصباح نزلنا الشارع، وفى أجسامنا وعلى وجوهنا آثار المعركة، وعقدنا مجلس الحرب، بحثنا فى كيفية شن هجوم سريع وحاسم يكون المعركة الفاصلة نرد فيها على الفضيحة التى حدثت بالأمس، وكالعادة أخذنا فى اعتبارنا جميع التوقعات المحتملة بالنسبة للحرب. ثم أقسمنا نشيد النصر، وبدأنا نعد أسلحة جديدة للمعركة.

* * *

t.me/qurssan

على جمبرى

هل أتاك حديث المصيبة التى وقعت علينا، يوم ذهبنا كى نرى «على جمبرى» وننادى عليه بالصوت العالى: على جمبرى ، دور دور سبع مرات. وكاد يمسكنا البسطويسى حارس جنينة الخواجا همفرس ويعدمنا العافية، فدعونا عليه فمات من وقته وساعته.

وإذ أسمعك هذا الحديث فاستمع له وأنصت لعلك تبلغ ما لم نبلغه نحن الثمانية، أولاد الحارة الواحدة، وقد جرى على قلوبنا ما لم يجر على قلب بشر من قبل.

وهذا بداية الحديث فافهم:

لحظة اتخذنا قرارنا بزيارة «على جمبرى»، وكنا قد سمعنا به من أولاد الحارات المجاورة، وقرانا عنه فى الكتب الصفراء التى نشتريها من عم زكى على الكوبرى الخشب، وعم زكى هذا له قصة عجيبة، وأمور مطرية غريبة نحب أن نسوقها عليك يامستمع ـ فاستمع:

لما نذهب إليه، يكون جالسا فوق الكوبرى الخشب، فارشًا حوله أبو زيد الهلالى وحمزة العرب وأرسين لوبين، فنرمى عليه السلام فيرد بأحسن منه، ولما كان يعرف أن جيوبنا خاوية، وان ساعة مجيئنا إليه تكون ساعة نحس فينصرف عنا بالنظر إلى ترعة المجنونة. نلتف حوله ونحن نبص إلى الكتب ونقلب فيها إلى أن يبدأ هو:

t.me/qurssan

ـ لماذا تقفون هكذا، فرقعوا من وشى.

فنرد عليه:

ـ جئنا لنراك يا عم زكى.

فتضحك أسنانه الصفراء ويقول:

ـ اجلسوا يا شياطين الانس.

فنجلس، ونظل نتقرب له فيقول ونرد وراءه:

ـ آن.. دى.. تـرواه.. كـاتـر.. حتـى إذا مـا انـتهينـا من عـد عشـرة بالتمام والكمال، قال مـاذا تريـدون، فنأخـذ منـه الكتب على أن نـردها فى أقرب وقت، ثم أنه لا يـتركنـا قبـل أن يـحكـى كيف دوخ الإنجــليـز، وكيف أنه كان مديرا لشركة كبيرة، لكنه طرد ظلمـا. عنـدهـا. نأخـذ الـكتب ونجرى إلى بيـوتنـا نـقـرأهـا ونـتبـادل أرسـين لوبين بـأبى زيد الهلالى.

نرجع إلى سياق الحديث ـ فانتبه:

قررنا زيارة «على جمبرى» نحن الثمانية، وترتيبنا على التوالى: أنا وأختى حنان، محمد عبدالقادر وأخته هناء، درش وأخته فاطمة، نعيمة وأختها توحة.

اتخذنا التدابير اللازمة لمثل هذا الموضوع الخطير الذى أصبحنا نحلم به.

قلت :

ـ سوف أمر عليكم يا عيال واحدا واحدا تمام الساعة الرابعة عصرا.

وقلت:

t.me/qurssan

ـ سوف أنادى على الواحد منكم باسم غير الاسم، حتى لا يعلم أحد إلى أين نحن ذاهبون.

قال محمد عبدالقادر الذى سوف يموت بعد حين لما ذهب إلى مدرسة التجارة فتدوسه العربة الكبيرة ويعدم شبابه ـ وهذا حديث شرحه يطول وليس هذا مقامه:

ـ سمعت أنه عفريت كبير، وأن الخواجا همفرس رصده بخاتم الملك سليمان الحكيم حتى إذا ما اقترب أحد من الجنينة أحرقه فى الحال.

قلت:

ـ سمعت هذا الحديث من قبل، وقد عملت اللازم، ثم أننى هززت رأسى وضحكت وقلت:

ـ أنتم لازلتم عيالا يا عيال، ثم قلت:

ـ لا تخافوا فسوف أحميكم من هذا العفريت، أخرجت من جيب البيجامة ورقة مثلثات فردتها وجلست، جلس العيال حولى على الأرض.

قلت:

ـ ذهبت أمس إلى عمى زكى بائع الكتب، حكيت له على الموضوع فوعدنى خيرا، وما كان منه إلا أن أخرج قلمه الأحمر، وورقته الصفراء، وعمل هذا الحجاب، فإن حامله لا يهاب إنسا ولا جان.

هذا حجاب جليل القدر عظيم الشأن وهو أمان من كل بلية، ومن على جمبرى الذى هو من شياطين الجان. وفيه قضاء للحاجات والمحتاجات والمحبة والقبول، وفيه شفاء من الأمراض المستعصية على شياطين الأطباء والحكماء من كل صنف ولون، بحق قدرة النون والقلم وما يسطرون أقضى حاجة حامله جمال بن عبد الجواد الذى يهمنى أمره يا على يا جمبرى

وهذا طلسمة فتعجبت العيال، وقالوا:

t.me/qurssan

- وهل يصرف هذا الكلام العفريت الذى هو على جمبرى.

ضحكت وقلت:

- نعم يصرفه، بل أنه يحرقه إذا قلت له أسرع بالرحيل بحق المساء والصباح، أيها العجل النطاح.

اطمأنوا العيال، وقالوا سوف نفعل ما لم تفعله عيال بولاق الدكرور كلها، حتى الولد الشحط عنتر ابن أبو حسنى السمسار.

قبل أن ننصرف قلت:

- لا تنسوا موعدنا اليوم عصرا عند طابق الديابة، وكلمة السر «على يا ويكا» حتى لا يشعر بنا على جمبرى إذا ما نطقنا اسمه كاملا.

قلت لأختى:

- كونى مستعدة للذهاب لحظة أنادى عليك «على يا ويكا» ثم دخلت تحت السرير فسرقت رغيفين فتحتهما ودهنتهما «بالمرته» وخبأتهما فى جيب البيجامة، أخذت الحجاب وضعته فى جيبى العلوى بالقرب من صدرى كما قال عم زكى. لبست «الكاوتش» فى قدمى وخرجت وقفت على السلم، زعقت:

- على يا ويكا. جاءت أختى تجرى. أخذت أزعق فى بيوت شارعنا «على يا ويكا» فتطلع العيال من كل حوش عميق. وصلت وأختى عند طابق الديابة، وهذا الطابق مسكون بالجن والعفاريت التى طلعت بعد أن قتل عزيز بائع الكتاكيت هو وأخوته الثلاثة وأبوه ورآهم الناس فى الطابق مثل البالونات المنتفخة. لم يكن أحد من العيال قد جاء بعد فلعبت أنا وأختى نطة الإنجليز حتى جاء مصطفى وأخته فاطمة يجريان ناحيتنا، ثم جاء بعدهما محمد عبد القادر وأخته هناء. لم يبق سوى نعيمة وأختها توحة.

قلت:

t.me/qurssan

ـ لقد تأخرنا ولن ننتظر نعيمة وتوحة.

كانت الشمس حمراء فخفت أن تظلم الدنيا قبل أن نرى على جمبرى.

عند تحركنا ناحية جنينة الخواجا همفرس، لمحتهما تجريان ناحيتنا مثل أبو فصاد الذى يصطاده محمد عبدالقادر من شارع عشرة.

وصلنا عند باب الجنينة وكان مقفلا فوقفنا أمامه.

وقلت:

ماذا نفعل الآن!!

قال محمد عبدالقادر ودرش:

ـ ننط من فوق الباب الحديد.

قلت: من ينط أولا:

قال محمد: انت.

قلت: ولماذا لا تنط أنت الأول يا ناصح.

لم يوافق واحد على أن ينط هو الأول ففردنا أيدينا وهمسنا فى نفس واحد:

ـ كلوا باميه.

قلبنا أيدينا جميعا على الظهر فاعدنا المحاولة:

ـ القطة العامية. قلبت يدى وقلب مصطفى يده ولم يتحرك محمد عبدالقادر.

قلت: هذه آخر مرة.

ـ سرقت قميصى.

وقع الدور على مصطفى فتقدم من الباب الحديدى، ووقفت أخته فاطمة ونادت عليه ارجع يا مصطفى، لكنه تقدم وكان خائفا وطلع أول

t.me/qurssan

حديدتين وثنى رجليه وشب على يديه، ثم أنه رفع رجله اليمين فخطى للناحية الأخرى. وهو ينزل كانت قلوبنا تدق جاء دور محمد فاستعد. كان مصطفى قد ابتعد عن الباب ومشى فى الجنينة. سمعنا صوت نباح ورأينا مصطفى يجرى ناحية الباب وهو يصرخ ويعيط ووراءه يجرى كلبان طوال عراض مثل الكلب هول الذى رأيناه فى تليفزيون خالتى أم نبيل. بكت فاطمة وصرخت:

ـ مصطفى. أخرجت من جيب البيجامة رغيف «المرتة» قطعت منه ورميت رميتين. جرى الكلبان على اللقمتين وتركا مصطفى.

صعد محمد عبد القادر وقفز داخل الجنينة. قطعت ورميت فجرى الكلبان. حين صعدت محاسن وأختها توحة كنت انتهيت من الرغيف الأول وبدأت فى إخراج الثانى حين نبحا، رميت نفسى داخل الجنينة. أتى الكلبان ناحيتى، زاما وهزا زيليهما، كنت أنتهى من الرغيف الثانى لما جريا ناحية رجلى. بكيت وصرخت وتراجعت:

ـ الحقونى. لكنهما سارا بجانبى يتمسحان بى فضحكت. ثم أننى مسحت على رأسيهما بكفى فنظرا إلى وضحكا. أخذنا نسير فى الجنينة التى قال عنها الولد رضا «البربرى» ابن «البرابرة» أنه ما دخلها أحد قط وفلح. ثم قال:

ـ هل تعرفون حكاية خالى سيد العبيط الذى يسكن عندنا، كان أنصح من أبيكم وقد دخلها ذات يوم فجرى له ما جرى وانعقد لسانه بقدرة «على جمبرى».

رأينا الفاكهة من كل صنف ولون.

قلت:

ـ لو أن الواحد يعثر على تفاحة بطول البيت فأخذها معى وأضعها على السطح وأجلس فوقها أقطع وآكل ولا تنتهى. أمى تشترى لنا تفاحا صغيرا

t.me/qurssan

جدا مثل «البلى» كذا العنب الفرط، من أم صابر الجالسة على ناحية الحارة تبيع الحرنكش ورءوس الخس.

أخذ العيال يرمون الشجرة بالحجارة وينتقون ما يقع على الأرض يعبئونه فى جيوبهم.

قلت:

- لن آخذ شيئا حتى نرجع فآخذ ما يكفينى وأمى وأخوتى - كذا أبى - بعدت عن العيال ولمحت شجرة كبيرة جدا فرعها فى السماء، لمحت تفاحة معلقة من رأسها، تفاحة واحدة، ياه.. يادين النبى. كانت التفاحة كبيرة جدا، أكبر من بيتنا.

قلت:

- عند رجوعنا أحملها أنا والعيال، لن أستطيع حملها وحدى، قد يساعدنى الحجاب فى حملها. اقتربت من العيال وكنا نبحث عن على جمبرى. لم نجده.

قلت:

- أنا متأكد من وجوده هنا. والشمس غابت عنا ولم نحس بها تغرب فرأينا الدنيا «كحل». خاف درش وقال:

- يا عم الدنيا كحل وأنا خائف. انكمشت أخته فاطمة وقالت أنا خائفة. كذا قال العيال، ولم أكن خائفا لأن معى حجابى فهو يحمينى من زلزلة على جمبرى. حين تحسست جيبى لم أجده فارتعبت واصفر وشى.

نظر الى العيال. قال محمد عبدالقادر:

- مالك !!

قلت:

t.me/qurssan

- لا أجد الحجاب فى جيبى.

قال مصطفى:

- يمكن وقع منك وانت بتنط.

قلت:

- أنا خائف. لو أحس «على جمبرى» بنا الآن فسوف يأكلنا.

وقد أصبح أنا الذى تحديته مثل سيد العبيط أو حمبوسة.

أمسك كل منا بيد الآخر ونحن نرتجف. سمعنا نباح كلاب وكانت تتجه ناحيتنا وصوت يقول:

- من هناك.

صرخت توحة: وصرخت محاسن وبكى مصطفى - كدت أبكى.

سمعنا صوت أقدام كثيرة تجرى وأصوات:

- امسك حرامى، حلق يا جدع، امسك أولاد الهرمة.

جرينا ناحية الباب بأقصى سرعة، وقعت ولحقت نفسى فقمت مسرعا، أمسكنا بالباب وأخذنا ننط فنرتمى فى الناحية الأخرى خارج الجنينة الملعونة. نط جميع العيال، وكنت أنط حين أمسكت قدمى يد فصرخت، صرخ العيال وكانوا يقفون خارج الجنينة، رفعت رجلى، لم أستطع وكانت اليد تجذبنى لأسفل، لكنى رفعتها مرة ثانية، انخلع الكاوتش من قدمى فوقعت خارج الجنينة، سمعت طقة رجلى فبكيت. حين قمت لم أجد أحدا فى الشارع، ثم أننى مشيت أعرج ناحية بيتنا، وكنت أجرى لما تذكرت التفاحة التى بطول بيتنا - بكيت!

* * *

t.me/qurssan

عـرق الكلبة

يا ولد يا عرق الكلبة، يا ولد يا عرق.

كان أبى ينادى عليه، ولكن الولد عرق الكلبة فص ملح وذاب، أخذ ينط مثل «الفرقع لوز» وهو يجرى فى عز صهد الشمس، وكنا نضحك وقلنا:

ـ أبانا يا أبانا، خبرنا يا أبانا هل تعرق الكلبة؟

وكان أبونا يشرب الدخان فيطلع من منخاريه ويدخل شاربه الكبير جدا ثم يخرج منه.

قال أبونا:

ـ عيالى، فى زماننا تعرق الكلبة ويبيض الحمار.

وهل يبيض الحمار يا أبانا.

نعم يا عيال أبوكم فزماننا زمن العجائب.

قلت وقال اخى عوضين وأختى عين:

كيف كان ذلك يا أبانا، كيف تعرق الكلبة ويبيض الحمار.

تنحنح أبى ونتر تفلته فى التراب، سعل، شفط نفسا عميقا من الدخان، دفنه فى صدره ثم أخرجه فانتشر فى الجو سحابة كبيرة تشكلت عفاريت وحميرا وكلابا.

t.me/qurssan

قلنا:

- هيا يا أبانا خبرنا كيف كان ذلك.

صلوا على من يشفع فيكم.

ألف صلاة عليك يا نبى.

فى زماننا زمن الحكايات، كان الولد «العبيط» محمدين ابن عمدة، وأولاد العمد - عمد - يختلفون عن أولادنا، قيل أن الولد محمدين مسه الجن حين ذهب يستحم فى الترعة وكانت مسكونة - يبعد عنا وعنكم.

وقال أبوه:

- أنا ابنى أعقل منى ومن العاقلين، وأنا أتحدى مخلوق يزعم أن ولدى عبيط، ثم أنه كيف يكون عبيطا وهو ابن العمدة العاقل. وفى زماننا تقول للناس: يا ناس، إن الرجس فى بلدكم، فيقولون أليس بعيدا عن حارتنا - مالنا نحن.

فتقول إنه فى حارتكم .

فيردون طالما بعيد عن دارنا فليس لنا دخل.

فتقول: بل هو فى داركم.

فيردون ما دام بعيدا عنا، فلا شىء هناك.

وقال الناس: مالنا نحن وابن العمدة العبيط.

تمر الأيام، والأيام دولاب دوار، ويخرط خراط الرجال الولد العبيط محمدين ابن العمدة.

فيقول لوالده وكان فى مجلس أنس وصحاب:

- والدى يا والدى يا عمدة، أبغى إكمال نصف دينى. وأبغى زين النساء التى تطيل العمر وتجعل الدنيا فرح فى فرح.

t.me/qurssan

قال والد محمدين لمحمدين:

- أيها الناس، أنظروا، هل يخرج هذا الكلام إلا عن كل ذى عقل وإدراك، والله لأزوجنك زين النساء، وأعمل لك الفرح الذى يكون أربعين ليلة وليلة.

قال محمدين بعد أن «قمص» بكتفيه:

- أنا أبغى الزواج من البنت شربات يا والدى. زين ما اخترت يابنى.

بعث العمدة المراسيل فى طلب يد شربات لولده محمدين جاء أهل العروس، جلسوا فى مجلس العمد، تكلموا:

- ليس لنا مطلوب سوى معرفة ما إذا كان محمدين عاقلا أم مجنونا، فهى ابنتنا الوحيدة.

قال العمدة:

- وكيف يكون ذلك؟

نسأله سؤالا واحدا فقط، إن أجاب عليه جاز القبول وفاز بابنتنا وفزنا به وبك. جاءوا ببيضة كبيرة، وكان المجلس مكتملا.

قالوا:

- انظر إلى هذه البيضة جيدا، وقل لنا من الذى باضها يا محمدين.

أخذ محمدين البيضة فى يده، قربها من عينيه ونظر إليها جيدا، وتأمل فيها كثيرا، تطلع إلى الناس، عصر فكره، وضع يده على رأسه وهرش هرشتين، ثم جبهته. فرقع بيده ثم تكلم:

- هذه سهلة، أنا أقول لكم من الذى باض هذه البيضة وأنتم تزوجونى شربات، أنا أحبها يا عمدة.

قالوا جميعا فى نفس واحد:

t.me/qurssan

- قل وهى لك.

قال محمدين :

- هذه البيضة الذى باضها حمار، هى بيضة حمار.

نظر الجميع إلى العمدة الذى صفق بيديه وتطلع إلى ولده فى دهشة وقال:

- والله لقد عرفها وحده، لم أقل له عليها.

قلنا:

- أبانا يا أبانا.. حدثنا عن عرق الكلبة.

صلوا على الحبيب.

ألفين صلاة وأذكى سلام.

تزوج محمدين من شربات، أنجبا ولدا أسماه أبوه «زكى»، ولكن الولد كان يعرق كثيرا، وكان عرقه غزيرا ورائحته كريهة، أطلقنا عليه «عرق الكلبة».

نظرنا إلى أبينا حتى يكمل حكايته عن عرق الكلبة وكيف يعرق كثيرا، فى لحظة وجدنا عرق الكلبة أمامنا ينط مثل الضفدعة، وتكلم فسمعنا نقيقه:

- أبى العمدة محمدين يريد رؤيتك.

زعق أبى فينا فقمنا فزعين، وكان يسب ويلعن ويقول:

عشنا وشفنا عمد بلدنا، زمن العجائب هذا، أى والله، قل له يا ولد يا عرق أننى آت وراءك.

نقنق عرق الكلبة:

t.me/qurssan

ـ لا تتأخر حتى لا يغضب أبى العمدة فيهد البلد فوق رؤوسكم.

قلت للعيال أخوتى:

ـ تعالوا نلعب مع عرق الكلبة.

وقلت:

ـ ما رأيك يا عرق، لو جئنا لك ببيضة، هل تعرف من الذى باضها.

ضحك عرق الكلبة ونط فى الهواء وقال:

ـ هذه لعبة سهلة.

جئنا ببيضة، كانت صغيرة، قلنا:

ـ هل تعرف من الذى باض هذه؟

أخذ البيضة فى كفه الكبيرة جدا، قربها من عينيه اللتين تشبهان عين ضفدعة. نظر إلينا وضحك.

هذه لعبة سهلة، أنا أقول لكم من الذى باض هذه،

وضع يده على رأسه، انزلها إلى جبهته، فرقع بأصابعه ففرقعت البيضة وطرطشت على وجهه:

هذه بيضة خروف صغير.

* * *

t.me/qurssan

بحثا عن عمى

عمى الذى لم نكن نحبه، لكن أبى قال أحبوا عمكم - فأحببناه سافرنا أنا وصديقى عثمان لمقابلته.

وخالى الذى كنا نحبه ونفرح كثيرا حين يأتى إلينا من كوم الضبع لبولاق الدكرور - أول من قابلناه.

حين نزلنا من العربة التى ركبناها من «الخازندار»، وتلفت صديقى عثمان حواليه، ولما رأى عبدالعزيز أحمد قاعدا على الزراعية يعمل أسبته من الغاب، ولما رأى محمود بن سليمان الترزى واقفا يتبول. قال:

- بلدكم جميلة جدا. هززت رأسى وأدخلت قميصى داخل بنطلونى. كذلك فعل صديقى. ثم أننى أخرجت من جيبى الخلفى مشط كراون وأخذت أمشط شعرى. ناولته إياه ففعل مثلى وسرنا.

ولأن الممر الموصل إلى بيت خالى ضيق ومنحدر، فقد أخذنا نندفع دفعا إلى الأمام حتى رآنا عزيز ابن خالى فجرى ولم يسلم علينا. نظرنا وكنا لم نصل بعد إلى بيت خالى فجاءوا جميعا. خالى، امرأة خالى، أولاد خالى السبعة. دفعنى خالى إلى حضنه فاختبأت فيه. ضغط على ظهرى بيديه مرتين، ثم أنه قبلنى أربع قبلات وتركنى. هجمت على امرأة خالى وأخذت

t.me/qurssan

تسأسىء بشفتيها على خدى ثم تركتنى. لما انتهوا من مراسم الاستقبال قدمت صديقى عثمان لخالى فسلم عليه دون أن يقبله. سحبنا الى بيته، جلس خالى وجلست امرأة خالى وأولادها السبعة، جلست وجلس صديقى عثمان. شخط خالى:

ـ الغدا ياولاد. قامت ثلاث من بنات خالى.

قلنا لسنا جوعى. لكنهم جاءوا بالطعام فأكلنا.

أهلا وسهلا، كيف أخوتك، وابوك.

قلت:

ـ بخير والحمد لله، وحشتنا جدا يا خالى.

طبطب على ظهرى واعطانى كوب شاى صغيرا. شربت، ارتعشت.

ضحك أولاد خالى وضحك خالى.

قال :

ـ سوف أعمل لكما شايا مصريا.

أخذ عزيز ابن خالى كوب الشاى من يدى، دفعه مرة واحدة إلى جوفه، نظر إلى وضحك.

ـ شاى البلد لا يقدر عليه الأفندية.

أخذ صديقى عثمان كوب الشاى، دفعه إلى جوفه. ارتعش ارتعاشة شديدة ودمعت عيناه فضحكنا.

قلت:

ـ بعشى أبى لآخذ إيجار الأرض من عمى.

وقلت:

t.me/qurssan

- لو أنه يشتريها بثمن معقول.

قال خالى:

- لن يستطيع غيره شرائها طالما هو راكب عليها.

فقلت:

- سوف أعرض عليه الموضوع لعل وعسى.

قبل أن نذهب إلى عمى، ذهبنا إلى عمتى، وهناك على حافة النهر، وأمام بيت عمى، كان «بلال» جالسا يمسك بيده «سنارة» واضعا بجانبه كوز صفيح ملآنا بالطعم. حين رآنا غرس «السنارة» بين صخرتين، قام فاتحا ذراعيه، دفعنى إلى صدره وضغط على ظهرى ضغطتين ثم تركنى.

عثمان صديقى، بلال ابن عمتى. أهلا وسهلا. حمد لله على السلامة، نورتم كوم الضبع نورتم.

قال لى وهو يأخذ «السنارة» بيد، ويده الأخرى ممسكه بكوز الطعم:

- هيا ندخل.

رد عثمان:

- بلدكم جميلة، والبحر منظره يجنن.

قلت:

- دعنا نجلس على الشط. جلسنا.

قلت:

- أنت ما اصطدت ولا سمكة. نتش السنارة بسرعة فطلعت فارغة.

قال:

- كانت تغمز، بنت الأبالسة أكلت الطعم، تعرف، من صباح ربنا وأنا على هذه الحال، العملية محتاجة صبر.

t.me/qurssan

قلت:

ـ كيف حالك، وكيف حال عمتى، وعم محروس، وست الدار.

أخرج من الكوز دودة صغيرة وضعها على راحة يده، ضغط عليها بيديه فسكنت حركة الدودة. الجميع بخير والحمد لله، كيف حالك انت، وحال امرأة خالى، والنبى السلام أمانة لما ترجع للجميع. قطع الدودة نصفين، رشق نصفها فى السنارة، طوح بها فى الهواء، استقرت فى الماء. نحن جميعا بخير، وأريد منك أن تذهب معنا إلى عمى عبد البديع، تصور أنا لا أعرف بيته حتى الآن. ضحك بلال:

ـ ولا أنا، تعرف، من خمس سنوات تقريبا لم أذهب هناك، قطيعة تقطع قساوة القلوب، إلود حلو يا جدع.

دخلت سلمت على عمى وعمتى وبنت عمتى، خرجت وبدأنا نمشى إلى حيث يسكن عمى. فى الطريق قلت:

ـ كيف حال البنات معك. ضحك، مال على الأرض، التقط طوبة قذفها فى البحر:

ـ أولاد الكلب مغلبنى، العيال يا أخى البنت عندها عشر سنين وطالع لها فردتين بزاز ولا أجدعها امرأة، وكلام إيه، ونظرات ايه، وغنج ايه، ولا النسوان.

قال عثمان :

ـ فى رأيى إن نسوان بلدكم أجمل من نسوان البنادر، هناك كل شىء صناعى، أما هنا. فالمسألة تختلف، والبلدى يوكل.

شوح بلال بيديه فى الهواء

ـ قطيعة تحش رقاب الكل، الواحد منا عامل مثل «الفلق» ولا هو عارف يتزوج ولا يحزنون.

t.me/qurssan

قلت:

ـ مشاكلكم هينة يا بلال، ماذا نفعل نحن، لو وجدنا المهر لا نجد الشقة، ولو وجدنا الاثنين لا نجد ما نجهز به، وبنات البنادر يا حلو، دلعو يا دلعو.

قال بلال:

ـ آه يا عينى على بنات البنادر، أبيع عشر فدادين طين لو كانوا حيلتى وأتزوج بنت بندر، أرى الواحدة منهن فى التليفزيون تطلع تقول لك «أنا شايفة نفسى حلوة النهاردة، لأنى باستعمل صابون كامى».

فأجرى إلى الزريبة وأنا أحمل صورتها فى عينى، وصوتها يرن فى أذنى وأحلب نفسى كما الجاموسة، بعدها أضرب نفسى ستين صرمه.

أخذنا نضحك وكنا اقتربنا من غيط عمى، بيت عمى جنب غيطه الذى هو غيطنا.

قلت:

ـ هل يعرفنى عمى شقيق أبى إذا رآنى.

ضحك بلال

ـ كان عرفنى أنا ابن أخته وأسكن جنبه فى بلد واحد، إنه حين يرانى يدير وجهه للناحية الأخرى وكأنه لا يعرفنى.

حين وصلنا، كان عمى خارجا من البيت، اتجهنا ناحيته فوقف يتفرج علينا. ولما أصبحنا بالقرب منه ناديته:

ـ أهلا عمى.

فـرد.

ـ أهلا يابنى. أخذ ينظر إلينا مبحلقا.

ـ أكيد انت بلال ابن أختى.

t.me/qurssan

مد بلال يده وسلم عليه.

نظر إلى:

ـ ألا تعرفه يا خال.

سحب عمى يده من يد بلال ورماها جنبه:

ـ الشكل ليس غريبا عنى.

فضحك بلال:

ـ جمال، ابن خالى محمد، أخوك.

فوجئ عمى، هجم على، اعتصرنى فى حضنه:

ـ أهلا وسهلا يابنى، لا تؤاخذنى يابنى، لم أرك منذ كنت صغيرا، ما شاء الله، طولت وأصبحت رجلا. أهلا وسهلا. مد يده إلى عثمان فقمت بالتعارف.

قلت:

ـ جئنا لرؤيتك.

نظر عمى إلى الأرض، ثم نظر إلى أعواد الذرة الطالعة المحملة بالكيزان:

ـ لا تؤاخذنى يابنى، أنا تأخرت عليكم فى الإيجارة هذه السنة، وكما ترى، الزرعة ما بيعت حتى الآن، كيف أبوك، واخواتك.

بخير يا عمى، كيفك انت، وكيف أولاد عمى.

لا تؤاخذنى يابنى، جعلتكم تقفون على باب الدار، لأنه لا أحد بالداخل. وأنا أدخل الذرة دقيقتين أحضر ما نسيته وأرجع لكم حالا، أهلا وسهلا يابنى نورتم كوم الضبع، لن أغيب عنكم، دقيقتان فقط، وأنتم لستم غرباء، ثم أن هذا مالكم.

t.me/qurssan

تركنا عمى ودخل الغيط، اختفى بين أعواد الذرة، كنا نقف خارج البيت، وراءنا الترعة، وكانت الحلوفة تدور، حين تقف يزعق بلال:

ـ عا ... تستأنف الجاموسة دورتها.

قال بلال:

ـ تراهـن.

قلت:

ـ أراهنك على ماذا.

ـ قال:

ـ تراهن أنه لن يعود مرة ثانية. هززت رأسى وقلت سوف يعود حالا، لقد قال دقائق وأعود.

مر من الوقت ساعة.

قلت فى نهايتها:

ـ من المحتمل أن شيئا قد عطله، أو أنه نسينا . ولمحنا امرأة عمى تقف خلف الباب، رأينا عينيها وكانت تنظر إلينا.

قال عثمان:

ـ أنا تعبت من الوقفة.

قلت:

ـ نصبر قليلا يا جماعة.

مرت ساعة أخرى ودخل بلال الزرع يبحث عن عمى.

رجع وهو يضحك:

ـ أنا خائف يكون أكله ذئب، لم أعثر له على أثر، فص ملح وذاب.

t.me/qurssan

ثم قال:

ـ هيا بنا، لا فائدة من الانتظار، عملها فينا وهرب.

قلت:

ـ نصبر قليلا، ولكنى قد تعبت أنا أيضا فقلت:

ـ هيا بنا، لا فائدة.

كنا نمر على كوبرى ترعة أم خليفة حين نظرت خلفى فرأيته، كان عمى خارجا من الزرع، ولمحناه يتسلل فى حذر ـ ودخل البيت.

* * *

t.me/qurssan

ما زالوا فى الجزيرة يقصون نبأ الصوت الآتى من أعماق البحر

ساعتها، كان البحر هادئا، وكانت الجزيرة الصغيرة الواقعة بين ضفتى البحر والشبيهة بحدوة الحصان تنام.

سمع الجميع نفس الصوت فى آن واحد، وكان الليل قد بلغ منه الثلث أو الثلثين، لا أحد يذكر بالضبط، فقد كانت الأمواج ترتطم بالصخور، وأصوات الضفادع والصراصير تصل بانتظام تام، لكنهم سمعوا الصوت هذه المرة يطغى على صوت البحر، ويطغى على صوت الضفادع والصراصير، كان يهم بخلع قميصه وسرواله. لكنه توقف لحظة سماعه فقد سمعه أحمد أبو سماعين حين كان يغازل زوجته العاقر التى ما ولدت له ولدا ولا بنتا حتى الآن. سمعه حين كان يملس على ساقها اليسرى على الفراش الواحد فى الحجرة الضيقة المعمولة بالخوص فتغير وتضحك وتضمه إلى صدرها فيعصره عصرا بكفى يديه الناشفتين. لكنه توقف لحظة سماعه الصوت.

وسمعه حمدان ولد عبد القادر حين كان يهم باعتلاء امرأته التى كان يسمع صراخها فى الليل من فحولته.

وسمعه كثيرون كانوا يمارسون طقس الجزيرة اليومى فى تلك الليلة. العجيبة. توقف أحمد أبو سماعين لحظتها عن خلع ملابسه، ونزل حمدان

t.me/qurssan

ولد عبدالقادر عن امرأته التى ما كانت قد صرخت بعد، كذا توقف الجميع لحظتها وأنصتوا لهذا الصوت الآتى من أعماق البحر. من المؤكد أن أحدا منهم لم يسمع هذا الصوت من قبل، من المؤكد أنهم أصيبوا برعب وفزع شديدين، فقد ظن البعض أن من علامات الساعة سماع أنين البحر. كانوا مكذبين أول الأمر أن للبحر أنينًا، ومع الإنصات الشديد فى عتمة الليل سمعوا جيدا. وسمعوا دقات قلوبهم وهبوط رغباتهم المشتعلة. وارتخاء عضلات أعضائهم الواقفة فى استقامة عجيبة بكى أحمد أبو سماعين بعد أن تأكد أن عليه أن يموت دون أن يغتسل. وبكى الجميع لنفس السبب، ولم يفكر أحد فى الخروج للتأكد من صحة هذا الصوت ومصدره. كانوا يبكون، وحين تمالكوا جلسوا محملقين فى سقوف أعشش الخوص منتظرين النهاية الآتية من أعماق البحر، والتى لا ريب فى قدومها.

ولكن أحمد أبو سماعين قال كلمته لامرأته التى جرت عليه وقعدت عند رجليه. قالها فى خوف أول الأمر، لكنه قالها فى خوف شديد تعجب منه فى المرة الثانية، وفى المرة الثالثة قالها وهو لا يشك فى خوفه وخرج، خرجت وراءه تستعطفه ألا يفعل فليس لى غيرك يا أحمد يابو سماعين. ولكن الرجل كلمة. قال لها ولم تفهم ما يعنيه وقد حملقت فيه وهو يفعل ما لم يفعله من قبل.

حين خرج ووقف على باب عشته وضع سيف يده اليمنى على جبهته محملقا فى الليل، وجد الجميع يقفون على أبواب عششهم، وعندما تحرك، كانوا قد تحركوا فالتفوا جميعا، وقالوا سمعنا وأنصتنا لصوت آت من أعماق البحر.

قال أحمد أبو سماعين:

- سمعت أنينا.

t.me/qurssan

وقال رمضان ولد عبد القادر الغيطى:

ـ سمعت صواتا وبكاء.

وقال عبدالكريم :

ـ بل سمعت معركة رهيبة وصوت أسلحة وصهيل.

لم يكن أحد من سكان الجزيرة متأكدا مما سمعه، ولكن الشىء المؤكد للجميع هو سماع صوت آت من أعماق البحر.

قال أحمد أبو سماعين:

ـ لابد من الذهاب للبحر.

ولما لم يسمعه أحد زعق:

ـ نذهب لنتأكد من الصوت.

فى أول الأمر نظروا إلى بعضهم فى وجوم، ثم نظروا إلى أنفسهم فى خوف ولم يتكلموا.

قال أحمد أبو سماعين:

ـ لقاء الموت أهون من انتظاره يا جدعان.

عندها نظرت إليه امرأته وقد عرفت أنه رجلها الذى عرفته الآن. وضمته إلى صدرها ـ وكانت بعيدة عنه، وزمت شفتيها تقبله وكان يتكلم فى الناس:

ـ لا بد من الذهاب يا ناس. يا ناس لابد من عمل الأصول التى ورثناها جدا عن جد.

تسلل صوت أحمد أبو سماعين فى سكون المحار الذى يصطاده محروس الصياد، ويصطاده عوض اليتيم الذى ليس له جذر يتفرع منه. وتوقف أحمد أبو سماعين عن الكلام. وشعر بقلبه ينزل إلى تجويف البطن المريضة بداء «الكلى» الملآنة بكل أنواع الحصا والقواقع وأعشاب البحر. كان عليهم أن يتحركوا ـ ولم يتحرك أحد.

t.me/qurssan

وكان عليهم أن يتكلموا، فلم يتكلموا، وزعقت الجدة خضرة التى اقتربت فرعها من الأرض:

- على النسوان أن يعملن عمل الرجال.

لكنها توقفت وسمعت. ولما سمعت خافت وانكمش فرعها. كذلك سمع جميع نفس الصوت، أنينا طويلا وحشرجة المقبل على الموت.

رج الصوت الجزيرة رجا حتى أنهم انبطحوا على وجوههم يخفونها سواعدهم، وكان الصوت يأتى من كل اتجاهات الجزيرة - لكنه توقف فجأة. أما ما كان من أحمد أبو سماعين فإنه لم ينبطح، وإنه لم يتوقف، فقد سار متوغلا فى الليل صوب الشاطئ، وتطلع الجميع إليه فقد سمعوا حركة رجليه على الحصا، لكن أحدا منهم لم يوقفه، وأحدا منهم لم يقل له ويزعق فيه:

- ارجع يا أحمد يا بو سماعين.

ولو سمع أحدهم يقول له:

- ارجع يا أحمد يابو سماعين - لرجع.

لكنه سار، وفى نيته أن لقاء الموت أهون من انتظاره. فى قلبه كان الرعب ينبح نباحا عميقا سمعه بأذنيه، كذلك سمع أزيز الخطر، وسمع ساعديه يرتطمان بجانبيه ولم يعد يحس بهما، وكادت رجلاه تتوقفان عن المشى فجرهما جرا، أما عيناه فكانتا تريان جيدا، ولسانه لا يكف عن نطق الشهادتين. وحز فى نفسه أنه لم يغتسل، وأنه نجس، وأن هذا له عقابه الشديد لحظة لقائه بناكر ونكير، لكن الرب يراه، ويعلم أنه كان يركب حلالا طيبا، وأنه ما قصر يوما فى أداء مهامه الزوجية. هكذا سار، وقال أحمد أبو سماعين:

- لماذا يا بحر تغضب علينا نحن رعاياك المخلصين فإنك يا بحر أذللتنا منذ أسبوعين ومنعت عنا خيرك الذى هو من خير الله. منعت عنا سمكك

t.me/qurssan

وقرموطك وبلطيك، وجعلتنا يا بحر نأكل العيش الناشف مغموسا فى مرق العدس، فأرفع يا بحر سخطك وغضبك عنا.

كان يقول للبحر، وفى رأسه تشكلت صورة القيامة، ناس معلقة من أرجلها، وناس مسلوخة جلودها، نساء معلقات من أثدائهن - ومن هؤلاء يا جبريل، هؤلاء العاهرات الفاجرات. وهؤلاء المعلقون من أرجلهم. هم الذين ماتوا على نجاسة. أعوذ بالله ارتعب، قال:

- لا فرق بين الأولى والآخرة. كان قد اقترب من الشط، لكنهم يئسوا من رجوعه وراحوا يبكون، ولطمت امرأته الخدين فسال الدم، ونادت:

- يا ولداه ياحمد يابو سماعين، يا عينى عليك يا خويا. لكنه اقترب. وما اهتزت صورة القيامة فى عينيه، وحين اقترب أكثر سمع وشوشة البحر، وسمع أنينا خافتا وتسمرت رجلاه فقد اصطدمتا بشىء رخو وشم رائحة السمك الميت، وعلى الضوء الباهت الآتى من الفنار رأى جسدا ممدودا بطول الشط، ارتعب، لكنه اقترب منه ووقف فوق رأسه وكان يرقد على ظهره وبطنه فى مواجهة القمر الهلال. أحس بارتعاشة الجسم الممدود وتقلصاته.

الآن.. العينان فى العينين، نظر إلى أحمد أبو سماعين نظرة طويلة عميقة، كان يبكى. قال أحمد أبو سماعين:

- وكتاب الله المنزل رأيته يبكى

وقال أحمد أبو سماعين:

- والمقام الشريف طلب منى شربة ماء.

جرى إلى البحر، غرف بيديه، صبها فى حلقه الكبير، لكنه مات.

مات على يدى أحمد أبو سماعين.

قبل أن يموت قال لى بلسان عربى فصيح:

t.me/qurssan

- ياحمد يابو سماعين - فتعجبت من ذكر اسمى.

وقال:

- عملت فى معروف، وجزاؤك رده، اطلب تجاب. ولم أطلب فقد مات.

وعلى الطلاق يمين أحاسب عليه يوم القيامة بكيت بكائى على طفلى الذى يجيئنى من صلبى.

حين رجع، كان يعلم أنه قابل أكبر سمكة رآها فى حياته، وأنها قد تكون أكبر سمكة فى العالم، وأن عليه أن يذيع الخبر فى الجزيرة فليتم الخلق، ويفعلون الأفاعيل فى السمكة التى استجارت ولم يجرها أحد.

لما ذاع الخبر فى الجزيرة تجمعوا، ولما وصلوا إليها داروا حولها. يا لطاف الله، سمكة بطول الشط. ويا ولداه مجروحة فى بطنها. باتوا حولها، ولما أصبح الصباح وأضاء الكريم بنوره ولاح، عملوا فى تقطيعها.

قالت الجدة خضرة:

- على النسوان البور أن يأكلن كبد الحوت، وعلى النسوان الشراقى أن يخطين من فوقها إحدى وعشرين خطوة، وإن تعذر فسبع تكفى.

واحد فقط لم يذهب يشارك رجال الجزيرة فى القسمة، وواحدة فقط لم تذهب لتأكل كبد الحوت، وتشرب زيت كبد الحوت، وتخطو إحدى وعشرين خطوة.

أحمد أبو سماعين، وامرأة أحمد أبو سماعين.

وكان يغتسل ويبكى.

وجلس الناس يحكون قصة الحوت العظيم الذى استجار بالشط ولم يجره أحد.

* * *

t.me/qurssan

الرأس

والليل قد بلغ منه الثلث أو الثلثان، ولم يكن هناك غيرى فى الشارع، والظلام قد اشتد ساعده فرمانى بأغنية تتحدث عن فوائد الاستحمام. فغنيت ولعلع صوتى فى السماء الدنيا. أما المواصلات فقد انقطعت منذ حين، وكانت هناك عربة آتية من المنحنى المظلم مسرعة. وقفت أمام العربة فاتحا ما بين ساقى فاردا ذراعى. فوقفت لى. مددت رأسى وعنقى عبر النافذة المفتوحة لأواجه السائق.

دون أن أتكلم، ودون أن يتكلم، مد السائق يده إلى رأسى وعنقى، كانت يده تحمل سكينا كبيرة لمع نصلها فى الظلام وجز رأسى وعنقى فى مهارة فائقة. كنت أنظر إليه فى دهشة وكان يضحك ويصفر بفمه. أخذ رأسى وعنقى ووضعهما بجانبه على الكرسى، وكان جسدى خارج العربة يقف منتصبا دون رأس ولا عنق. انفجر سرسوب من الدماء مثل النافورة فأخذ يصدر هذا الصوت:

ـ تش.. تش.. تش، وكان عنقى أيضا ينزف دما ساخنا. نظرت إليه مستفسرا فأدار محرك العربة وانطلق. شببت برأسى على عنقى لأنظر عبر زجاج النافذة إلى جسدى المنتصب فى الشارع متباعد الساقين مفتوح الذراعين، بلا رأس أو عنق. كان جسدى يتهاوى فى بطء واستكانت الذراعان والتوت الساقان وتكونت بركة من الدماء الساخنة التى أخذت

t.me/qurssan

تفور وتتصاعد منها أبخرة ملأت الهواء، وكان صوت الدماء التى تفور يأتى عبر الهواء فيح فيح.. فيح فيح.

لم يكن العنق قد جف بعد فأخذ ينزف حتى امتلأت العربة بالدماء الفوارة، غمس السائق يده فى الدماء واغترف وشرب، ثم أنه أخذ يمتصها إصبعا اصبعا، ومسح يده فى شعرى فاحمر وأصبح لزجا. مددت لسانى الذى كان قريبا من يد السائق، لعقت يده، كان طعم الدم مالحا فبصقته، ولكن السائق ملأ كوبا أخذ يرتشفه ببطء وتلذذ، وأصبحت أحس بالقرف من منظر الدم المتخثر، وكنا نصعد جبلا، والسائق يشرب حتى تحول لون الجلد إلى حمار قاتم وفاحت منه رائحة نتنة ودمعت عيناه دما، استلقى رأسه على ظهر المقعد ونظر إلى. كنت أنظر إليه وكانت نظراته تتحول إلى دماء تنزل قطرة قطرة، والصوت يرن:

- تك تاك، تك تاك. حتى هذه اللحظة لم أتحدث معه ولا تحدث معى، مدت يده إلى عنقى وأخذ يضغط عليه بشدة حتى عصرنى، ثم أنه قذفنى من نافذة العربة فأخذت أتدحرج من فوق الجبل والهواء يردد صدى ارتطام رأسى بالصخور:

- بوم بم.. بوم بم، بوم بم، حتى استقرت رأسى فوق الرمال، وكان عنقى لايزال ينزف دما. فشربت الأرض حتى ارتوت جيدا، نبتت شجرة أخذت تنمو وتنمو حتى جاء الطائر الكبير الذى أخذ يأكل منها فوقع ميتا. وجاءت الكلاب فأخذت تأكل فى عنقى ورأسى ولم تترك سوى عظام الجمجمة التى لم يستطع أحد الكلاب كسرها. جاء الحيوان المفترس ذو الجثة الضخمة فأكل عظام الجمجمة ولم يبق من رأسى وعنقى سوى بعض الشذرات التى التقطتها ديدان الأرض فى مرح شديد، وكان طابور النمل يحرسى يمر فحمل المتبقى من رأسى حيث قام بتخزينى لعام الرمادة. لم يبق منى شىء إلا شذرة حط الطائر الكبير عليها والتقطها بمنقاره وعبر

t.me/qurssan

السحاب مررت فانتعشت إلى أن حط الطائر الكبير فى أرض صحراء بالقرب من العين، أخذت أنمو ولم يكن هناك سوى الرمال والعين، جاء بعض الرجال والنساء بالقرب من عين ماء، أراد الطائر أن يشرب فوقعت من منقاره بالقرب من العين، نصبوا الخيام بالقرب منى بعد أن أخذت أتمطى فاردا أذرعى التى تدلت على حافة العين فانتشر الطل، لعب العيال بالقرب منى، وقبل الولد الكبير الفتاة التى نبت لها ثديان صغيران، مدت امرأة يدها إلى أحد أغصانى فقطعته، وضعته فى فمها فانزلق إلى أمعائها، عندما رجعت المرأة إلى خيمتها كانت بطنها قد تكورت، وعمل الرجال منذ الصباح الباكر على اقتلاعى لأن أوراقى جفت ولم أعد أنشر الظل. فى البيت كانت المرأة تلد فولدت ولدا أخذ ينمو ويكبر ويقضى أوقاته عند النبع، كان الولد يحب النبع حبا كبيرا. وكان الولد يحب البنت الجميلة حبا شديدا، وأراد الولد أن يقبل البنت الجميلة عند النبع فابتسمت فى وجهه. كان جسد الولد يحمل رأسى وعنقى.

* * *

t.me/qurssan

الرجل الذى اكتشف
أنه يموت ثم يصحو

كنت فى الأيام الأخيرة قد بدأت فى مراقبة نفسى مراقبة صارمة.

قمت بعملية رصد دقيقة لجميع الأفكار التى يتم استقبالها بواسطة عقلى الواعى، وكنت أشعر بأنه لا جدوى مما أفعله، ولكن حدث ما جعلنى أصاب بدهشة شديدة، وهذا ما حدث بالضبط.

- اليوم الذى شعرت فيه بأننى مراقب:

فى هذا اليوم شعرت بأننى مراقب، وأن كل أفكارى وتصرفاتى تمر من خلال جهاز مراقبة شديد الذكاء والإحكام يقوم بتحليلها أولا بأول.

كنت أعرف النتيجة فى نفس اللحظة مما جعلنى أشعر بدوار عنيف أعقبه توتر حاد وألم شديد فى مؤخرة نخاعى الشوكى، عند الفقرة التى تمس «العصعص».

قلت: سوف أضلل هذا الجهاز الرادارى الذى يراقبنى، ولكنى اكتشفت أننى أضلل نفسى.

- الحدث العجيب الذى هز نخاعى:

كانت المراقبة صارمة، وكنت لا أترك إشارة تصل إلى مخى إلا وأقوم بتحليلها ومعرفة مصدرها وما سوف تقوم به هذه الإشارة من تداعيات. لم أنم فى هذا اليوم وظللت مستيقظا، عندما نظرت فى المرآة كانت عيناى

t.me/qurssan

حمراوين وظهر شعر الذقن طويلا كثيفا. تذكرت أننى لم أذهب إلى عملى منذ ثلاثة أيام نتيجة انشغالى بمراقبة نفسى، وكنت قد نسيت أن آكل طوال هذه الفترة، بدأت أوجه أفكارى إلى كيفية جعل الإشارات التى تصل إلى المخ تثير فيه تداعيات الرغبة فى الطعام والشعور بالجوع وخواء البطن، وهذا ما حدث بالفعل ـ تعجبت من النجاح المستمر.

- اللحظة التى أصبت فيها بالفزع:

بدأت فى الانقطاع عن العالم الخارجى، وضعت بجانبى عدة نوت امتلأت عن آخرها بملاحظاتى التى كنت لا أدعها تخلو من التشخيص العلمى حسب أحدث النظريات العلمية السائدة فى زماننا. الداخل إلى حجرتى ـ مع أن هذا لن يحدث أبدا ـ سوف يجد بالقرب من السرير الوحيد منضدة، فوقها كل ما أحتاجه من أدوات قد تساعدنى فى عملية الرصد، بضع ساعات كبيرة على الحائط، ثلاثة منبهات لقياس الأزمنة المختلفة لعمليات القياس الذهنى التى أقوم بها، تسلل إلى شعور مفاجئ بالسادة لتمكنى من معرفة بعض الحقائق المدهشة التى جعلتنى أشعر بخطورة وأهمية ما أبحث عنه، فإن أحدا لم يكتشف مثل ما اكتشفت، فقد تحقق لى أننى أستطيع التحكم فى هذه الموجات الكهرومغناطيسية والتى تصل إلى عقلى عن طريق الهواء المشبع بها بانتظام. أستطيع أيضا توجيهها كما أريد لتفرز تداعيات معينة فى لحظة معينة. كنت متعبا، نمت، طلت بعض الوجوه الضبابية من أزمنة مألوفة. كانت محاسن زوجتى تبتسم، وكانت تبكى لما جاء حضرة الضابط فى الفجر وصفعنى على وجهى، وكان محمود ولدى يتعلق برجلى لحظة جرجرونى على بلاط الشقة، وكان رجل مثل «الفلق» يخلع سروالى وسرواله ويضع نفسه فى نفسى، ومحاسن زوجتى تمسك بيد محمود، زحام شديد وعربة فوق محاسن ومحمود تخلطهما خلطا. صحوت فجأة، نظرت إلى ساعتى، كانت

t.me/qurssan

تشير إلى الرابعة صباحا. أصبت بالدهشة، كان الضوء يغمر الحجرة، نظرت إلى المنبه الذى على يمينى، عقاربه تشير إلى الثانية عشرة ظهرا. والذى على يسارى يشير إلى الثانية عشرة أيضا. أحسست بحيرة شديدة كيف يحدث هذا؟ أمن المحتمل أن تكون ساعتى قد توقفت أثناء... وضعتها على أذنى، كانت الدقات تشير إلى أنها تعمل ازدادت حيرتى.

- كيف قفز الخاطر الغريب إلى ذهنى فجأة:

فى حيرة شديدة من أمرى ـ كنت ـ تكررت نفس الظاهرة عدة مرات، حدث فى اليوم التالى أن نمت، عندما صحوت كانت ساعتى قد توقفت، نظرت إلى المنبهات الموضوعة بجانبى، تشير إلى الواحدة ظهرا، ساعتى تقف عند العاشرة، تذكرت أننى نمت أمس فى العاشرة مساء. تسارعت موجات كهرومغناطيسية إلى عقلى، قفز خاطر غريب، هل من الممكن أن... ولكنى استبعدت أن يحدث هذا، ألح على الخاطر الغريب، كانت الفكرة مذهلة من الناحية العلمية، اكتشاف جديد، لم يتوصل إليه إنسان من قبل فى زماننا، سبحت فى نشوة الاكتشاف العلمى المذهل للحظات، لو تحقق هذا لهز أركان العالم. كانت الفكرة تتلخص فيما يلى:

لو علمنا أن الساعات الرقمية التى نحملها فى أيدينا تعمل أتوماتيكيا وهذا بفضل النبض المنتظم الذى يصدره القلب عن طريق الدق سبعين مرة فى الدقيقة الواحدة ـ هذه حقيقة ليست بديهية اكتشفتها أنا ـ الذى حدث أن الساعة قد توقفت عن العمل فى فترة زمنية محدودة، وقد استطعت رصد هذه الفترة. وهذا تطلب مجهودا شاقا، استطعت أيضا معرفة زمن توقف الساعة وهذا يحدث فى الفترة التى نام فيها عقلى، وبما أن الساعة تعمل بواسطة ضربات القلب ـ مستنبطة ـ فلو أن ضربات القلب توقفت عن الدق ـ وهذا يعنى أيضا توقف النبض ـ بالطبع سوف تتوقف عقارب الساعة فورا. وهذا ما يحدث بالفعل.

t.me/qurssan

- كيف كان الاكتشاف مذهلا:

لو أن أحدا حدثنى فى هذا الأمر ـ ما صدقته أبدا،

ولو أن أحدا حدثته عنه ـ ما كان صدقنى قط.

كان على أن ادعم نظريتى بالإثباتات والبراهين حتى أستطيع مواجهة علماء زماننا، كيف يمكن للقلب أن يتوقف أثناء النوم؟

وهل يستطيع أى كائن حى العيش رغم توقف القلب؟

عمليا من المستبعد حدوث هذال الأمر خاصة وأن الدم يمر فى القلب فيقوم بضخه إلى جميع أجزاء الجسم، فلو توقف فسوف تتوقف عملية الضخ، بالتالى لن يصل الأكسوجين إلى خلايا المخ، بهذا يتحقق الموت الكامل.

لم أصل بعد إلى حقيقة علمية يندرج تحتها هذا الكشف، دونت فى نوتة الملاحظات أننى مت أثناء نومى عدة مرات، ولكنى حملت ليلة أمس بحضرة الضابط يأتى إلى بيتى يقلب فى كتبى ويأخذ كتابا فى صفحاته، وحلمت به يتهمنى بالإعداد لمؤامرة لقلب نظام الحكم أنا وآخرين، ورأيت نفسى أجلس على مقهى «ريش» فى منتصف دائرة تتناقش مناقشة حامية. وبأننى أضرب مدير الشركة وأطرده من مكتبى، كذا طردت جميع العاملين بالشركة ـ وهذا الحلم إن دل على شىء فإنما يدل على أننى نائم ولست ميتا. كتبت ملحوظات بالقلم الأسود وضعت تحتها خطين وعلامات استفهام.

ملحوظة:

هل من الممكن أن تذهب الروح إلى العالم الآخر أثناء نومى، ثم تعود بعدها قبل أن أصحو؟ وهل أستطيع مراقبة روحى أثناء ذهابها؟

وكيف تتم عملية الرصد هذه؟

t.me/qurssan

- **كيف تمت عملية الرصد:**

كنت أقرأ فى كتاب «سيجموند فرويد» «تفسير الأحلام».

عندما وقع نظرى على عنوان جانبى كتب بالخط العريض:

كيف تراقب روحك أثناء صعودها وهبوطها من وإلى العالم الآخر.

كان العنوان مثيرا، قرأت الفقرة وكانت مكونة من عدة صفحات التهمتها فى لحظات، وضغت خطوطا سوداء تحت بعض السطور وكتبت عدة ملاحظات.

- **بعض السطور التى وضعت تحتها خطا أسود:**

إذا أردت أن تراقب روحك أثناء انسلاخها عن جسدك فيمكنك اتباع التعليمات الآتية:

- أن تحدد زمن استلقائك على السرير، وزمن الدخول فى غيبوبة النوم ومعرفة الفرق بينهما.

- محاولة اليقظة الكاملة أثناء الدخول فى غيبوبة النوم.

- **استدراك :**

كيف يطلب المؤلف اليقظة الكاملة لحظة الدخول فى غيبوبة النوم، أى اللحظة التى يشعر فيها الشخص بثقل فى الأجفان وارتخاء فى الأطراف؟ هذه الفقرة لم أستطع فهمها.

- عند النوم. أى فى اللحظة التى تحس فيها أن عقلك الواعى قد نام، وأن السيطرة الآن عن طريق عقلك الباطن ـ حاول معرفة إلى أين يقودك عقلك الباطن.

- حتى تستطيع السيطرة على عقلك الباطن لابد من ممارسة التجربة أكثر من مرة، مع العلم بأنك قد تفشل أكثر من مرة ـ فلا تيأس.

t.me/qurssan

- عندما تصحو، وفى اللحظة التى تكون فيها بين اليقظة والنوم، حاول أن تتذكر ماذا حلمت بالأمس، وهذا لن يأتى إلا بتكرار المحاولة أكثر من مرة.

- كيف دخلت تجربة المراقبة ونجحت:

بدأت بتطبيق جميع تعليمات فرويد، قمت بالتجربة كثيرا، أخفقت فى بادئ الأمر، ولكن نجحت أخيرا، تذكرت ما حلمته أثناء نومى، كان وجها ابنى وزوجتى يطلان من زوايا الحلم، الدماء تغمرهما، والمدير بابتسامته الصفراء وحديثه الغاضب: أنت انسان عامل مثقف وثورى، لكنك مستهتر، مجنون، أنت مفصول من عملك. تذكرت كيف هشمت رأسه، اكتشفت حقائق مذهلة، دونتها فى نوتة الملاحظات، سجلتها على أشرطة كاسيت، وضعتها فى درج مكتبى.

قلت: لعل نظريتى تكون أنفع لى من انشغالى بالأدب وكتابة القصص التى لا يقرأها أحد. أخذت أهنئ نفسى بقرب النجاح، الشهرة، دخول التاريخ من أوسع أبوابه، على رأس قائمة علماء زماننا لا أدباؤه جالسى المقهى اللعين الذى يبدو وكأنه سوق عكاظ لتجارة القصة القصيرة والمقالات الأدبية وأحدث النظريات البنيوية وغير البنيوية وفتاوى الحكماء.

قلت: يا جالس المقهى اللعين تدبجون بيراعكم كل شىء، سوف أترك لكم هذا الباب، وسوف أحظى بالشهرة والمجد فى باب آخر. تذكرت أننى لم أطلق عليها اسما حتى الآن. أخذت أعدد جميع الأسماء التى أطلقت على النظريات السابقة لعلماء أمثال دارون وأينشتين ونيوتن. اقترحت ثلاثة أسماء دونتها فى النوتة:

- الاسم الأول: التوقف الزمنى للنائمين مواتا.

- الاسم الثانى: الزمن الآخر.

t.me/qurssan

- الاسم الثالث والأخير: حين يتوقف الزمن. «نظرية فى الذهاب والعودة» لم تكن بى رغبة فى حذف أحد العناوين الثلاثة فتركتهم ليختار أهل زماننا ما يشاءون. شعرت براحة كبيرة وسعادة طاغية تغمرنى.

انتهيت من تدوين نظريتى بأسمائها الثلاثة وقد استطعت تفريغ مسوداتى وجميع المذكرات فى صيغة واحدة شاملة مع عرض واف للنظرية من أوجه نظر مختلفة. نمت بعد أن وضعت فى خطتى الذهاب غدا إلى أكاديمية البحث العلمى.

فى الصباح، كانت ساعتى متوقفة تماما، وكانت المنبهات وساعات الحائط تعمل بانتظام. ارتديت ملابسى، نظرت فى المرآة، كانت لحيتى قد غطت صدرى وشعرى كان يلامس كتفى، بقايا الطعام والأوانى المتسخة تملأ الحجرة، رائحة السجائر تفوح فى الجو، مضمضت فمى، أخذت الأوراق تحت ابطى، نزلت إلى الشارع، ارتبكت خطواتى فى بادئ الأمر ثم انتظمت، احتضنت نظراتى الكون، لازالت الشوارع حبلى بالخلق، يتزاحمون فى عربات السردين، يقفون طوابير فى المجمعات الاستهلاكية، يهرولون فى مسيرات صامتة نحو المجهول، احساس غامض نبت داخلى، تمرد، شعرت أننى طويل.. طويل.. ياه.. الناس حولى قصار جدا، نظرت من فوق، تحسست أوراقى الثمينة، ضحكت، قهقهت، كأنى فى دنيا غير الدنيا، وكأن الناس غير الناس وهم ينظرون إلى فى دهشة.

قلت: من الجائز أن فترة انقطاعى عن العمل وممارسة حياتى اليومية بشكل منتظم وعادى نتيجة إنشغالى بالبحث قد أحدثت عندى احساسا بالعزلة، بالبعد عن الناس.

وصلت إلى مبنى أكاديمية البحث العلمى، خطوت أولى خطواتى داخلة، حيانى الرجل الجالس خلف الباب فلم أرد تحيته وكرهته، صعدت أولى

t.me/qurssan

الدرجات، كان كل شىء مرتبا فى ذهنى ترتيبا منطقيا. سوف أطرق الباب أضع على شفتى ابتسامة خفيفة، أقول:

صباح الخير سيدى المدير، جئت إليك بأحدث نظرياتى، هى مختلفة عن نظرياتى السابقة التى جئتك بها من قبل. وسوف يقول لى تفضل. فأجلس ويطلب القهوة. والباقى سوف يأتى تباعا.

* * *

t.me/qurssan

كتاب الفتوح الكبرى

المعروف بـ «حرب بلاد نمنم»

t.me/qurssan

إلى الأمير: باسم،

ابن الحكايات...

t.me/qurssan

بلاد نمنم

لو رأى أحدكم ما رأيت لصدق ما أقول. بعينى هاتين رأيت أحدهم فكدت أفارق من شدة ما رأيت. اسمعوا، أحكى من البداية: صلوا على النبى...

الحرب كانت قائمة بيننا وبلاد نمنم، وفى بولاق الدكرور، بالتحديد فى شارع همفرس، وتقع أعلى عمارة، ذات صباح قام رجال الدفاع الشعبى بتركيب صفارة إنذار كبيرة إذا انطلق صوتها أرعب البلد كلها واختفينا فى غمضة عين. تم حفر خنادق لولوبية إذا دخلها الإنسان لا تعرف له طريق «جُرة» ورأينا رجال الدفاع الشعبى يقومون بأول تجربة عملية لمقاومة الأعداء تجمعنا كلنا أمام شارع عشرة الذى تمت فيه التجربة، أخذوا يصعدون العمارة ـ واحدًا فواحدًا ـ ربطوا حبلاً أعلى العمارة وأسقطوه فى الشارع، حين انطلقت صفارة الإنذار رأيناهم ينزلون على الحبل فردًا فردًا ونطق الميكروفون: برافو عبد القوى، ها هو ينزل فى سهولة ويسر، أحسنت يا محروس، شبك قدميك فى الحبل جيدًا ولا تنظر تحتك. ووقعت خوزة أحدهم الحديدية على أحد المشاهدين فمات من وقته وساعته.

جاءت التجربة الثانية فكانت أشد خطرًا، وسمعنا فى الميكروفون يا أهالى بولاق الدكرور ماذا تفعلون إذا جاء أعداؤنا من بلاد نمنم وقاموا

t.me/qurssan

بإشعال الحرائق، رد صادق العلاف فى صوت لم يسمعه أحد: نبقى مش رجاله وحلال فينا الحرق بجاز.. رأينا خرطومًا أبيض غليظًا، طويلاً جدًا ممدودًا بطول الشارع، أشعلوا النار فى كومة الأقفاص والقش فبانت النار قوية «موهوجة» كنار الأعداء. انطلقت صفارة الإنذار، رجال الدفاع الشعبى يقفون صفًا واحدًا بطول شريط الخرطوم، انحنوا عليه فجأة لما انطلقت الصفارة، أمسكوا بالخرطوم ووجهوا رأسه للحريق، انتفض الخرطوم وانتفخ فانتفض معه الرجال ووقع البعض وحدث اضطراب عظيم غرقت معه المحلات والبيوت، وكانت النار قد أكلت الأقفاص والقش، وانطلق صوت الميكروفون: برافو يا ولاد تجربة ناجحة.

رأيتهم يستعدون للحروب، وصوت الميكروفون أبو هورن كبير «يلعلع» فنحس بأن الحرب آتية ولابد من المواجهة، وأننا قد نلمح أحدهم فى أية لحظة فماذا نفعل؟ وكيف نتصرف؟ خاصة وهم يأكلون لحوم البشر أمثالنا، وأشكالهم مخيفة فهل نحتمل نحن رؤية رجل بذيل طويل يأكل لحم عدوه أو حتى أخيه حيًا!!

هذا ما حدث بالفعل، حين سمعنا ذات صباح بالخبر: طائرة الأعداء الآتية من بلاد نمنم، وقعت فى بولاق الدكرور، بالتحديد فى جنينة الخواجه همفرس، انطلقنا لحظة سماع الخبر وفى أيدينا كل أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة، حملت معى «مسطرين» أبى وحمل أخى «كوريكًا» ورايت أغطية «الحلل» والشوك والسكاكين فى الأيدى. الكل يجرى ناحية الجنينة لرؤية الآتى من بلاد نمنم، الرعب داخل الصدور من لقاء ابن نمنم أبو ذيل آكل لحوم البشر. لما اقتربنا، لمحنا شيئًا معلقًا فى شجر الخواجه همفرس، اقتربنا أكثر ورفع كل واحد سلاحه، ها هو ابن نمنم، أحد أعدائنا، «مدلدلاً» فى حالة تسرنا وتسؤه، تشده خيوط كثيرة إلى الشجرة، يرفس بقدميه هواء بلدنا، بجانبه يرقد حطام الطائرة وقد

t.me/qurssan

عدمت العافية. التففنا حوله فكنا دائرة كبيرة كانت تضيق وتقترب من العدو، ولمحنا الخواجه همفرس يقف أعلى قصره ويشير بيده إلينا: بتعدوا ياغجر عن الجنينة. لكنا اقتربنا حتى أصبحنا تحت عدونا تمامًا، نظرنا جميعًا إليه، أين ذيله؟ قلنا أخفاه فى ملابسه فمزقناها لم نر شيئًا فوقعنا فى بلبلة، لابد أن يكون عدونا بذيل فأين هو إذن سمعنا صوت لميكروفون: الدفاع الشعبى يناشدكم ضبط النفس، ابتعدوا عن الهدف. كانت الناس تبتعد، حين صرخت: أنا رأيت ذيل ابن نمنم لم يسمعنى أحد، كانت الناس تقترب من قصر الخواجه همفرس، أصبحوا تحته تمامًا أشار نهم أن ابتعدوا يا غجر فاقتربوا أكثر صرخوا فى نفس واحد: انظروا، ها هو ذيله، ابتعدوا يا غجر، لكننا اقتربنا ثم أننا دخلنا قصر الخواجه همفرس.

* * *

t.me/qurssan

جينيتر

فى لحظة واحدة كانت المعركة قد بدأت، ولم يكن هناك فرصة واحدة للتراجع، ولابد لنا من هزيمة الأعداء شر هزيمة وإلا أعدمونا العافية ولا نستطيع رفع أعيننا فى وجوه الأبالسة أولاد الكلاب.

أصل الحكاية أن سعيد فرجانى ـ تعرفونه طبعًا ـ لأنه سوف يهدد أباه بالانتحار فيما بعد ويموت هو وأمه فى ليلة مفترجة، وذلك لأنه رآه يعاكس البنت توحه، وأبكى عليه كثيرًا لأنه صاحبى الذى مات كافرًا.

قال لى وكنا فى المساحة: تيجى تشتغل معايا وبالنص.

فأحضرنا عدة الشغل وهى «شنطة» ملآنة بأنابيب البوتجاز الصغيرة حملتها فوق كتفى ومشينا حتى وصلنا سور وزارة الزراعة لأن أباه يعمل هناك، وعلى السور رصصنا عدة الشغل وكتبنا: جمال وسعيد القص ـ ملو وتصليح جميع أنواع الولاعات ثم أننا جلسنا أنا من ناحية وهو من ناحية على السور، وأشار بيده إلى الوزارة: أبويا هنا هو الكل فى الكل، دا هو المدير، سوف أرى أبو سعيد بعد حين كان جالسًا على كرسى بجانب باب الوزارة قلت: ياه المدير، قال آه.. والله. وبينما نحن كذلك إذ جاء الولد سامبو ابن البرابرة ليملأ ولاعته ففرحنا لذلك وكنت قد أحضرت معى كيسًا كبيرًا من القماش الدمور لنضع فيه الغلة كما يقول سعيد: فأنا ابن

t.me/qurssan

سوق وفاهم المسائل أكتر منك. مد الولد سامبو يده بخمسة قروش فضه أخذتها وقبلتها ووضعتها على جبينى ثم وضعتها فى الكيس فاختفت، ثم أننى عقدت عليها عقدة وشنيطة، وكانت الدنيا قد أظلمت حين قال لى سعيد عملنا بكام النهاردة، دانهارك أزرق باين عليه. مددت يدى إلى جيبى أخرجت كيس الفلوس لأعدها ونتحاسب أنا وشريكى، ولم يكن هناك سوى قروش الولد سامبو الخمس. أخذها سعيد منى وهو ينظر لى نظرة غيظ وشر وجرى ورائى: والنبى باين عليك وشك فقر ومدوحس، ثم أنه جرى إلى مقلة اللب فكها وأعطانى خمس تعريفات وقال لى: والنبى خسارة فيك جبت لى النحس منك لله، فاشتريت بقرشين لب من غيظى وركبت بالباقى.

وفى اليوم التالى فوجئنا ـ أنا وشريكى ـ بالولد سامبو جاء لملء ولاعته وجلس بجانب سعيد على السور وتحدثا لمدة ساعة ثم انصرف بعد أن أعطانى خمسة صاغ وضعتها فى الكيس، هكذا بدأت المعركة.

هى بدأت فى اليوم الأول لرؤيتنا للولد سامبو، لأن ما حدث بعد ذلك يدل على هذا ـ صلوا على النبى:

الولد سامبو فوجئنا به ذات يوم فى حارتنا، وقال لنا: ألعب معكم فرحب به شريكى سعيد لأنه تصاحب عليه جدًا، وبدأنا نلعب: كلوا باميه القطة العاميه، سرقت قميصى، الانجليزى، يا نرجس، ووقع الدور على الولد وانضمت إلينا كل الشلة وكان يمسكنا كلنا، تضايقنا جدًا، ماذا نفعل؟ هل نقول له: لا تلعب معنا يا سامبو؟ عيب، ثم إنه غريب وليس له أصدقاء سوانا ويجب علينا إكرامه. المهم قلنا نتحمل رزالة الولد سامبو ونشوف يمكن يحس على دمه ويلم نفسه فى أيامه السوداء هذه، ولكن حدث بعد ذلك ما جعلنا نقرر إعلان الحرب عليه وعلى البرابرة كلهم ناسه.

t.me/qurssan

مر اليوم وراء اليوم، ونحن نذهب إلى عملنا، أنا وشريكى سعيد، أنا «ألفح» الشنطة على رقبتى حتى أنها «اتلوحت» وسعيد يجلس فوق سور وزارة الزراعة ولا نأخذ سوى المشوار الذى يشبه شغل أم قويق ـ تقول أمى، وتقول أيضًا: ياما جاب الغراب لامه، حتى سامبو هذا لم يعد يأتى، وكان من الطبيعى طبعًا أن أرمى لشريكى شنطته التى مزقت رقبتى فى الشارع وكنا ذاهبان للعمل فى يوم لا ينفع إلا للنوم ولعب البلى، فرجع هو أيضًا، فوجئنا بالولد سامبو فى شارعنا، فرح سعيد به ولكنى لم أفرح، وبان الغدر فى عينى وعينه، ونظر إلىّ من تحت لتحت بنصف عين، فنظرت إليه مثل ذلك ويزيد، الشهادة لله خفت.. سامبو مثل فحل الجاموس السائب، وأنا لا أجىء قدر ركبته، لم نفسك يا ولد يا جمال لو خبطك كف تموت فيها، ويده ما شاء الله مثل «المرزبة» المهم طلعت بيتنا وكأنى لم أره قالت أمى: أجازة النهاردة وللا إيه. وعوجت فمها جهة اليمين قليلاً ثم تركته معوجًا إلى اليسار وهزت رأسها للناحيتين. أجازة على طول ياختى. قلتها وخرجت وليس فى نيتى شىء، نزلت الشارع ناديت على العيال فتجمعوا، قلت: نلعب كلوا باميه ـ مد العيال أيديهم وفردوا أصابعهم وزعقت بالحس العُالى: كلوا باميه. حين تكلم الولد سامبو: أقول لكم على لعبة أحسن. أنزلت العيال أيديها ووقفت واضعًا ذراعاى فى وسطى فاتحًا رجلى فى تحد ظاهر للعيال فتجمعوا، ورأيته ينظر إلى «بكُهن» فنظرت إليه أنا أيضًا «بكهن» فهو ليس أجدع منى ابن البرابرة هذا نلعب جينيتروى. قالها وسكت، نظرت إليه العيال وقد تعجبوا من ذكر ذلك، لعبة سهلة، قال سامبو: تقول فى نفس واحد جينيتروى أو نلف أذرعنا مثل الساقية ويقلب كل واحد كفه، هى نفسها كلوا باميه ولكن على احسن. قلت: أنا مش لاعب اللعبة دى، مين يلعب معايا كلوا باميه.

هتف العيال: نلعب كلنا جينيتروى.

t.me/qurssan

التف العيال حول الولد سامبو، وقفت وحدى وأنا ملآن بالغيظ نلعب جينيتروى، ياولاد الكلب، وكلوا باميه عليها كخ دلوقت، طيب لما نشوف، نسى الولد سامبو نفسه فى اللعب حين شتمته بكذا أهله وناسه من غيظى والله، ولم ينتبه إلا حين قذفته بحجر فأصابه فى مشط رجله وكانت النتيجة أنه جرى خلفى ومد رجله أمامى فوقعت على وجهى ولطشنى على عينى فانتفخت فى وقتها وساعتها ولم أعد أرى بها، وعيال حارتنا يتفرجون علينا ولم يفكر أحد فى أن يحوشه عنى ويرفعه من فوقى ـ الخونة ـ وكانت هذه هى بداية معركتى الحقيقية مع البرابرة كلهم.

أما ما كان من عيال حارتنا، فإنهم صاروا يلعبون مع سامبو كل يوم لعبة جينيتروى، وصرت أنا لا ألعب معهم، وفى نفس الوقت أدبر خطة أنتصر بها على عدوى ويكون هلاك سامبو والبرابرة على يدى بعون الله، وبينما هم ذات يوم يلعبون إذ أحس العيال أن الولد سامبو يعاملهم معاملة الكلاب، وصار هو المتحكم فيهم، وأول من أحس ذلك كان سعيد فرجانى فتشاجر معه ولم يعد يلاعبه وقد انضم إلى جانبه، وأصبح يلاعبنى وألاعبه، وقد أخذت شلتنا تزيد وتتسع، وشلة الولد سامبو تضيق وصرنا ندبر الخطط لهلاكه، فحارتنا لم تعد حارتنا على يديه وأيدى الزناجره ناسه. فقد جاءوا هم أيضًا للعب معه فى حارتنا، والعجيب أنه طرد كل من كانوا يلعبون معه منا، وأصبح معروفًا أن شلة الزناجرة وصلت، وأنها سوف تلعب الآن جينيتروى، وأن علينا أن نقف بعيدًا نتفرج أو نتلم فى بيوتنا بدلاً من «البهدلة» والفضائح والجرسة التى أقسم عليها سامبو ذات يوم حين قال لنا: وأيمان المسلمين إذا كل واحد ماحطش لسانه فى بقه لأجرسه فى بولاق الدكرور كلها وأفرج عليه أمة ما خلق. من يومها ونحن نخاف الجرسة إلى أن جاء اليوم الذى ننتظره، وبينما نحن نتفرج عليهم وهم

t.me/qurssan

يلعبون، وكنا نحن شلة كبيرة وهم قلة، إذ قلت يجب أن نلعب «كلوا باميه» وأن هذا لابد منه الآن، وقلت أيضًا على الخائف أن يبتعد. وكنت أعلم أن المعركة على وشك. ولكن لم أعد خائفًا، وقد تركنا العيال وجروا لما أحسوا بالخطر ولم يبق معى سوى سعيد شريكى القديم، اقتربنا من الأعداء جدًا وكانوا شلة كبيرة، فردت يدى وفرد سعيد يده وكانت ترتعش وقلنا فى نفس واحد: كولوا باميه. قلتها وصمت، وارتفعت يدى إلى عينى وصرخت، فقد فاجأتنى طوبه جعلت الدنيا ظلامًا فى ظلام وما عدت أرى حتى سعيد الذى يجرى له ما لا يسر عدو ولا حبيب ـ وسعيد هذا سوف يكون هلاك سامبو والزناجرة على يديه بالقدرة قبل أن يموت منتحرًا ـ وهذا كلام إذا وصلنا إليه نحكى عنه، أرجع إلى السياق فإننى بعد أن فاجأتنى الطوبه فى عينى ولم أعد أرى شيئًا ولا أنا دار بما حولى ودارت الدنيا بى ولم أعرف السما من الأرض ومن شدة الوجع لطمت على وجهى لطمتين وصرخت عينى راحت يا ولاد الكلب ـ وسارت بى رجلاى إلى البيت وأنا أجرهما جرًا، وعند دخولى البيت كنت أصرخ وأعيط وأشد شعر رأسى من شدة الغيظ، وأضع يدى اليمنى على عينى اليمين من شدة الوجع «والنقح»، بحثت عن طماطم فوجدت واحدة كانت أمى تخبئها للطبيخ، فتحتها وكبستها على عينى فشعرت بالراحة، ثم أننى جلست أحسب حساب مداخل ومخارج حارتنا وأدبر الخطط التى أقتل بها سامبو وعائلته كلها، وقلت: الصباح رباح، ويانا يانت يا بريرى يا أسود الكلب.

فى الصباح قمت من نومى على صوت العيال فى الحارة، غسلت وجهى وعينى كانت مقفولة ففتحتها بيدى ومسحت «العماص» من فوقها، نزلت إلى الحارة وفى جيب البيجامة وضعت موس حلاقة جديد، وجدت حارتنا تمتلىء بالبرابرة وسامبو يقف فى وسطهم، لمحت سعيد شريكى يتحدث مع سامبو حول رأسه لفة شاش كبيرة وذراعه اليمين مربوط فى رقبته أما

t.me/qurssan

عينه الشمال فكانت متورمة جدًا، وعيال حارتنا جميعًا يقفون حول سامبو، وكان هو يرتب العيال حين لمحنى فأخرج لى لسانه وبدأ يلعب حاجبيه من تحت لتحت، وكنت أجلس على عتبة بيتنا حين بدأ سامبو يجرى رافعًا رجله، والعيال تجرى وراءه، هو يغنى وهم يرددون عليه:

يا رجل البنطلون خشى واطلعى... تلاته فى البدرون يا صفرة فرقعى.

* * *

t.me/qurssan

سـر أبـى

تجمعنا نحن عيال حارة.. على أبو حمد المتفرعة من شارع همفرس ببولاق الدكرور فعملنا جيشًا كبيرًا يهزم الأعداء، وكانت الحرب فى بداياتها، كنا نسأل: هل انتصرنا؟ فلا يرد علينا أحد. والجميع يهتفون: هانحارب، إسرائيل الأرانب فنفرح لذلك ونصفق بأيدينا ونتجمع فى بدايات الليل جيشًا قويًا يهزم الأعداء، خلف البيوت كلها، ننادى بالصوت العالى طفى النور ياوليه.. احنا عساكر دورية.. طفى النور يا مراتى.. احنا عساكر ضباطى. فيطفئون النور، ويطلون زجاج النوافذ بالزهرة الزرقاء خوفًا من الأعداء. ويأخذ أخى فأسه فى يده ويذهب يقف على الكوبرى يحرس أول بولاق الدكرور.

سمعنا نداء أبى فتجمعنا والدنيا عتمة كحل، أخذنا نلتف حوله فى حجرتنا الضيقة، همس: أقول لكم سرًا فلا تفضحونى وإلا أعدمونى. بانت عيوننا فى الظلام وكانت تلمع، أمسكت بيد أخى الكبير خوفًا من السر، ركع أبى على ركبتيه، خبط بكف يده على أرض الحجرة مرتين: هنا دفنت السر من أربعين سنة وهذا أوان خروجه فالأعداء قادمون، ونحن نحتاجه الآن.. أشار لأمى فأزاحت حصير الأرض، أخذت تكوره حتى لمته كله، أخذ أبى فأس أخى التى يحرس بها أول بولاق، وضع إصبعه على فمه وقال: هس.

t.me/qurssan

فسكتنا جميعًا وسمعنا صوت أنفاسنا بحذر شديد أخذ يدق أرض حجرتنا بالفأس دقًا خفيفًا حتى تكسر الإسمنت، أشار لأخى هامسًا: احفر هنا بهدوء.. ركع أخى على ركبة ونصف ومد يده وأخذ يحفر بأصابعه، وأبى يتسمع خطوات الناس ويشير لأخى أن توقف ثم استمر حتى قال له كفى، كانت الحفرة عميقة فاقترب أخى منها وركع ومد يده، وقلت لأمى أنا خائف يا ختى، فقالت: هس. لم أهس وأمسكت يدها وبكيت، كانت يد أمى ترجف فسكت. أخرج أبى يده من الحفرة ولم نر شيئًا من شدة الظلام وقال ها هو السر الذى أخفيته عن العالمين أربعين سنة ويزيد. ولكنا لا نرى سرك يا أبى. أمر أمى بإشعال شمعة فرأينا فى يده خرقة ممزقة ملفوفة كذا لفة، أخذ يفكها بحذر شديد «خالص» ونحن ننظر إلى يده فى خوف، وقلت سوف يخرج من الخرقة ثعبان يسمى الشجاع الأقرع، أعرفه ويعرفنى، ورأيته ذات يوم يخرج من عصا الحاوى، فخفت أن يطلع فيلتهمنى وقفت وراء أمى. انتهى أبى من فك الخرقة وقال: السر أمامكم الآن فلابد من ظهوره مهما طال الزمان.. رأينا جرابًا كبيرًا من الحديد الصدئ، أخذ يسحب الجراب سحبًا بطيئًا حتى خلعه رفع يده فبان خنجر صغير، قال أبى: سرقته من عسكرى انجليزى أيام الاحتلال بعد أن قتلته، وظلوا يبحثون عنى وعنه إلى الآن، يحتاج إلى مسح ويرجع كما كان، أمسك الخرقة فى يد والخنجر فى يد، فى فرح شديد مسح مسحة واحدة، رأينا يد أبى مليئة بقطع الحديد الصغيرة الصدئة، أفرغ يده فى الخرقة ولفها «كذا» لفه، وضعها فى الحفرة، أشار لأخى فردمها، أشار لأمى ففردت حصير الأرض، وبينما نحن واقفين لا نتكلم، وبينما أمى تشوح بيديها وتعرج فمها مرة لليمين ومرة لليسار، إذ تكوم أبى فى ركن ووضع رأسه بين ركبتيه وبدأ يعيط.

* * *

t.me/qurssan

غرغرينا

لما دخلت عليه الحجرة حاملة «السَبَتْ» فوق رأسها، رآها فشهق وانفجر باكيًا، وحين وقع نظرها عليه نائمًا على جنبه اليمين فاردًا ذراعه الشمال أمامه غارقًا فى لفافاته ومتكئًا على المخدة التى خرج القطن من بعض ثقوبها، رمت «السبت» فوقع على الأرض مائلاً على جنبه فاندلق ما به، خبطت على صدرها صارخة: مالك يا ضنايا؟

رمت نفسها على الجسد النحيل الممدد بطول الكنبة ولمته فى حضنها ولطت ذراعه لطة خفيفة، صرخ متوجعًا ودفن رأسه بين صدرها وعنقها فأحست سخونة حارة ورطبة، مالك يا خويا؟ قالت وأزاحت حرف الغطاء وأفسحت لنفسها مكانًا وجلست تتحسس الجسد وتمسه بأطراف أصابعها، شعر رطوبة تجتاح جسده وتغرغرت عيناه بالدموع. إيه اللى عمل فيك كده؟ مسح عينيه بعد أن هدأ قليلاً وقال لها اعدلينى فعدلته بالراحة. أغيب عنك يومين فى البلد آجى الاقيك بالشكل ده، يا حزنك يا أمينة.

عاوده البكاء مرة أخرى وقال: العيال وقعونى من على الشجرة فى الجنينة، رحت يوم العيد أنا وصاحبى. قالت وهى تتلفت حولها: وايه اللى وداك بس، وفين أبوك واخواتك، وازاى يخرجوا كلهم ويسبوك كده. أمرته بتحريك ذراعه فلم يستطع، ورأت أصابعه تطل من خلال الرباط منتفخة

t.me/qurssan

ومحمرةً فقالت يا ضنايا يا بنى، ومين ده اللى ربطها لك كده. قال إنه جاء من الجنينة يصرخ من شدة الألم بعد وقوعه، وإنه جاء وحيدًا بعد أن تركه النعيال ومشوا، وحين رآه أبوه أمسك ذراعه قد تورمت فأخذه إلى قريبه فتوح العلاف الساكن فى الدقى القديم، دعكها بالزيت ووضع فوقها لبخة وربطها وقال لا أحد يفكها إلا بعد شهر.

ملّست على شعره وقالت: استحمل يا خويا لحد الصبح، يحلها ألف حلاّل. قامت واتجهت إلى الحجرة الأخرى فخلعت جلابية السفر القطيفة السوداء الموبرة وارتدت جلابية البيت الكستور المشجرة والمفتوقة عند الكتف وتحت الإبط. عادت وجلست أمامه على الحصير وعدلت السبت وأخذت تخرج منه بعض لفات الفطير المشلتت وتضعها على صينية بجانبها، قالت مبتسمة: جبت لك الرز المعمر اللى بتحبه، جدتك عملته لك مخصوص. قام نصف قومة ليشاهد طاجن الأرز وهى تخرجه فآلمه ذراعه، عاد إلى نومته مرة أخرى بينما أخرجت أرغفة المرحرح والبتاو وقطع الزبد وقالت: وجبت لك برطمان قشطة. دا بقى تعينه وتاكله وحدك، سلامتك يا حبيبى.

فى الصباح الباكر أيقظته من نومه، أفطرته وألبسته هدومه وخرجت به. فى المحطة سألت عن الأتوبيس الذاهب إلى المستشفى، قطعت تذكرة ووقفت فى طابور بينما أجلسته على جنب حتى اقتربت من الطبيب فأشارت إليه بالاقتراب. تناول الطبيب التذكرة وقال دون أن يحوّل نظره عما أمامه: مالك يا شاطر؟ لم ينتظر منه إجابة وأشار إلى الممرضة فأخذت تفك الرباط من على ذراعه وقد أمال كتفه ناحيتها حتى انتهت، ألقى نظرة على الذراع وهتف: مين الحمار اللى عمل فى ذراع الواد كده؟ حارت كتفيها ولم تدر بماذا ترد، وتعلقت أنظارها بالطبيب الذى أمسك الذراع من كف اليد وأخذ يفحصها بعناية وقد بان انتفاخها يوشك على

t.me/qurssan

الانفجار، واللحم المسود المتقيح مكان اللبخة برائحتها الحمضية النفاذة. قال مشيرًا إلى الأم وهو يهم بالانصراف: غرغرينا ياست، إمضى لنا على تعهد بسرعة عشان نلحق الواد. قالت الأم وقد أحست بخطر كلماته التى لم تفهم منها شيئًا. يعنى إيه يا بيه؟ قدامك حل من اتنين يانقطعها، يانسيبه يموت، وقررى بسرعة مفيش وقت. ياخرابى يابنى، صرخت بينما الطبيب يخرج من الحجرة، أخذت رأسها بين كفيها وجلست على الأرض تبكى، بينما هو دنا منها مائلاً بكتفه وجلس بجانبها وألقى برأسه على فخذها وقال: مالك يامه، بتعيطى ليه؟.

* * *

t.me/qurssan

التحويطة

جلس مرتديًا عباءته واضعًا أمامه مجمرة يتصاعد منها دخان البخور فيلف الحجرة بسحابة كثيفة من روائح الكندر والعود والسندروس، وأمامه مباشرة جلست الفتاة بجلبابها الأسود الموّشى عند الصدر وقد ظهر من فتحتيه طليعة تلين صغيرين ومدورين، تأمل الشيخ صدر الفتاة المنتصب أمامه وود لو استطاع إمساكه بكفيه، أو حتى مجرد ملامسته، وفاجأه إحساس كمن لامسه بالفعل، فقد سرت نعومة ما، وطراوة بضة فى أنامله، وشعر بسخونة بين فخذيه انتقل ببصره صاعدًا إلى وجهها المستدير ببشاشة، المشرب بحمرة الصبايا وطابع الحسن مثل البندقة أسفل ذقنها، تأمل عينيها السوداوين باتساعهما، وشعرها الأسود الطويل بخصلاته الناعمة والنائمة على كتفيها ووراء ظهرها وقد لمته من أعلى رأسها بقمطة من الحرير الأحمر الزاهى، خطوط الجسد المطبوعة على الجلباب، ورائحة الجسد الفتى الفواحة قوية مشبعة. انتبه لصوت نحنحة أمها بجانبها، وجارتها التى تجلس بعيدة عنهم، لعب بأصابعه فى لحيته الطويلة والتى تخفى بعض ملامحه ونظر إليهم محرقًا وقال بصوت أخفى انفعاله: حكوا لى من البداية على كل شىء. واتكأ بظهره على المسند الموضوع خلفه متخذًا هيئة المستمع بينما تململت الأم وتنحنحت وبدأت تحدثه: صلى على من يشفع فيك يا مولانا، أشارت إلى الفتاة، هى ابنتى الوحيدة،

t.me/qurssan

جاءت على أربعة صبيان، اسمها مريم، من يومها وهى منطوية شاردة، غريبة بين أقرانها، تفوقهن حسنًا وجمالاً كما ترى، ومع ذلك هن تزوجن، أنجبن وعمّرن بيوتًا إلا ابنتى، إذا تقدم إليها ابن الحلال تجدها نفرت، انطوت، ضاقت أخلاقها لا تطيق الحديث حتى معى أنا أمها، ابنتى طابت وطلبت الأكيل، إذا لم يحدث تذوى ويجف عودها، هذه هى الحكاية يا مولانا من طقطق للسلام عليكم وقد شكرت فيك جارتى الست أم نبيل زبونتك القديمة. اعتدلت أم نبيل فى جلستها لحظة سماعها اسمها ونظرت إلى الشيخ الذى لم يلتفت إليها، بل نظر إلى الفتاة وسألها: وأنت يا ابنتى لماذا لا تريدين الزواج؟ ولما لم يجد إجابة على سؤاله سوى هز الكتفين أكمل: عمومًا اطمئنا، إن كان معمولاً لها عمل فسوف أفكه وأبطل مفعوله بإذن المولى، وإن كان مسها عارض من الجن فأصرفه بعون الله، فقط اتركا لى اسمها واسم أمها وأثرًا من هدومها تكون لبسته وعرقت فيه ومرا علىّ غدًا.

فى اليوم التالى جاءت الفتاة بصحبة أمها وجارتها التى جلست بعيدًا، كان الشيخ جالسًا كعادته، وبين يديه المجمرة يتصاعد منها البخور، تابع بنظراته الفتاة وهى تتجه إليه، كانت ترتدى جونلة سماوية أبانت ساقيها المدورتين الممتلئتين، وبلوزة حريرية ضيقة التصقت بجسدها فظهرت تفاصيله الأنثوية، جلست بين يديه وبدأ الشيخ يباشر صنعته، قذف بعض البخور فتصاعدت رائحة كريهة من الميعه والصبر والافتيمون، ثم أنه سرح قليلاً وبدأ يتمتم: يحسدونك على جمالك وهذا حقهم، والمسألة عويصة لكنها تُحلّ على يدى، نظر إلى الأم: العمل على قرموط سمك حى والقرموط سارح فى النيل من هنا حتى أسوان، وسوف أرسل الآن الأعوان فى طلبه فيحضر فى التو واللحظة.

t.me/qurssan

قام الشيخ وأحضر صينية كبيرة ملأها بالماء، وضع يده فى الماء وقال: يا حجر يا حجنجر، ياللى فى البحر تتقر، تبيض وتفقس، ولا حد ينضر، تعالى، الوحا الوحا، العجل العجل، وبينما هم كذلك، وإذا بجلبة، ورأوا قرموط السمك طائرًا فى الهواء، ورأوه يقفز فى الصينية، وسمعوا طرطشة الماء، وزعق الشيخ: الوحا الوحا، العجل العجل، المطلوب وصل، انصرفوا سلام بحق قدرة كن فيكون. كانت الأنفاس لاهثة والعيون مبحلقة وهى ترى ما يحدث أمامها، انكمشت الأم ولمت ابنتها بين ذراعيها، بينما جرت الجارة إلى الشيخ تساعده، مد الشيخ يده وقبض على قرموط السمك وهو يتلوى محاولاً الإفلات من القبضة الملتفة حول رأسه، أشار إلى الفتاة فتقدمت وحدها، وأشار إلى سكين ملقاة على الأرض فأخذتها بين أصابعها، مدد القرموط على الأرض ووضع قدمه فوق ذيله بينما أمسك رأسه ورقبته بقبضتيه وقال لها: هيا اذبحيه بسرعة.

حيث أتمت فصل الرأس انفجر سرسوب من الدم الأحمر القانى فى وجهها، أمسك الشيخ بيدها وغمسها فى بركة الدماء المتكونة وأمرها بلعق أصابعها، ثم بدأ فى سلخ جلد القرموط حتى فصله عن الجسد فكومه وعباه فى كيس قماش ووضع معه ورقه مطوية عدة طيات وخاطه وناوله للفتاة عملك انفكّ، وهذا حجاب المحبة والقبول، والآن اخلعى هدومك التحتانية. نظرت الفتاة إلى أمها بكسوف فقالت: اخلعى ياضناى، الشيخ مثل والدك، خلعت الفتاة الجونلة ووقفت بسروالها الداخلى، وظهر ملمومًا على أحد جانبى فخذيها، ورأى الشيخ شعر عانتها، ورأى ثقبها الأرجوانى فبلع ريقه الناشف، أمسك الحجاب بيد مرتعشة وشبكه فى طرف السروال بدبوس، ولمست يده ما بين الفخذين بحركة بدت بغير قصد وأحس سخونة الجسد، وشعر برعدة، انتبه للعيون المسلطة عليه، أشار لها أن ترتدى

t.me/qurssan

هدومها وقال وهو يضع بعض البخور منشغلاً بالدخان الكثيف المتصاعد بينما هو يلتقط أنفاسه: بالسلامة ولا تنسى الحلاوة إذا ربنا عدلهالك، ثم قال للأم: اسمعى سوف أخدمك خدمة لا أفعلها لأحد، أرسلى لى ابنتك غدًا بمفردها فسوف أعمل لها تحويطة تقيها شر حسادها، هذه التحويطة مهمة لإكمال الشغل، وسوف أعملها دون مقابل.

مالت الأم على يد الشيخ قبلتها، وقالت وهى تهم بالانصراف: ربنا يفتح عليك يا شيخ ويزيدك من نعيمه، ودست يدها فى صدرها أخرجت لفة نقود وضعتها أمامه على الأرض ومشت ناحية الباب هى وابنتها وجارتها، وقالت قبل أن تغلق الباب وراءها: سوف أرسلها لك من النجمة، افعل بها ما بدالك.

وابتسم الشيخ، وتراقصت شياطينه على شفتيه وهو يتأمل الجسد الفارع الرجراج يغيب عن عينيه.

* * *

t.me/qurssan

الحيل

كان راجعًا من عمله وقت الظهيرة حين دهمه الكلب، هل فوجئ بما حدث؟ نعم، فقد كان بحكم عاداته اليومية يمر عليه صباحًا ومساءً فيجده جالسًا رابضًا بشكله المهيب أمام بيت الجيران، سنون طويلة مرت على جلوسه هكذًا منذ أن جاء إلى الحارة جروًا صغيرًا يتمسح بأرجل المارة فيعاملونه بحنو كطفل من حقه الحصول على بعض التدليل حتى يبلغ ويكبر، مَنْ الذى أتى به؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يدرى، بل يعتقد البعض أنه ولد فى الحارة من أم وأب كانا يعيشان فيها، فى هذا البيت تحديدًا، وأن هذا الكلب هو نتاج حادثة شهيرة يعرفها الكبار وكانوا وقتها صغارًا، فقد رأوا الأم تعوى وتنبح، وحين ذهبوا إليها وتجمعوا حولها لمعرفة السبب شاهدوا الأم تخرج من المنزل وقد التصقت مؤخرتها بمؤخرة أحد الكلاب الغريبة عن الحارة، بينما الكلب الآخر ـ زوجها ـ يعض ويخمش بأظافره كلاهما، كانت جُرْسَة وقف الجميع يتفرجون عليها بسعادة غامرة، والكلبة «القامطة» على الكلب تجاهد فى التخلص منه حتى نجحت أخيرًا فصفق الجمع وهللوا بينما انسحب الكلب الزوج خارجًا من الحارة ولم يره أحد بعدها.

.. نما الكلب وكبر وأصبح شكله مهيبًا، وألفه الجميع ولم يكن ينبح إلا على وافد غريب، أما هذه المرة فحين رآه وقف فجأة، ولما اقترب منه

t.me/qurssan

كعادته قطع عليه الطريق متحفزًا، ودون أن يمهله قفز قفزة واحدة ناحية ساقه اليسرى وأمسك بها، دهمته المفاجأة، ولم يبد أية حركة وفى ظنه أنها مداعبة ثقيلة، لكنه أطبق بفكيه على الساق التى حاول شدها فتمزق البنطلون وأفلتت الساق للحظة لكن الأنياب سرعان ما أطبقت مرة أخرى وانغرست فى اللحم بينما كانت زمجرة الكلب المكتومة تتحول إلى زئير، وعيناه تبرقان باحمرار مخيف، وشعر بألم وسخونة يجتاحان جسده فصرخ وشد بقوة فتحررت ساقه، ركع على الأرض يتحسسها وامتلأت أصابعه بالدماء، نظر إلى الكلب فوجده يتحفز مرة أخرى للوثوب فالتقط حجرًا أشهره فى يده وأخذ يتراجع بظهره فى بطء بينما عيناه مثبتتان على الكلب الذى كان يتراجع هو أيضًا حتى دخلا كلٌ إلى مسكنه.

.. حين شمّر مزق البنطلون عن ساقه كانت غارقة بالدماء، وحين رأت زوجته ذلك صرخت وخبطت بكف يدها على صدرها وجرت أحضرت ماءً غسلت به الجرح فظهرت صورة واضحة لأنياب الفكين العلوى والسفلى محفورة فى بطن الساق حُفرًا غائرة عميقة، أحضر قطنًا وشاشًا وقامت بتطهير الجرح وربطه، لم يؤلمه الجرح اول الأمر، لكنه فى المساء اجتاحته سخونة مصحوبة بألم لا يطاق وتكون «حيل» على هيئة «بلحة» أعلى فخذه ظهر واضحًا جليًا ولم يعد يقوى على السير، فى هذه الليلة لم ينم، وعند الفجر انسلت زوجته من جانبه واتجهت إلى منزل الجيران، الناس مازالوا نائمين، لكنها سوف توقظهم، فللضرورة أحكامها، والرجل سوف يروح منها، ولابد لها من الحصول على بعض الشعر من الكلب، هكذا يفعلون من قديم الأزل، هى وصفة مجربة، لم تخب قط، ولابد أن يتم ذلك فى الفجر قبل أن تطلع شمس اليوم الأول على العض وإلا فلا فائدة.

.. كانت البوابة الحديدية مغلقة بالجنزير والقفل، وفى الضوء الواهى رأته رابضًا فى حوش المنزل واضعًا رأسه بين ساقيه الأماميتين فاردًا

t.me/qurssan

جسده الفارغ، لم يكن نائمًا، فقد شعر بوجودها فرفع رأسه تجاهها، رأت عينين حمراوين تلمعان، ورأت لسانه يتدلى من بين فكيه، ولمحت لعابه يسيل على جانبى فمه، وسمعت لهاثه، رنت جرس الباب فخرجت بعد مدة صاحبة البيت: خير ياختى كفا الله الشر! فتحت الباب وأدخلتها، لمحتها تنظر إلى الكلب فقالت: لا تخافى منه فهو لا يعض، تعجبت وقصت عليها ما حدث، هزت صاحبة البيت رأسها فى دهشة وعقَّبت قائلة إنها المرة الأولى، وعلى كل حال فهو ليس مسعورًا، ثم أحضرت مقصًا وركعت أمام الكلب وجزت قطعة كبيرة من شعره دون أن يلتفت إليها أو يتحرك. ها هى أخيرًا حصلت على حفنة الشعر فلتكمل الباقى سريعًا، وضعت بعض الزيت على النار حتى انقدح، رمت فيه حفنة الشعر فسمعت طشة وشمت رائحة دهن حيوانى، تركت المزيج حتى برد وصبته فى خرقة وضعتها على الساق، قالت: بالشفا، وصفة مجربة.

غفا قليلاً فاطمأنت، حلم إنه أكل ولده وزوجته فقام مفزوعًا يبحث عنهما، أحضرت زوجته كوب ماء وناولته له، صرخ ابعدى الماء عنى، ابتعدى. نظرت إليه فى دهشة فرأت عينيه حمراوين، وفكه السفلى وقد تدلى وبرز لسانه، أما لهاثه فقد أصبح صوته مسموعًا الآن، تحسست جبينه فوجدته ملتهبًا. حاولت عمل كمادات من الماء البارد،

لكن حالة الذعر التى اجتاحته حين رأى الماء حالت دون ذلك، كان ينكمش فى بعضه وينظر إليها فى توسل لتبتعد عنه، أرجعت ذلك للحمى التى تملكت جسده.

فى المساء خلعت عنه كل هدومه، مسحت جسده بالخل والليمون، كشفت عن الجرح فشمت رائحة كريهة وقد مال إلى السواد مكونًا ماء مُصفرًا له رائحة لا تطاق، ربطت الجرح مرة أخرى، فى نومها سمعت سعاله، كان يشبه عواء كلب صغير، ورأت لسانه يتدلى من بين فكيه

t.me/qurssan

وسمعت صوت لهاثه فلم تصدَّق، كان يزوم بينما لعابه يسيل على جانب الفم المفتوح، وبدت ملامح الوجه أكثر غرابة، لكن الشيء المؤكد أنها رأت تلك الملامح قبل الآن. فتح عينيه فوجدها تنظر إليه فسألها عن ولده، نادته فجاء جاريًا ومحاولاً اللعب معه كعادته لكنه لم يستجيب، فقط ضمه إلى حضنه وأخذ يلعق وجهه، لحظتها، تذكرت متى وأين رأت هذا الوجه من قبل، هو نفس الوجه الرابض فى حوش الجيران، خافت ومدّت يدها وأخذت الولد من بين ذراعيه، نظر إليها بعينيه الحمراوين وخرج صوته مزمجرًا، وخيل إليها أنها سمعت نباحًا، جرت إلى الحجرة الأخرى وأغلقتها بينما صوت عوائه لم ينقطع طوال الليل.

فى الصباح قامت وفتحت الباب بهدوء وتسحبت داخل الشقة، بحثت عنه فلم تجده، نظرت من الشرفة فلمحته أمام منزل الجيران، كان رابضًا على الأرض قادرًا يديه وقدميه، ورأت الكلب رابضًا أمامه أيضًا، كان كلاهما ينظر على عين الآخر وينبح بشدة، وكان كلاهما مستعدًا للانقضاض على الآخر، بينما عواؤهما يعلو ويعلو.

* * *

t.me/qurssan

امـرأة

كنت أحدق مستغرقًا فى الصور المعلقة على الحائط المواجه والتى لم تتغير منذ وطئت قدماى هذا المكان، حين فوجئت بها أمامى.

لحظتها، انكسرت أشعة الضوء الواهية وشعرت بعتمة مفاجئة فانتبهت، كانت واقفة أمامى بجسدها الأسمر الفارع الممتلئ دون ترهل، على وجهها بدت تكشيرة خفيفة تتخللها ابتسامة عابثة، وبدا الجسد فى حالة اندفاع توقف فجأة، كانت بشاير السالم بشحمها ولحمها تقف أمامى فى حالة تأهب، هل كان تأهبًا للعناق: مدت يدها فى تراخ حذر، مصطنع، قالت فى لوم: طبعًا نسيتنى.

التقت أصابعى بأصابعها فى عناق حار، كثيف، بينما اهتزت الذراعان فى حركة رتيبة، موقعة عدة مرات. كيفك. قالت ومسحت بعينيها المكان فأشرت لها بالجلوس فجلست. ياه، تغيرت كثيرًا يا بشاير.

نظرت إليها بينما هى أطرقت وأخذت تعبث بيد حقيبتها فى حركة بدت عصبية، وأنت أيضًا تغيرت كثيرًا، بدأ الشيب يغزوك، هل تعرف إنك أصبحت أكثر وسامة، وشعرك الأبيض عامل «كونتراست» يجنن مع شنبك الاسود. كأنك تغازلينني.. قلت ضاحكًا. فأخذت تضحك هى أيضًا ومالت برأسها وجذعها إلى الوراء قليلاً: كنت فعلتها من عشر سنين هى

t.me/qurssan

عمر صداقتنا وقبل زواجك، كيفها زوجتك وابنك؟ قلت: بخير، كيف علمت؟

تلفتت تتأمل الصور واللوحات المعلقة على الجدران ووجوه الناس الذين يمتلئ بهم المكان فى تمهل من يستعيد ذكرى مرت، ثم أنها سألتنى فجأة: هل رأيت ابراهيم؟ كنت بالفعل قد رأيته جالسًا على المقهى يشيش كعادته كلما رأيته، هززت رأسى نفيًا ووقفت أسلم على صديق مد لى يده بالتحية ثم جلست مرة أخرى، هذا الولد سوف يقتل نفسه بالشيشة الهباب هذه. قالت بانفعال وصوتها العالى سمعه الجميع فالتفتوا ناحيتنا، أحست بخجل مفاجئ فأطرقت صامتة بعض الوقت، وأخذت أنا أنصت لحديث كان يدور فى الجهة المواجهة لى بين صديقين أحدهما شاعر والآخر قصاص حول آخر فضائح الوسط حين انتبهت لوقوفها فجأة بينما تعلق حقيبتها فى كتفها: سأغادر هذا المكان الكئيب، أشعر باختناق، باى، قالت وخطت فى اتجاه الباب فى تردد أحسست به من حركة القدمين المرتبكتين، لكنها رجعت مرة ثانية وقالت: مرتبط بأحد الآن؟ هززت رأسى نفيًا فأكملت: قم نتمشى قليلاً، أسمع، أنا أدعوك للعشاء، هل توافق؟ هل انتظرت منى إجابة ما على سؤالها؟ وهل كان فى وسعى أن أرفض دعوتها؟ قمت وتبعتها إلى الخارج فاستقبلتنى نسمة هواء باردة أنعشتنى، كان الجو فى الداخل معبقًا برائحة السجاير وأجساد النساء، ومعارك وهمية لا تحدث إلا فى خيال البعض، كانت تتقدمنى خطوات تؤرجح حقيبتها فى يدها، وبدا توترها ظاهرًا فى حركة رجرجة جسدها، توقفت فجأة بعد عبورنا الممر الموصل إلى الشارع الرئيسى، واجهتنى، انحنت قليلاً فى حركة تمثيلية: شبيك لبيك يا مولاى، نذهب إلى أى مكان تريده، ألا تحلم بأن تكون شهريارًا بضع ساعات، حلم الرجل الشرقى، سأكون شهرزادك منذ الآن، فاطلب منى أى شىء، وكل شىء، وسوف تجدنى رهن إشارتك يا مولاى.

t.me/qurssan

لم أعلق، فقط اكتفيت بابتسامة باهتة، وشعرت بضيق مفاجىء لا أعرف مصدره، عبرنا الشارع الرئيسى فأصبحنا أمام مطعم أعرفه وتعرفه، قلت ما رأيك. وأشرت إلى المطعم، أومأت برأسها وتقدمتنى، بحثت بعينيها حتى عثرت على ركن غير مزدحم، جلسنا، شعرت براحة مفاجئة فتنهدت، كان المكان ممتلئًا بالسائحين من كل البلاد، ولم يكن هناك غريب عن المكان غيرى، لكنى شعرت براحة لا أعرف مصدرها، على الرغم من توترى كلما دخلت هذه الأماكن، ليست لنا، لا تنتمى إلى أولاد البلد الحقيقيين، تكونت فى عصر الانفتاح وأصبح لا يدخلها إلا الأغنياء، أما الفقراء، فلهم أماكن أخرى يعرفونها جيدًا، الديكور البسيط أضفى على المكان سحرًا خاصًا، ينتمى للألف ليلة وليلة، الزجاج الملون المعشق تنسال على جانبيه إضاءة خافتة من مشكاوات متناثرة هنا وهناك، المشربيات المشغولة بالأرابيسك تظهر من فتحاتها قلل فخارية ملونة، تقفيصات الحمام والعصافير المعلقة فى وسط القاعة، اختلاط هديل الحمام بزقزقة العصافير، صوت مياه رقراقة آت من بعيد، غير مرئى، نساء جميلات شبه عاريات فى الزوايا والأركان، قلت: الآن قد اكتمل المشهد، هؤلاء النسوة هن جوارى شهريار، لكل جارية منهن مذاقها الخاص، كان حضورهن الأنثوى طاغ، يملأ المكان برائحة الجسد الخالصة، انشغلت بهن حتى أننى نسيت تلك التى تجلس فى مواجهتى، هى التى جاءت على غير موعد، دون ترتيب مسبق، من الذى يملك حق التمتع بكل هؤلاء؟ من؟ انتبهت على صوتها، كأنى أستيقظ توًا، مسحت على وجهى بكف يدى. أشارت إلى ورائى فالتفت، واجهتنى امرأة تجلس وحيدة تتأمل فيما حولها، وحينما أحست بأن ثمة من يرقبها، تنبهت ونظرت إلينا ولوحت بأصابعها مبتسمة، رددنا تحيتها بإيماءة خفيفة، كانت بشرتها بيضاء نقية مشربة بحمرة طبيعية، وجهها المنمنم له ملامح أنثوية أخاذة، شعرها المفتول ضفائر دقيقة الصنع ينسدل على وجهها

t.me/qurssan

وكتفيها بشراشيب تشبه المروحة، العينان الكحيلتان المشروطتان تغطيان ملامح فرعونية، كأنى بالملكة كليوباترا أمامى الآن. قامت وانصرفت بعينيها عن تأمل المرأة كمن نسيت فى لحظة ما كانت تتأمله. كيف حال إبراهيم، هل مازالت علاقتكما كما كانت، هل يكتب؟ كيفك انت؟ أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة التى توهجت بين أصابعى وابتلعته. ثم أننى أخذت أسربه بانتظام، وبهدوء بدأت أغلق أبوابى الخارجية بعد إحساس بالملل فجأة، عادتى كلما شعرت بملل ما أو رتابة، أهرب إلى نفسى، يتلاشى كل ما حولى فأحس سكينة، قابلتها منذ عشر سنوات على المقهى، تعرفت عليها بسهولة، كانت زيارتها الأولى للقاهرة. وكانت تتمنى أن تعرف كل الكتاب، قبيلتها كما كانت تسميهم، كنا وقتها صغارًا نبحث عن فرص للنشر والشهرة فى العاصمة التى يقصدها الكتاب من كل القرى والنجوع، وكان حظى أقل عناءً منهم، فأنا ابن العاصمة، لم أوضع فى اختبار اتخاذ قرار بالتخلى عن كل شىء للمجىء إليها، البحث عن موطئ قدم لغريب ترك كل شىء من أجل غزو القاهرة، الاعتراف بحق إمساك القلم، أرته وقتها قصتها الأولى التى انتهت من كتابتها قبل مجيئها للقاهرة، لم تكن قد نشرتها بعد وتمنت أن تكون بدايتها الأولى هنا، لا يذكر هل أعجبتنى القصة أم لا. لكنى أذكر روحها المرحة وضحكاتها المجلجلة، قالت إنها عشقت القاهرة من النظرة الأولى، وإنها لا تعرف كيف ستتركها لتعيش هناك، حيث كل شىء أشد اختلافًا من الليل والنهار. أرجعت هذا العشق لجذورها العائلية، فأمها مصرية صميمة، لكنها منذ أن ولدتها لم تأت إلى مصر، عاشت هناك وتطبعت بطباعهم، حتى لهجتها تغيرت، لكنها تذكر وهى صغيرة أنها جلست بين يديها بالساعات تحدثها باللهجة، تصف لها شوارع القاهرة، أزقتها وحواريها، أحلام الناس البسطاء، أحبتها من خلال حديثها، تمنت أن تزورها، تتعرف على مسقط رأس أمها، وحين كبرت، تمنت أن تلتقى بكتاب مصر الذين سمعت عنهم وقرأت لبعضهم، تعيش

t.me/qurssan

حياة الصعلكة معهم، تقضى نهارها فى المقاهى، أما الليل فلها وحدها، تعرفت على إبراهيم، وبدا أنهما مالا إلى بعضهما، أصبحا لا يفترقان، وكان هو يصطحبها معه فى كل الأماكن التى يذهب إليها، صارحها ذات يوم بمشاعره تجاهها، قال إنها تمثل بالنسبة له الأمانى، تشعره بمسئوليتها تجاهه، تحنو عليه فى بلد يشعر فيها بالغربة، وحدته القاسية بعد انصراف الرفاق من على المقهى، جلوسه وحيدًا لا يعرف كيف يقضى ليلته، تسأل عنه، تهتم بصحته وأكله وشربه ونومه، جاء إلى القاهرة قادمًا من الجنوب بعد موت الأب والأم، جاء لا يملك شيئًا سوى موهبته وكراهية عميقة تجاه أبناء الشمال البيض الذين يملكون كل شىء، أليسوا أبناء العاصمة، لم يكن يهتم بمظهره، وأصبحت حياته على المقاهى، عرف كل مقاهى القاهرة، التى تسهر حتى الصباح والتى تغلق أبوابها مبكرًا، عناوينه يعطيها على المقاهى، رسائله ترسل عليها، تليفوناته، كتاباته، عشقت هى حياته التى يحياها، تتمنى أن تشاركه صعلكته، عشقت حتى مظهره المضطرب، شعره المنكوش وهدومه المتسخة، لهجته الجنوبية، نطقه لحرف القاف والجيم المعطشة، انتبهت على صوت الجرسون الذى وضع أمامى قائمة طعام باللغة العربية، وضع مثلها أمامها بعد أن حمل قائمتين بالإنجليزية كانتا على الترابيزة، مؤكد لك زمن لم تأكل اللحم، هى فرصتك فاغتنمها. قالت وضحكت وأكملت: ومؤكد أنك تقول لأولادك كلما طالبوك بأكلة لحم إن غذاء الروح والعقل أهم.. قلت ضاحكًا: ليست المسألة بهذه القتامة، توجد بعض اللحظات المفرحة، لكنها لحظات ليس أكثر. دعنى أساعدك قالت ومالت نحوى تنظر إلى القائمة التى أحملها بيدى، اختارت لى لحم ضأنٍ مشويًا وسلاطة خضراء وأرز بالمفروم، بينما اكتفت بطبق مكرونة وسلاطة خضراء، قلت: هذه فرصة لأخرب بيتك وأصرف كل ما معك من أموال النفط، ضحكت، لكنها لم تضحك، سألتنى فجأة: هل تتوقع قدومه علينا الآن، قلت إنه لا يرتاد هذه الأماكن الفاخرة، أشعلت

t.me/qurssan

سيجارة وحاولت الاسترخاء منصتًا إلى ما حولى من أصوات متداخلة، لى زمن لم أجلس مثل هذه الجلسة، فأنا أعمل كثيرًا، حتى أيام الأجازة لا أعرف كيف أقضيها فأعمل، أحاول إنجاز ما يحتاج إلى عشرات السنين فى أيام قليلة لشعورى بدنو الأجل، سيف مسلط اسمه الموت يعيش فوق رقبتى، يلازمنى، حاولت الكتابة عنه لأهرب منه، فهل أفلحت فى الهروب؟ حين نظرت إلى ساعتى وجدتها تقترب من الواحدة، سألتنى إن كنت قد تأخرت فقلت إننى أستطيع الجلوس أطول فترة ممكنة معها، قالت إنها تحس بخروجها توًا من القمقم، وقالت إنها سوف تسهرنى حتى الصباح، وقالت إن زوجها بالفندق ويعرف بخروجها، أخبرته بعدم رجوعها إليه مرة ثانية، لم تعد تطيق رؤيته، تركها تخرج ولم يمنعها، لم يثر عليها، هو أيضًا يتركها فى الفندق وحيدة ويخرج، يسهر حتى الصباح ويرجع مخمورًا، جاءها مرة فجرًا يتطوح، كانت بصحبته امرأة، نسى أنها معه بنفس الحجرة، افتعلت النوم، رأتهما يتجردان من ملابسهما وينامان فى الفراش الآخر المقابل لها، كانا مخمورين فلم يشعرا بوجودها، رأت وسمعت كل شىء، عرفت لماذا يذهب الرجال إلى هؤلاء النسوة المحترفات، لحظة انتهائهما سمعتها تطالبه بالأجرة، ورأتها ترتدى ملابسها قطعة قطعة، لم تكن جميلة، بل كانت مترهلة عند ردفيها وصدرها على الرغم من صغر سنها، لكنها كانت تعرف كيف تفجر منابع اللذة عند الرجل، سمعته للمرة الأولى يئن بين ذراعيها فلم تصدق أن يصدر هذا الصوت عن رجل مثل زوجها، حين أفاق من نومه لم تخبره بما رأت وسمعت، اكتفت بأن أخبرته بخروجها، وأنها لن ترجع للفندق مرة ثانية، وكان هو قد فهم ما حدث فلم يعلق، بل أشاح بوجهه وتركها ودخل الحمام ولم يخرج حتى ارتدت هدومها ومشت. جاء الطعام فانشغلت به، وكانت هى تمر بلحظات كآبة بدت على وجهها الذى تغضن وبدأت تنتابها بعض التقلصات الخفيفة فى شفتها السفلى رغم محاولاتها فى إخفائها والسيطرة عليها. تصور، أحرق لى أربع

t.me/qurssan

روايات وثلاث مجموعات من القصص أمام عينى، هم كل رصيدى طوال حياتى، كنت أعدهم للنشر، قال إنه لم يتزوج أجاثا كريستى. ابتسمت فعلقت: أنا أيضًا ضحكت مثلك رغم الموقف من نطقه اسم أجاثا كريستى وقلت من أين عرف اسمها هذا الجاهل العصامى. مرة أخرى أخذت ألملم نفسى وأنسحب، هى المرة الأولى التى أجلس فى هذا المكان مع امرأة ليست زوجتى. لم نسهر أنا وهى منذ أن تزوجنا، انشغلنا بأشياء تافهة أنستنا أنفسنا، الصراع الدائم من أجل لقمة العيش، الطلبات التى لا تنتهى، العاطفة المشبوبة تراجعت أمام الروتين اليومى. انتبهت على صوتها الصارخ: تعالَ نعمل شيئًا جنونًا، ما رأيك؟

كانت تنظر فى تحفز المقدم على عمل خارق بالفعل. رأيى فى ماذا؟

هل تعرف مكانًا نقضى فيه الساعات الباقية من الليل. لم أعلق على كلامها الذى بدا لى جنونيًا بالفعل، فلم تكن حدود العلاقة التى بيننا تطرح هذا الشكل من التعامل. لكنى أحسست الأزمة التى تمر بها، والتى من الممكن أن تدفعها لعمل أى شىء. قلت إنها بالتأكيد مجنونة، فذكرتنى بجنونها القديم وأنها تريد أن ترجع كما كانت، فى غمرة خروجها المفاجئ سميت فى الفندق جواز سفرها، ممكن تحجز لى حجرة باسمك إلى الصباح. حدثتها عن زوجتى وقلت إننى لا أستطيع المبيت خارج المنزل ونظرت إلى ساعتى فكانت تقترب من الثالثة، لملمت هى أشياءها الموضوعة على الترابيزة، وضعتها فى حقيبة يدها وقامت فجأة: قم بنا نمشى. قالتها بعصبية وتقدمتنى إلى الخارج، كان هواء الليل منعشًا، وكان الشارع خاليًا من المارة. وفى الميدان كانت عربة جنود تقف وبدا جنود الشرطة وهم يحملون الرشاشات وكأنهم ذاهبون للحرب. أصبح هذا المنظر مألوفًا فى كل شوارع القاهرة، ولا أحد يعلم ما الذى يأتى به الغد. قمت وسألتها إلى أين تذهب الآن. قالت إنها لن تستطع الرجوع إلى الفندق

t.me/qurssan

الآن، سوف تظن بها الظنون، وقالت إنها تريد مكانًا به ناس، أى ناس، سرنا فى صمت لحظات، وكانت هى تنظر إلى قدميها وهما تخطوان بلا هدف، ثم إنها قفزت فجأة وفرقعت بأصابعها ودارت دورتين أمامى: اذهب بى إلى محطة مصر. قالت فتساءلتُ: وهل ستسافرين الآن: وإلى أين؟ سوف أجلس هناك حتى الصباح. ولم تكد تكمل كلامها حتى أشارت إلى عربة أجرة فتحت بابها ورمت نفسها بداخلها، محطة مصر يا أسطى. رميت نفسى بجانبها ونظرت هى إلىّ وضحكت فكورت أصابعى أمام جبهتى: مجنونة، نزلنا أمام المحطة واتجهنا إلى الكافيتريا التى كانت مغلقة، وشعرت بانقباض، لم أكن أحب هذا المكان، يذكّرنى دائمًا بالرحيل والموت. هنا لا أشعر بالوحدة أمام كل هؤلاء البشر وحركة القطارات، قالت واتجهت إلى أحد أرصفة القطارات واختارت مقعدًا خاليًا وجلست، وضعت ساقًا فوق أخرى وسألت: معك ورق وقلم، فتحت حقيبتى وأعطيتها ورقًا وقلمًا، وقلت ساخرًا: هل ستكتبين؟ هذا ما سوف أفعله فعلاً، اذهب الآن فلم أعد فى حاجة إليك. قالت ومدت يدها فمددت يدى، وكنت أبتعد حين نظرت ورائى مشيرًا إليها بيدى، لكنها لم تنتبه، كانت قد بدأت فى الكتابة.

* * *

t.me/qurssan

النضارة

مات أبو محمد بعد أن تجاوز عمره كل أعمار الخلق ولم يترك لمحمد من حطام الدنيا سوى نضارة هى كل ما كان يملكه.

وعاش محمد لا يملك شيئًا إلا إرث والده أبو محمد وهى النضارة التى كان اعتزازه بها بلا حدود، ففى بدء حياته الخاصة مع النضارة، كان فى كل يوم ومنذ مات الأب يخرجها من جرابها الأسود الجلدى، ويأخذ فى تقليبها بين يديه مدة ساعة متأملاً مرة فى الشنبر الأبنوسى المطعّم بالصدف الأبيض، ومرة فى العدستين البيضاويتين المصفرتين قليلاً ثم يهز رأسه مفرقعًا بشفتيه متأملاً الحكمة من بقاء النضارة كل هذه السنوات التى لا يعرفها إلا من عاشوها. فمن هو صاحب هذه النضارة الحقيقى؟ هل اشتراها؟ فى أى زمن صنُعت؟ وكم جيل توارثها؟ أسئلة كانت تلح على عقل محمد كلما لامست أصابعه النضارة، وكلما أعيته الحيلة فى معرفة الإجابات على تلك الأسئلة التى كان يخيل له أنها عميقة جدًا تحتاج إلى أحد الفلاسفة لفض أسرارها. يخرج منديلاً صنعه خصيصًا لها ويدنى العدستين من فمه، ويقوم بأخذ شهيق عميق يتركه يتجول برهة فى صدره ثم يطلقه محملاً ببخار جوفه الحار فيتكاثف على العدستين، وبالمنديل، وبأصابع باتت خبيرة مدربة، يقوم بالمسح حتى يطمئن تمامًا أنه لا توجد ذرة واحدة من غبار عالقة بالعدستين فيطلق تنهيدة راحة ويطوى ذراعى النضارة بحرص، ويضعها فى جرابها مرة أخرى، ويحملها بلمسات رقيقة

t.me/qurssan

من أصابعه إلى حيث مكانها اللائق بها والذى اختاره بعناية فائقة. هل فكر محمد أن يرتدى النضارة فى أحد أيام حياته اللاحقة على موت والده؟ فلماذا إذن كان يحرقه الشوق لارتدائها كلما رآها على عينى والده؟ وهو الذى لم يكن ليتيح له حتى لمسها.

فى نفس الحجرة التى شهدت مولد محمد من أبيه وأمه وحملت ذكريات طفولته وشبابه، حملت أيضًا ذكرى زواجه وإنجابه لابن وحيد أصر والده على تسميته «محمد» ليكون اسمه محمد بن محمد بن محمد إلى آخر سلسال لا ينتهى ولا ينقطع، وعاش محمد أبو أبو محمد ابن أبى محمد يربى ولده، وقد أظلته أحداث زمانه بغيوم كثيرة نسى فى غمرتها النضارة، وقد فكر للمرة الأولى فى حياته أنه قد آن الأوان لارتدائها بعد أن مضى من عمره أكثر مما هو آت.

هكذا بحث محمد عن النضارة فوجدها فى مكانها، وما أن وضعها على عينيه حتى شعر بدوار، فخلعها وقام بمسح زجاجها ووضعها مرة أخرى على عينيه، ورأى محمد فيما يرى اليقظان مدنًا ملونة لم يرها من قبل، وبشرًا ليسوا كما البشر، وحياة أخرى لم يكن يعرفها من قبل، وفطن لإجابات أسئلته العميقة التى حار فيها طوال حياته قبل ارتداء النضارة. وصام محمد عن الطعام والشراب ولم يعد يتحدث مع امرأته وابنه الوحيد محمد، بل كان يتحدث إلى نفسه حوارًا طويلاً لا ينتهى، وأصبح أمره لا يطاق، هكذا قالت له زوجته أم محمد، وأنه يفعل كما فعل أبوه من قبل الذى ظل مرتديًا نضارته حتى عدم حياته، فما ذنبى وذنب ابنك الصغير محمد؟

تساءلت أم محمد وهى تضرب كفًا بكف وتتحسر على حياتها معه، لكن محمدًا أبو محمد ظل مرتديًا نضارة والده صائمًا عن كل شىء حتى ذبل عوده ومات دون أن يترك لمحمد الصغير سوى النضارة.

* * *

t.me/qurssan

الجنى

كنت أجلس واضعًا ساقًا فوق أخرى، وأمامى، وضعت علبة السجائر والولاعة، وكان طفلى الذى لم يكمل بعد شهره الخامس، يجلس فى مواجهتى على الكنبة بعد أن وضعت حوله مساند تجعل وضعه مستقرًا، كان ينظر إلىّ ويضحك ضحكة مبهمة، ماكرة، وكثيرًا ما كنت أسأل نفسى كيف لطفل ابن خمسة شهور أن يكون ماكرًا وذا دهاء. هذا بالضبط ما كانت تنبئ به عيناه بالتماعهما الغريب كلما نظرت إليه، المهم، أخذت علبة سجائرى وسحبت منها واحدة أشعلتها ووضعت العلبة مكانها، وهممت بأخذ النفس الأول حين مد طفلى يده حيث توجد علبة السجائر دون أن يتحرك من مكانه، فقط مد يده إلى الترابيزة التى تبعد عنه مسافة كبيرة، نكنى بعينى هاتين رأيت ذراعه تستطيل، ورأيته يقبض بكفه على العلبة والولاعة دفعة واحدة، وبأصابع مدربة، أخرج واحدة وضعها بين شفتيه وأشعلها، ثم إنه نظر إلىّ من تحت لتحت نظرة متحدية، وأخذ نفسًا واحدًا طويلاً متواصلاً توهجت على أثره السيجارة وأخذت تخرج شررًا وهى تطقطق قبل أن تتحول إلى رماد، نظرت إليه مذهولاً وقد فتحت فمى من شدة دهشتى دون أن أنطق، وفى اللحظة التالية أطلق نفسه فخرج من فتحتى أنفه وفمه دخانًا كثيفًا أخذ يتلوى كثعبان فى سماء الحجرة ، بتلعنى داخله، وشعرت باختناق وسمعت ضحكة مجلجلة أعقبها صهيل

t.me/qurssan

خيل وعواء ذئب ومواء قط يحتضر ونهيق حمار أجبر على التفكير، وتداخلت الأصوات حتى خرجت صوتًا واحدًا ممتزجًا بكل الأصوات، كان الصوت آتيًا من ناحيته فنظرت إليه، وحين رآنى أنظر إليه أخرج لى لسانه ونتره فى الهواء فأحدث فرقعة بوميض، وبدأ لسانه يلتف حول رقبتى، اخذت أسعل وبدأ هو يضغط بشدة على رقبتى فتدلى لسانى وجحظت عيناى وكدت أفارق، لولا أننى تشبثت بآخر ما تبقى لى من نفس، أمسكت باللسان الملتف حول رقبتى بيد لأخفف قليلاً من ضغطه، وباليد الأخرى شددت الجزء الملتصق بفمه شدة رجل ميت، وكم كانت دهشتى حين انخلع فى يدى رخوًا طريًا، وبدأ اللسان الحلزونى ينكمش ويتضاءل حتى عاد إلى وضعه الطبيعى، لسان طفل لم يتجاوز شهوره الخمس بعد ورأيته يبكى، وعيناه أخذتا تنظران إلى يتوسل بينما ملامحه أخذت تتشكل بصورته كما أعرفها، اقتربت منه ببطء وحذر، لسانه فى كفى، مؤخرته تقطر دمًا، بينما الفم الصغير المفتوح الغارق فى دمائه يتقلص ألمًا، مددت يدى باللسان وأنا أضبطه، جعلت قاعدته فى داخل الحلق، أما طرفه المدبب فقد ثبتّه بين سقفى الحلق جيدًا، ولما انتهيت جلست فى مواجهته لاهثًا من الإجهاد، هدأت قليلاً، ثم أننى أشعلت سيجارة، وبينما آخذ نفسًا وأتأمل ملامحه، نظر إلى وابتسم وقال لى: إغ وذراعاه الصغيران تدعوان لحمله، وفى لحظة، كان غائبًا فى حضنى لكن ما حدث بعد ذلك كان أعجب، كان الوقت مساء الخميس، وكان التليفزيون يعرض فى فيلم السهرة «بين الأطلال» وهذا الفيلم تحديدًا أحفظه، ولكنى جلست أتابع باهتمام المؤلف الشهير الجالس على الشاطئ يكتب روايته الجديدة، بينما فتيات الشاطئ الجميلات يتحلقن من بعيد يتفرجن عليه ويتأملن انهماكه فى التأليف وكل منهن تتمنى نظرة منه، وهو غير ملق بالاً لكل من حوله. كنت أحب هذه اللقطة، فقد شكلت فى خيالى حكايات ومغامرات عن عالم الكتابة والكتاب، وكم تمنت أن أكون مؤلفًا مشهورًا لأجل هذه اللقطة، فقد تتكرر

t.me/qurssan

معى وأجد نفسى محاطًا بكل هذا الجمال الارستقراطى الرفيع، يبيبه، ما علينا، المهم أننى غمزت لزوجتى بطرف عينى وأشرت إلى الولد الذى أخذ يتسحب هنا وهناك محدثًا جلبة، وهمست لها: حاولى أن تنيميه، فما كان منها إلا أن حملته وضمته إلى صدرها وهى تهدهده وتغنى له، وظلت على هذه الحال مدة ساعة كاملة انتهى خلالها الفيلم العربى والإرسال التليفزيونى كله، فهل نام؟ كنت أظن ذلك حين لمحت إغماضة عينيه صوت تنفسه المنتظم فأشرت لها بأن تضعه فى السرير الوحيد الذى نملكه، فوضعته ووقفت تتزين أمام المرآة، ثم إنها اندست فى الفراش بجانبى، وكنت أهم بمداعبتها حين لمحته فى ظلام الحجرة، عيناه كانتا تنظران لى بينما بريقها أرعبنى، تسمرت ولم أتحرك فى مكانى، وظننت هى أن شيئًا قد حدث لى فقالت مالك. أشرت هامسًا انظرى، ولما نظرت ولمحت عيناه نفخت فى الهواء قائلة: ابنك خلفة قرود، شيطان فى صورة طفل، وبينما تحاول إنامته مرة أخرى، إذ به ينتصب جالسًا فجأة ويتخطى أمه ويندس بيننا. سحبت الغطاء. فوق رأسى معطيًا لهما ظهرى وأنا أنفخ من الغيظ، وعلى الفور بدأت أنصرف بذهنى إلى هناك، حيث النساء كلهن جميلات، وحيث كل شىء مباحًا بمجرد استدعائه وتخيله، وأخذت اجمع امرأة ليس كمثلها امرأة على ظهر الأرض، وقد اخترت من كل جميلات الدنيا أحسن ما فيهن وأجمل ما اشتهرت به، وكنت أهم بمداعبتها حين حدث الآتى: أظلمت شاشة ذهنى فجأة وتوقف كل تفكيرى، وسمعت صوتًا آتيًا من بعيد هامسًا وواضحًا: عيب يا بابا. كان صوته ولمحت عيناه تنظران نحوى بتحد وهما تلمعان وسط الظلام، بينما أمسك فى إحدى يديه مقص كبير يقطر دمًا، فى يده الأخرى لمحت قطعة من الأحبال الدقيقة ملتفة حول نفسها ملوثة بالدماء أشار إلى ما فى يده قائلاً: كل أحلامك فى يدى الآن، عيب يا بابا ما كنت تهم بفعله.

t.me/qurssan

قمت فزعًا أكاد أبكى من شدة الغيظ، تلفت أبحث عنه، كان نائمًا بجوارى يغط فى نومه، تعجبت وناديت على زوجتى، كانت هى أيضًا غارقة فى النوم، سحبت الغطاء وتأهبت للنوم مرة أخرى حين صحت هى فجأة وأخذت تتلفت حولها بينما صدرها يعلو ويهبط انفعالاً، بعد أن هدأت قليلاً قالت غريبة. قلت ما هو الغريب. حلمت حلمًا عجيبًا، قلت لأجعلها تكمل: اللهم اجعله خيرًا، أشارت إليه وقالت كنت أحلم حين انقطع الحلم فجأة وسمعت من يقول لى عيب يا ماما، كان صوته. لكنى لم أره وكنا ننام حين نظرنا إليه فلمحنا ابتسامة ماكرة تعلو وجهه النائم.

يمكن شرح العبارة الآن :

سأسميها اللعب مع الجنى، أمارسها أنا وهو. أكونه فى لحظات، ويكوننى فى أخرى، نتبادل أدوارنا ونلعبها سويًا: أنت أنا، وأنا أنت. من الجنى، أنا، يعنى أنت. أنا أنت وأنت أنا. من الجنى. أنت، يعنى أنا. أنت أنا، وأنا أنت، من الجنى؟!

* * *

t.me/qurssan

قـرن غـزال

t.me/qurssan

العشة

فى لحظة من لحظات كشوفاته الخاصة، والتى بدأت تنغص عليه حياته فى الآونة الأخيرة، خاصة، حين يوغل فى الميتافيزيقا فيطير من أمام زوجته مبحرًا نحو عوالم لا يمكن أن تراها أو تدرك كنهها. فقط تُشوِّح بكف يدها، وتمسح العرق عن جبينها قائلة: أف. تقولها طويلة ممطوطة وملحنة، ظل يسمعها فى هذا الفصل من السنة طوال خمسة عشر عامًا هى عمر زواجه منها، وبسماعه هذه الأف. تكون زوجته قد أعلنت عن بدء فصل صيفى جديد وساخن.

فى لحظة، كان قد توصل لحل عبقرى سوف يخلصهما وإلى الأبد من هذا الحر الجهنمى، هذا الحر الذى يجعله طوال تسعة شهور لا يطيق سماع صوتها أو الاقتراب منها، فقط يجلس أمامها عاريا إلا من سروال، وعلى ركبتيه يضع فوطة يقربها كل خمس دقائق من وجهه وصدره، ماسحًا عرقًا لزجًا له رائحة الشمس وذرات الغبار. كانا فى وقت الظهيرة يبدآن الطفو فى صهد الشمس ولا يخرجان من ذلك الجحيم إلا مع حلول الظلام، ساعتها، يزفران زفيرًا حارًا وصادقًا، وكأنهما يفرغان الهواء الساخن من جسديهما ليحل محله هواء الليل البارد المنعش. ومن بين صوت أزيز المروحة وتكتكاتها، قال فجأة وكمن رجع توًا من تهويماته:

t.me/qurssan

وجدتها. فنظرت إليه شذرًا بينما تمسح حبات عرق انزلقت إلى صدرها: فيه أيه؟

قال ومسح وجهه وصدره بالفوطة: تعرفى، لو عملنا عشة فوق السطوح نضرب عصفورين بحجر واحد: نحمى الشقة من أشعة الشمس صباحًا، هذه واحدة. ونقضى فيها فترة المساء والسهرة، وممكن ننام فيها أيضًا.

كانت الفكرة بسيطة للغاية، ورغم بساطتها لم يفكر فيها طوال سنوات الحر، وعلى الرغم من اعترافه دومًا بأن الأفكار العظيمة لا تأتيه صيفًا، إلا أن المعجزة حدثت وجاءت الفكرة بنت صيف واضحة وضوح شمس يوليه، حتى أن زوجته اكتفت بالحملقة فيه غير مصدقة أكثر من ثلاث دقائق، أطلقت آخرها زفرة حارة أعقبتها بـ آف ليست كالآفات السابقة، لكنه لم يستسلم لحالة الذهول التى انتابت زوجته، بل جاء بورقة وقلم وأخذ يحسب الأطوال والخامات المطلوبة والتكلفة بحماس أنساه الحر اللافح المحيط بعروقه وعظامه التى كادت تتحمص، بل حتى أنساه الفوطة على ركبتيه فأخذ العرق يتساقط على الورق ويمحو ما كان يخطه، إلا أنه واصل كفاحه مع الأفكار التى من كثرة تزاحمها أربكت مخيلته، من بين الخامات الكثيرة التى تصلح اختار أرخصها، سوف يختار مواسير الستائر، أربعة قوائم وعامود فى المنتصف وتثبت جميعها بالإسمنت والرمل فى المسلح، أما التعريش فالأنسب هو الحصير المعمول من البوص فيعطى ظلالاً ويسمح بمرور الهواء، وحين انتهى من حسابات دقيقة للأطوال وترجمة كل ذلك لأرقام مالية، أدرك أن التكلفة مناسبة، فارتدى هدومه وخرج بينما زوجته تعوج فمها يمينا وشمالا وتشيعه بـ أف خرجت من أنفها هذه المرة.

فى الطريق فكر فى فكرته فتعجب وضرب كفا بكف، له خمسة عشر عامًا لم تواته فكرة بهذا العمق رغم أنه لم يتغير شىء، فمازال يسكن فى

t.me/qurssan

الدور الأخير، ومازالت حرارة الشمس تصيبه أحيانا بالجنون، فيملأ البانيو بالماء البارد ويستلقى داخله فاردًا جسده، ومصرًا على أن تأتى له زوجته بالطعام فى الحمام، ومن خلال الميتافيزيقا يتخيل نفسه على الشاطىء فى الساحل الشمالى فيشعر بسعادة، لكنها سعادة مؤقتة على أية حال، أما هذه الفكرة فهى دائمة. انتهى من تجهيز لوازم العشة، وشرع من فوره فى التشييد، بعد أن حصل على إجازة لمدة أسبوع، قدر أن البناء سوف يستغرقه، وتقمصته روح مايكل أنجلو، واستدعى ما قراه عن سيد البناءين، وبروح ملهمة كان يثبت القواعد، ويملأ الفراغات ويقيم الأسقف، ونسى الشمس التى تلهب جسده بسياطها، ونسى زوجته، وغاب بأفكاره إلى ما وراء الأفكار والطبيعة، فتذكر مثلا أن يوم مولده كان علامة فارقة فى تاريخ أمه وأمته العربية من المحيط إلى الخليج، فبينما كانت أمه تصارع الطلق، وبينما هو يعلن عن ثورته على بطن أمه مستقبلا أول وجوده بصرخة سمعتها الأرض والسماء، كانت ثورة الثالث والعشرين من يوليه تعلن عن نفسها هى أيضا. لقد حاول مرارًا الخروج بدلالة ما تربط عن الثورتين: ثورة مولده، وثورة يوليه دون جدوى، لكن ها هو فى تلك اللحظة يتوصل إلى قيمة ما. لعله كان الملتزم الوحيد بمبادىء الثورة الستة ومطبقا بنودها على أسرته الصغيرة فى دقة وصرامة، وبينما يبنى ويشيد أكتشف أيضا إن الإنسان لابد له أن يموت، وأوجد خيطا بين لحظة الميلاد ولحظة الموت، واقترب أكثر من حقيقة الوجود الإنسانى، وكاد يلمس بيده فكرة الجنة والنار، والوجود والعدم، والعلاقة بين الكتلة والفراغ، والزمن الوجودى، وأنه لا أحد فى هذا الكون استطاع هزيمة الزمن، حتى الأنبياء أنفسهم لم يفروا منه. وصارت العشة تقترب من كمالها وتظهر شيئا فشيئا كبناء ملهم، صنعته يد صانع ماهر على مشارف اكتشافات فلسفية خاصة وعميقة، وبزهو كان يلمح الجيران يقفون على أسطح المنازل المجاورة يقضون الساعات فى تأمل هذا البناء المبهم بانبهار ودهشة، أما زوجته،

t.me/qurssan

فلم تكلف نفسها عناء إلقاء نظرة واحدة على ما يفعله، وربما حز هذا فى نفسه قليلا، لكن عزيمته لم تفتر، بل على العكس ازداد حمية وإلهامًا، وكما قدر، فقد اكتمل البناء فى أسبوع، ووقف يتأمل العشة التى صنعها بيديه غير مصدق، وتساقطت دمعتان من عينيه وانزلقتا فوق خديه فتركهما، تلك هى المرة الثانية فى حياته التى بكى فيها، كانت المرة الأولى حين ماتت أمه فبكى بكاء متصلا مدة أسبوع، فى البداية لم يكن يعرف كيف يبكى، وظل صامتًا ومحملقًا فى ذهول لجسد أمه المسجى، بينما الجميع حولها يبكون ويصرخون، وخاف عليه الجميع مما أضطر أخوه الأصغر لأن يلكمه فوق فكه لكمة أطارت سنتيه الأماميتين، وشعر بألم لا يطاق، لحظتها فقط، انفجر فى بكاء متصل لم ينقطع مدة أسبوع، بعد ذلك توقف تمامًا عن البكاء رغم عاطفيته الشديدة تجاه المواقف الميلودرامية والتى تزامنت مع صعوده وهبوطه فى السلم الوظيفى والاجتماعى على السواء، فمنذ أن حصل على شهادة مدرسة التجارة المتوسطة وتعيينه كاتب سكرتارية ومحفوظات بإحدى الهيئات الحكومية، أيقن أن حياته الفنية انتهت إلى الأبد، ففى صباه، كان يحلو له الابتعاد عن صحابه متوغلاً فى عزلته وفى مسالك لا يعرفها غيره، كان يترك قدميه تقودانه إلى أحراش بولاق الدكرور ومزارعها، وحتى خراباتها جاريًا تارة وراء (أبى فصاد) أو متأملا فى الوطاوط وهى تحوم حوله ناسيًا نفسه تمامًا مع الصفادع التى تكتظ بها المصارف والترع منصتًا بأذنيه المرهفتين لنقيقها ذى الإيقاع الخاص، حتى أنه كان يرجع نقيقها بأصابعه فى فرقعات منتظمة، أو على ركبتيه بكف يده، ومن فمها تعلم إيقاعات الشعر العربى، ومنذ تلك اللحظة، أيقن بولادة شاعر كبير ينتمى لأسلافه عبر خمسة عشر قرنًا، وبقليل من الحظ يمكن له هدم عمود الشعر وخلق عاموده الخاص، غير أن وظيفته، ولقائه بزميلته فى العمل والتى سوف

t.me/qurssan

تصبح فيما بعد زوجته، قد جعلا شيطان الشعر ونقيق الضفادع يهجرانه إلى الأبد.

لم يكن ما يراه أمامه الآن من قبيل المصادفة، فقد كان مؤهلا دومًا لصنع شيء ما حقيقي وعبقري، وها هي الفرصة جاءت، وها هو يلمح نظرات الإعجاب في عيون الجيران الذين تقاطروا على الأسطح ليروا ذلك البناء المدهش الذي بدأت معالمه في الظهور: عشة مربعة الجوانب، كل مربع صنع كما لم تصنع المربعات من قبل، وكل مربعين يكونان زاوية هي النموذج المستحيل للزوايا، والأعمدة مغطاة بعناية فائقة بالبوص المجدول، وفي المنتصف تمامًا، كان يقف العمود الأساسي والذي ذكره ببهو أعمدة الكرنك، أعلى قليلا من كل الأعمدة، مما جعله يحمل السقف بحيث يبدو مائلا على الجوانب، وقد التف حوله عود لبلاب ذو أوراق خضراء عريضة، وبراعم نامية في كل أطرافه، أما باب العشة، فقد رصدت على جانبيه أصص الزهور والنباتات الملونة. وبضربة حظ حقيقية، كان قد حقق ما ظل يتمناه طوال حياته: أن يوجد شكلاً للعمارة العربية يتفق مع المضمون، لقد أراد تحقيق ذلك حين تحول من كتابة الشعر إلى النثر فكتب عدة قصص يرد بها على الأجيال السابقة التي قال عنها أنها تحس بالدونية تجاه الغرب ولا تعتز بعروبتها، أما هو، فقد استوحى قصصه من البيئة الشعبية، ومن أشكال الحكي العربي، لكن نقاده الخونة تجاهلوه تماما فكف عن الكتابة، وكاد يكره مشروعه العربي، أما الآن، فقد أنجز ما عجز عن إثباته شعراً ونثرًا، وكما أتته فكرة بناء العشة بغتة، فاجأته فكرة أخرى لا تقل عبقرية وبساطة: سوف يدعو الأهل والأصدقاء والجيران ويفتتح العشة باحتفال تقدم فيه الحلوى وزجاجات المياه الغازية، فربما كان هذا البناء هو الإنجاز الحقيقي في حياته الأكثر اكتمالا وفرادة والأقرب إلى الواقعية الاشتراكية، التي رضع لبنها منذ أوائل الخمسينات، وفشل

t.me/qurssan

فى تطبيقها مرارًا، ذلك أنه منذ أن تزامن مولده مع الثورة المجيدة، كان كلما وضع الوطن خططا خمسية، وضع هو أيضا خططًا خمسية لحياته باءت جميعها بالفشل، وبعد ثورة التصحيح بقيادة الرئيس المؤمن، اضطر فى ظل ظروف الوطن السريعة والمتلاحقة، لوضع خطة يومية لكل يوم على حدة وحسب طبيعة اليوم، ففى كل صباح كان ينظر إلى السماء قبل شروق الشمس بدقائق، وبعدها يقرر الخطة التى يسير بها اليوم، وأتت خططه أكلها فقد كان يعبر يومه بسلاسة دونما يعكر صفوه، وها هو يغير من مساره فيضع خطة أسبوعية لبناء العشة تثمر ذلك البناء المدهش والذى يعبر به القرن الواحد والعشرين بخطى واثقة، ذلك القرن الذى لا يستطيع ملاحقة منجزاته العلمية واكتشافاته اليومية، ومحاولة فهم تلك المعادلات الكيميائية المعقدة، لقد أرقته مثلا فكرة الهندسة الوراثية حين وقعت عيناه على النعجة دوللى فى إحدى جرائد الصباح آذنة ببدء عصر جديد من الاستنساخ، وحاول محاولة جادة فهم بعض المصطلحات من قبيل الشفرة الوراثية والجينات والكروموسومات والحامض النووى والأحماض الأمينية «والدى إن إيه» وغيرها من الكلمات كان يشعر بوحدة قاتلة وهو يفكر فيها، وفى حركة البويضة داخل رحم صناعى، ولم يكن يجرؤ أن يسأل زوجته كيف يحدث ذلك وهى الخبيرة بالأوضاع المثلى للبويضة، فقد أجهضت اثنتا عشرة مرة خلال خمس عشرة سنة ولم تفلح مرة واحد فى استنساخ قطعة لحم تحمل اسمه وصفاته، وفكر أنه فى القريب العاجل قد يتمكن من ذلك، فالعلماء يعملون ليل نهار من أجله.

تسرب الخبر إلى جيرانه ومعارفه، وأراد هو أن يكون أكثر تحضرا فكتب دعوات أودعها أظرفًا وكتب أسماء كل من يعرفه، وفكر أنه لو أرسلها بالبريد، فسوف تتكلف كثيرا، وربما قد لا تصل إلى أصحابها فى الموعد المحدد، واستقر رأيه على تسليمها شخصيا يدا بيد، وشرع من فوره

t.me/qurssan

فى تنفيذ ذلك، فكان يخرج صباحًا حاملا حقيبة (هاندباج) واضعا فيها خطابات الدعوة، مارًا على كل معارفه، ولم تكن الكلمات المتبادلة بينه وبين مدعويه لتزيد عن بعض الجمل القصيرة والمكثفة، مثل: يسعدنا أنا وزوجتى تشريفكم غدًا، او مثل: سوف نفتتح كوخنا الصيفى ويسرنا وجودكم بيننا. ويصاحب ذلك دائما انحناءة خفيفة مع وضع يده على صدره، وكم كانت سعادته حين يعلق أحدهم: ها.. لقد رأيناه من سطح منزلنا وهو فى الواقع تحفة. أو: كم نتمنى الجلوس فيه لدقائق. أو: لقد وحى لنا بعمل مثله. فيمتلئ زهوًا وخيلاء، ويشعر بأن العمر لم يذهب هباء، وأن لديه الكثير من المشاريع التى لم يعلن عنها بعد، وانطلق فى وضع اللمسات الأخيرة، فأحضر مزيدا من أصص الزهور الملونة، وزرع على باب العشة فرع عنبة بناتى وأشجار لبلاب وورقا فضيا، وعلق فى تداخل أحواض بلاستيك تتدلى منها نباتات البوتس الخضراء الزاهية، ووضع فرعين من لمبات صغيرة ملونة تضىء وتنطفىء فى حركة دائمة، ثم مزيدا من لمبات النيون ذات الإضاءة البيضاء القوية، على أن ما كان يؤرقه فى الواقع هو، أن أساس العشة لم يكن بالمتانة الكافية، فقد ثبت الأعمدة فى صفائح حبش عليها بالرمال والإسمنت، لكن الصفائح نفسها غير مثبتة فى شىء فلو افترضنا وقوع صفيحة، ولو أنه افتراض بعيد الحدوث، فسوف تجر معها كل الصفائح، وكل الأعمدة وتنهار العشة، استبعد على الفور تلك الأفكار السوداوية فليس هذا وقتها، وفى إمكان تلك الأفكار تعكير فرحته، لكنه لم يستطع الابتعاد عنها، خاصة حين يهب الهواء فتمتلىء به العشة فتهتز اهتزازات غير مريحة، واخرج نفسه مرة أخرى من تهويماته، وأخذ يتفقد كل شىء للمرة الأخيرة حتى أطمأن من أن كل شىء سوف يتم وفق ما خطط له، سوف تكون ليلة من ليالى العمر، حتارها بدقة وعناية وجمع فيها أربع مناسبات كبرى: يوم ما هب الجيش

t.me/qurssan

وثار، ويوم مولده، ويوم زواجه، وأخيرًا يوم اكتمال بناء العشة، وابتسم ابتسامة داخلية هو وحده يعرفها كلما شعر بالرضا عن نفسه.

وأخيرا حل اليوم الموعود، ارتدى أغلى وأعز ملابسه إلى نفسه، قميص وبنطلون زواجه، ورجع مثلما كان منذ خمس عشرة سنة، ظهر أصغر من سنه الحقيقى بذقن حلقت بعناية، وشعره المجعد اختفى بعد أن استعان بسيشوار زوجته على فرده ودهنه بزيت الزيتون فظهر لامعا ومصقولا ومرسلا على جبينه، وأراد فى هذه الليلة أن يرتدى جديدا فاشترى جوربين وحذاء من نفس لون القميص والبنطلون مظهرا بذلك ذائقته الجمالية فى اختيار ألوان متناسقة وحالمة، أما زوجته، فقد كانت أكثر بساطة منه، أصرت على ارتداء حلة قديمة لم تكن ترتديها إلا فى المطبخ، لكنها كانت نظيفة ومعطرة، ونظر إليها وهى تقف بجانبه فى شرف استقبال المدعوين، فأحس أنه لم يرها بهذه الشفافية من قبل، وبدأ المدعوين يتوافدون، ووقف وابتسامته لا تفارق شفتيه طوال الوقت موجهًا ومشيرًا إلى أن الاحتفال فوق، حيث السطوح، حتى إذا ما احس باكتمال المدعوون، انضم هو وزوجته إليهم، ووقف يتأمل الجمع المحتشد من أجله أمام باب العشة، وقد الصق عليه شريطًا من السلوفان الأحمر الشفاف، وبجانبه وضع مقصا اشتراه خصيصًا لهذه المناسبة، وشعر بامتنان حقيقى لكل هؤلاء، واجتاحته لحظة رومانتيكية فكاد يبكى، لكنه تماسك، واعتلى طبلية كانت ملقاة فوق السطوح، وتقمصته روح مارلون براندوا كما شاهده فى الأب الروحى، فقال بصوت جهورى: السيدات والسادة، الإخوة والأخوات، سوف أكون ممتنًا لكم مدى حياتى أنا وزوجتى لتشريفكم وقبول دعوتى، فهذا دين فى عنقى، وسوف يبدأ احتفالنا معًا بقص شريط كوخنا الصيفى المتواضع، والآن، أقوم بشرح مبسط ومختصر حول الفكرة، وكيف باغتتنى فجأة، وكيف بدأت مرحلة التنفيذ، والخامات المستخدمة.

t.me/qurssan

وانطلق فى حديثه وبدا أن لا شىء يستطيع إيقافه، وكان يمزج حديثه بالشعر أحيانا، وبالحكم والأمثال الشعبية والنثر الذى كان يرقى كثيرا، فيصل فى بعض المواضع إلى ذرا لم يحلم بها من قبل، وصفق الحضور فى بعض الفقرات فاضطر لإعادتها، حتى زوجته صفقت له وشعرت أنه الآن فقط أصبح ملهما وعظيما. ولما انتهى، قاد الجميع إلى باب العشة فقص الشريط، وتلقى تهان لا حصر لها، وأخيرا دخلوا العشة فكانت الموائد ممدودة على جانبيها، وفوقها رصت أطباق الحلوى وزجاجات المياه الغازية، وانقسم المدعوون إلى مجموعات صغيرة تحدثت فيما بينها، وكان هو وزوجته يمران على كل مجموعة، يعطيانها من وقتهما دقائق لينتقلا إلى أخرى وهكذا، ولم تكن الأحاديث الدائرة تخرج عن هذا البناء الرائع وعن تلك النسمات الطرية المنعشة التى يحسون بها، وعن الخطبة الرائعة التى سمعوها من فمه، فيشعر أن قلبه يكاد يتوقف من السعادة، ويمسك نفسه عن البكاء بصعوبة ومع الساعات الأولى لفجر الرابع والعشرين من يوليو بدأت الريح تشتد قليلا فتهتز العشة وتتمايل مع كل موجة هواء، وما حدث بعد ذلك كان مفاجئا، حتى أن أحدا لم ينتبه له، فقد جاءت موجة هواء قوية، ومالت العشة بشدة على أحد جوانبها، ثم اعتدلت ومالت مع موجة أخرى، وأخذت تطقطق، بينما انفلتت قوائمها، وجرى هو إلى عامود المنتصف، فاحتضنه وطوقه بساقيه متشبثا به والدهشة على وجهه، وأخيرا انتبه المدعوون للعشة وهى تطير فى الفضاء، ورأوه يرتفع مع العشة متشبثا بالعامود، وأخذا يغلوان حتى غابا عن الأنظار.

* * *

t.me/qurssan

عفريت

سيد دعبس

فى فجر يوم الثالث والعشرين من يوليو، تحديدًا فى الساعة الثالثة من صباح عيد الثورة المجيد - عيد الوطن - وعندما يكون سيد دعبس عائدًا من مشواره اليومى، سوف تنشق الأرض أمامه ويخرج له عفريت حقيقى، لكن سيد دعبس، الرجل العلمانى المثقف ثقافة مسرحية رفيعة المستوى، لن يصدق أنه أمام أحد كائنات ما وراء الطبيعة، وأن أحدًا غيره لن يرى ما سوف يراه الآن.

لحظة القيلولة، وبينما قرية صفط اللبن تطفو فوق صهد الشمس، على أجنحة ملايين من أسراب الذباب الطنان، كان سيد دعبس قد بدأ رحلة العودة من موتته الصغرى عكس ملايين من البشر العاديين الذين بدأوا توًا هجعة الظهيرة، فتح عينيه نصف فتحة وحرك شاربه يمينًا ويسارًا فطارت ذبابة كانت قد نامت بداخله، وتسربت أشعة الشمس من خلال فتحات الأبواب والشبابيك الوهمية ومن خلال سقف الحجرة، كانت حزم الضوء تهاجم الغرفة الوحيدة بضراوة، تثاءب وهو يزيح حزم الضوء الباهر بكف يده من فوق وجهه، وقام نصف قومة منزويا فى ركن ظليل لا تغزوه الشمس، وتلفت حوله بحثا عن أحد من أولاده فلم يجد، لكنه كان يعرف أين يجدهم، كانت زوجته قد خرجت منذ أسلم نفسه للنوم لاستلام ورديتها المسائية بأحد مصانع الملابس الجاهزة ولن تعود قبل ساعتين،

t.me/qurssan

أما الأولاد الذكور وهم ثلاثة، فإنهم بمجرد أن يسلم نفسه للنوم ينطلقون للعب الكرة الشراب فى الحارة، بينما بناته الست، سمع صياحهن فى حوش المنزل، نادى على إحداهن فجاءت الكبرى وأعدَّت له إفطارًا مكونًا من قطعة جبن قريش مغموسة فى الزيت، وطبقا من البلح الأمهات ورغيفين، تلك كانت أكلته المحببة والتى يعيش عليها طوال النهار، انتهى سريعا وأشعل سيجارة وأخذ رشفة عميقة من كوب الشاى الثقيل المغلى. كان يحتاج إلى ساعة على الأقل ليفيق من نوم وش الصبح الذى يصيب عادة بالوخم والصداع ووجع الجسم، وتنبه أن لديه موعدا فى المساء مع أعضاء الفرقة المسرحية الجديدة، كان بيت الثقافة قد كلفه بإنشاء فرقة مسرحية من الشباب الجدد، على أن يقوم هو شخصيا بتدريبهم على قواعد التمثيل، وعليه يقع عبء تقديم عرض محلى سوف يختاره بنفسه، يراعى فيه أن يكون سهلا بسيطا وجذابًا فى نفس الوقت. حتى يستطيع جذب أكبر عدد من المشاهدين فى بولاق الدكرور والقرى والأحياء المجاورة لها، وفى اعتباره أن معظم من سوف يأتون لا يعرفون ما هو الفارق بين المسرح وحلبة السيرك التى كانوا يشاهدونها فى الساحات الشعبية صيفًا.

كان أمامه وقت كاف لمكافحة الذباب والحر اللافح الذى جعل العرق يشق له مجرى فوق جسده بدءًا من جبينه مرورًا برقبته فصدره حتى سرواله، أيضا فى المصيبة التى حلت عليه منذ أسبوع، وبينما كان ذاهبا إلى عمله بإحدى شركات المياه الغازية اكتشف أن الباب مغلق. وأن الشركة تم بيعها لإحدى الجهات الاستثمارية، وتم الاستغناء عن جميع العمال دون إنذار مسبق، وسوف تباع أسهمهم بمعرفة الشركة بواقع: ثلاثة آلاف جنيه مصرى فقط لا غير للسهم الواحد، وفى لحظة، حسب سيد أن له أربعة أسهم، ثمن السهم ثلاثة آلاف، نضرب ثلاثة فى أربعة تعطينا اثنى عشر ألف جنيه، وعليه تدبير حاله بهذا المبلغ الذى رغم ضآلته، لم يمتلكه طوال

t.me/qurssan

حياته، هل يضعه فى أحد البنوك الاستثمارية، ويقبض أرباحه أول كل شهر؟ أم أنه يقوم بتوظيفهم فى السوق فى أى مشروع؟ وأخيرا استقر رأيه على إكمال بناء البيت الذى لم يكن حتى ذلك الوقت سوى حجرة واحدة معرشة بالبوص وعروق الخشب، يرمى المسلح ويقوم بتبليط الشقة التى لابد وأن يكون لها أبواب وشبابيك عمولة وحمام نظيف وإضاءة جيدة بالنيون مثل بقية خلق الله، أما أولاده فلهم رب اسمه الكريم، كما أن عليه البحث عن عمل بجانب عمل زوجته، ولكن أى عمل؟

لم يكن سيد دعبس إنسانًا عاديًا حتى يستطيع أن يتواءم مع أى عمل، فمن كان مثله يمتلك مزاج فنان مرهف الحس له تطلعات وطموحات، وله خبرته العريضة بفن المسرح ويسمع عن ستانسلافسكى وانتونان أرتو وبرخت، ويعرف ماذا يعنى كسر حاجز الإيهام ومسرح القسوة والكوميديا المرتجلة والتراجيديا الاغريقية، سوف يفشل بالتأكيد إن هو عمل بعيدًا عن مجاله الحيوى، حتى فى شركة المياه الغازية، لم يكن يعمل إلا فى المسرح، ويفخر بأنه أول من فكر فى تأسيس مسرح بالشركة، بعد أن اقنع مجلس الإدارة بأن المسرح لا يقل أهمية عن أى نشاط حيوى آخر، مكرس لخدمة العمال: مثل دورات المياه وساعة غذاء الظهيرة، وكون فريقًا رائعا من زملائه ممن لهم ميول عدائية إجرامية تجاه الآخرين، بنظرته الثاقبة قرر تفريغ محتواهم الإجرامى فى عمل مسرحى هادف، تولى تدريبهم بنفسه، وصار مسئولاً عنهم وعن المسرح، كان هذا هو عمله الوحيد، ولم تكن له مواعيد حضور وانصراف مثل بقية موظفى الشركة، كان له وضعه الخاص، كان هو المؤلف والمخرج والممثل، وقد استطاع إظهار عدة عروض قصيرة إلى النور، كانت أشبه باسكتشات منها إلى عروض مسرحية حقيقية، وكان دائما يرجع ذلك لعدم توفر الإمكانيات التى يستطيع من خلالها عمل نهضة مسرحية جادة، إلا أنه مع ذلك كان يجد تصفيقًا حارًا من جمهوره الذى لم يكن يتعدى بأية حال موظفى الشركة وعائلاتهم.

t.me/qurssan

كان دائمًا يتوق إلى عمل مسرحى حقيقى يطلق فيه طاقاته كممثل ويثبت لنفسه أولا ولزوجته وأولاده ولكل من حوله أنه ممثل موهوب، وما عاش حتى تلك اللحظة إلا لهذا السبب ولأجله، ذلك أنه خرج من صلب أبيه ممثلا بفطرته، لم يتلق تعليما منتظمًا، ولم يدرس مسرحًا، ولا يفقه شيئًا فى تلك المصطلحات المسرحية المعقدة، والتى كان يتشدق بها كل من نعامل معهم، كانوا يستعرضون ثقافتهم أمامه، كان الواحد منهم يقف هكذا واضعًا يديه فى وسطه قائلاً: أصل الميزانسين مش عاجبنى. أو يقول: الفينالة دى محتاجة تغيير. وأشياء من هذا القبيل، ولم يكن رد فعله يتعدى هز كتفيه ومغمغما بضع كلمات غير مفهومة فى محاولة منه لإيجاد صيغة ما تدل على فهمه لما يقول، إلا أنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه يفهم كل ما له علاقة بالمسرح فهما فطريا.. لا يحتاج إلى التشدق بمثل هذه المصطلحات أو الفلسفات الجوفاء، وهل يحتاج الماء أو الهواء إلى أية تفاسير؟ وأنه أكثر موهبة من كل هؤلاء، فقط لو أعطى فرصة كاملة ولو مرة واحدة فى حياته، فرصة حقيقية يخرج فيها كل طاقاته الكامنة والمختزنة منذ آلاف السنين. كان يعيش على ضربة حظ قد تأتى فى أية لحظة، وكان يهيئ نفسه دومًا لمثل تلك اللحظة التى ربما لا تجىء سوى مرة واحدة، مثل ليلة القدر التى حلم طوال حياته الطفولية باختيارها له ولابد من اغتنام الفرصة وإلا فعليه العوض وبارك الله فيما رزق.

هكذا كان يحدث نفسه فى تلك الظهيرة الموحشة بشمسها الفضائحية، وفى انتظار المساء حيث يبدأ يومه الفعلى، أخذ يتأمل أجزاء من حياته التى ولت دون أن يشعر. لم تكن المرة الأولى التى يستحضر فيها أيامه الهاربة، لكنه وللحق، لم يكن يستحضرها من أجل البكاء على ما فات فى محاولة لجلد الذات، لا، كانت فقط لحظات تأمل حزين، لحظات كان يطفو فيها مع الزمن فى كل تجلياته: ماضيه وحاضره ومستقبله، وفى كل

t.me/qurssan

مرة تنتهى تأملاته وهو يرى نفسه واقفًا على خشبة المسرح، ليس أى مسرح، إنما أكبر مسارح الدنيا، وأمام جمهور كونى يؤدى دور الأدوار كلها، دور عمره، متقمصا أرواح أعظم ممثلى الأرض ومحلقًا فى سماوات وذرا غير مسبوقة من قبل، متفوقًا على أرواح أساتذته، وحتى على نفسه أيضًا لحظتها، يكاد يسمع تصفيق الجمهور يصم أذنيه فتتحرك كل حتة فى جسده وكأنه يؤدى دوره بالفعل أو هو على وشك. واحنى سيد دعبس رأسه لجمهوره الوهمى، وتلفت حوله يمينًا ويسارًا. وحمد الله أنه وحده. كثيرًا ما يراه أولاده فى هذه الأوضاع، رأسه ينحنى فجأة محييًا جمهوره الداخلى، إشارة مفاجئة من يده تستكمل حوارًا جوانيًا لا ينقطع، جمله زاعقة فى كل لحظة ذروة داخلية، وكثيرا ما كانوا يضحكون غير فاهمين أن ما يدور بينه وبين نفسه أعظم نص فى العالم، نص استغرق فى إعداده عمره كله، نص هو بطله ومنتجه ومؤلفه ومخرجه والمتفرج الوحيد عليه، إنه أحد نصوصه السرية التى دأب على تأليفها فى الآونة الأخيرة.

لكل وقت نصه، لكل حادثة تقع، رائحة يشمها، أصواتًا يسمعها، إذا تشاجر مع رئيسه فى العمل ألف نصًا يوبخه فيه ويقتص منه، ولو انهزم فى الدومينو أو الطاولة ألف نصًا يهزم فيه كل منافسيه، وعلى مشهد من جمع غفير حتى يكون النصر كاملا واستعراضيا، لا، لم تكن الحياة سهلة، وأشاح بيده منفعلا، لم تكن سهلة على الإطلاق، كانت نضالاً مستمرًا من أجل ألا يسقط فى التفاهة، ألا ينسحق تحت وطأة الفقر والجهل والمرض، ثالوثه الألد، ومزيد من الحقد على عالم يزداد ميتافيزيقية تجاه الحياة نفسها، لكى لا تشعر بالدونية تجاه الآخرين، أن تكون سيد نفسك، تمتلك إرادتك وحلمك الخاص والذى لا تراجع عنه أو استسلام مهما كان الثمن. وابتسم وهو يمشط لحيته بأصابعه، ثم تحسس شعر رأسه الأبيض المصفر بذؤاباته الطويلة المجعدة، كثيرًا ما ينخدع الآخرون بمظهره الخارجى، بتلك اللحية البيضاء المرسلة فوق رقبته، تكاد تخفيها. وشعر رأسه وحواجبه

t.me/qurssan

وشاربه، لقد دب البياض فجأة فى كل شعره، رغم أنه لم يتعد الخمسين بعد، مظهره العام يعطى انطباعًا بأنك أمام بائع سقط، خاصة حين يرتدى جلبابه الأبيض الوحيد الملىء بالثقوب من رماد السجائر المشتعل، لكن خلف كل ذلك يوجد إنسان حقيقى مثقف ثقافة حقيقية ليست تنتمى إلى ثقافة الكتب، بل تلك الثقافة التحتية التى يكتسبها أبناء الشوارع والحوارى والنائمون على الطوى، وكثيرا ما استدعى لحظة بعينها أحبها وعدها انتصارا وتأكيدا لهويته، كان يجلس على أحد المقاهى الشهيرة فى بولاق الدكرور والتى تمتلئ بروادها من كل الطوائف مساء، وجاءت جلسته بالقرب من بعض الشباب الصغار ممن كانوا يهوون المسرح، وكان حديثهم يدور الآن حول المسرح، وصعوبة الحصول على الدور المناسب لكل منهم، فاقترب بكرسيه حتى يستطيع سماع ما يدور من حديث، وتساءل أحدهم عن كتاب يحتاجه حول مسرح الشارع أو المسرح المرتجل لا يذكر بالضبط، واحتدمت المناقشة دون حسم، لحظتها هتف، انتونان أرتو. وساد الصمت فجأة، وأخذوا يتلفتون بحثا عن مصدر الصوت وتطلع إليه أحدهم متسائلاً: هل قلت شيئًا؟ وابتسم سيد تلك الابتسامة التى اشتهر بها والتى لا توحى بشىء. وأومأ برأسه إيجابًا نعم إنه انتونان أرتو، صاحب هذا المصطلح فى بادئ الأمر ابتسموا فى سخرية لم تخف على سيد الذى يلمحها وهى طائرة، لكن الصمت أصبح تامًا حين أندس بينهم، وأخذ يحدثهم من خلال تجاربه الذاتية عن مسرح آخر لم يقرءوا عنه فى الكتب، وعلى مدى أربع ساعات كان هو المتحدث الوحيد، ولدهشته، فقد كانت أفكاره مرتبة ومنظمة، ويعرف موضوعه الذى يتحدث عنه فتجلى كما لم يتجل من قبل، وضبط نفسه أكثر من مرة متلبسا بنطق بعض المصطلحات، التى كان يكره سماعها من الآخرين. ومنذ تلك اللحظة انضموا إليه وصار هو معلمهم، وشكل منهم النواة الأولى لمسرح بيت الثقافة الذى أزف موعد الذهاب إليه الآن.

t.me/qurssan

غابت الشمس بلفح نارها، وهبت نسمة مغربية طرية انعشته وهو يرتدى جلابيته البيضاء الوحيدة، ومشط شعر رأسه ولحيته وخرج إلى حيث بيت الثقافة، كانوا فى انتظاره فجلس بينهم يعدون النص المسرحى الجديد، والذى سوف يعرض فى رمضان القادم وقد اصبح على الأبواب، كان الوقت ضيقا، لذا فقد استغرقت الجلسة عدة ساعات ما بين قراءة وحذف وإضافة، وسوف يكون عليهم ابتداء من الغد عمل بروفة حركة، ألقى إليهم تعليماته الأخيرة، ثم انصرفوا جميعا إلى المقهى حيث يجلسون حتى الصباح، قرب أذان الفجر، أحس سيد ببعض التعب فاستأذن وانصرف وحيداً سوى من عصاه التى يتوكأ عليها ويهش الكلاب الضالة، لم تكن هناك ميكروباصات تقله إلى منزله، فقرر أن يمشى رغم طول المسافة، كان الجو صيفيًا رائقًا، وأخذ يتنفس هواء الفجر المنعش، وبدأ يدندن مطلعًا من أغنية لعبد الوهاب وآخر لفيروز، وشعر الآن فقط بلحظة سلام حقيقية مع نفسه، واجتاحه سكون مفاجئ فتساوى كل شىء عنده: الغنى والفقر، الحياة والموت، أن تعيش ملكًا أو أن تعيش غفيرًا أو عتالا، أن تكون ممثلاً أو متفرجًا، وأضحت المعادلة سهلة وابسط مما كان يتصور: كل شىء يساوى اى شىء. وأمضه الجوع فتلفت حوله.. كان الشارع مقفرًا ومظلمًا، ولدهشته وجد امرأة عجوز ملمومة فى نفسها بركن معتم فوق الرصيف، وأمامها وضعت مشنة بلح أمهات، كان وجودها فى تلك اللحظة شاذًا ومريبًا، فلمن تبيع فى تلك الساعة؟ تقدم منها ورمى عليها السلام، العواف يا خالة، كانت ترتدى طرحة سوداء اسبغتها على كل جسدها، لا شىء يبدو منها سوى الهيكل الخارجى لجسد يحمل تفاسير عدة، نص كيلو بلح لو سمحت. وجاءه صوتها قويا ويقظا عكس ما توقع: خذ يا ولدى بيدك ما قسم لك. وغرف سيد بكف يده ما قدر أنه يعادل نصف كيلو، ووضع النقود بجانبها ومضى، كان يمر أمام سور جنينة باسيلى حين وضع أول بلحة فى فمه، وأحس حلاوتها تمتصها خلاياه

t.me/qurssan

ببطء. وأخرج النواة وطوحها تحت السور مباشرة، وليته ما فعل، وكانت أصابعه تحمل البلحة الثانية إلى فمه فتوقفت فى منتصف المسافة انشقت الأرض تحت السور مباشرة وخرج سرسوب دخان أخذ يتصاعد بلا انقطاع حتى حجب السماء، ثم أخذ يتضاءل مرة أخرى، وأخيرا انجلى عن شخص وجده سيد دعبس واقفا أمامه، ولم يصدق سيد نفسه فهز رأسه وابتسم ومازالت البلحة بين أصابعه وبالقرب من شفتيه، كان طويلا جدا ونحيفا جدا ووسيما جدا. ومد يده أمسك سيد من ياقة جلابيته وتحدث بهدوء: سوف لا أنفعل حتى لا أحرقك بنار غضبى وسوف أكون هادئا حتى آخذ حقى منك. وكما لو كان الأمر به خدعة ما أغضبت سيد فقد تحدث إليه غاضبا: حقك من إيه يا أخينا؟ ثم من أنت؟ مساء الفل أو صباح الخير ماتفرقش. وبنفس الروح الهادئة تحدث الآخر: من الواضح أنك شخص غير مسئول ولا تقدر الموقف الصعب اللى أنت فيه. ووضع سيد البلحة فى فمه ورمى النواة على الأرض وقال وهو يمضغ: موقف إيه بالضبط ما تجيب من الآخر وتقول أيه الحكاية وتخلصنى. طيب، سوف أسايرك فى لا مبالاتك، أنت رميت النواية فجاءت فى ولدى وقتلته فى الحال، وسوف اقتلك الآن مثلما قتلت ولدى ووحيدى. ولم يتمالك سيد نفسه فانتابته كريزة ضحك متواصل حتى أنه شرق ودمعت عيناه، وتساقط بعض البلح من القرطاس، وأخيرا هدأ ونظر إليه: أنا قتلت ولدك؟ وبماذا؟ نواة بلح؟

إنت مين يا عمنا قلت لى؟

أنا سمسمائيل بن حزازيل ملك ملوك الجن الأحمر وحارس هذا المكان من خمسة آلاف سنة، ها ارتحت؟

جن أحمر ولا أزرق وأنا مالى، ثم أنك جن على نفسك ولا مؤاخذة، وبعدين الظاهر أنك متقل العيار حبتين، ولا يمكن يكون الصنف مغشوش، وعلى أية حال نفضها سيرة بقى، تاكل بلح؟ ومد سيد يده بقرطاس البلح

t.me/qurssan

ناحيته، وبدا سمسمائيل منفعلاً فضرب قرطاس البلح بيده فأطاره من يد سيد وتناثر على الأرض. أقول لك ملك ملوك الجن الأحمر تقول لى تاكل بلح، أما ابن آدم معندكش دم صحيح، وغضب سيد للبلح الواقع على الأرض، وشوح بيده فى وجهه: يا عم الحاج صلى على النبى جن إيه وهباب إيه، الناس طلعت القمر ودلدلت رجليها وأنت جاى تقول لى جن، إنت عارف فاضل كام يوم وينتهى القرن العشرين، صلى على اللى يشفع فيك.

وأخذ الرجل يتأمل سيد دعبس صامتًا ومحتارًا: واضح أنك مش مصدق أنى عفريت من الجن بحق وحقيق، طيب، ما الذى أفعله لأجعلك تصدق، احلف لك؟ قالوا للحرامى أحلف، يا عم سيبنى أروح لعيالى، الفجر قرب يشقشق الله لا يسيئك. لن أتركك قبل أن تصدق، القضية الآن تمس كرامتى كملك لأبناء جنسى، شوف، وبدفعة من قدميه طار العفريت فى الهواء، وأخذ يحوم فوق رأس سيد دعبس ثم نزل وأخذ يتحول أمام عينيه، فتحول إلى ثعبان، فحنش، فأفعى، ثم إلى أسد، فليث، فسبع، ففضنفر فلبوءة ثم إلى نسر، فبقرة، فحلوف، وإلى عفريت بألف وجه ووجه تحول، ثم ارتد أخيرًا إلى صورته التى كان عليها، ها.. صدقت؟ وكان سيد قد بدأ يصدق بالفعل، ولأول مرة داهمه خوف مفاجئ، فأخذ يرتجف وتلعثم لسانه. وما الذى تريده يا سيدى بالضبط؟ ان أقتلك مثلما قتلت ولدى فاختر لك ميتة فهذا لابد منه.

إذا كان لابد من الموت فلتمت رجلا كما عشت، قال سيد لنفسه وتقدم من العفريت بعد أن نطق الشهادتين ووقف أمامه وأغمض عينيه وبهدوء قال: ها أنا ذا أمامك افعل بى ما تشاء، أنا لا أخاف الموت وما قدره الله سوف يكون، هل تحسب أنك سوف تموت هكذا بالساهل؟ لابد أولا أن أخيرك فى الموتة التى تحب تموتها فهذا حقك، هل أشطرك إلى نصفين؟ أم أذبحك من الوريد إلى الوريد؟ تراك تفضل الخنق؟ أم الغرق؟ أم الحرق؟ ولا السم أحسن بالنسبة لك؟ هيا قل لى فليس عندى وقت أضيعه معك.

t.me/qurssan

إذا كان الأمر كذلك فإنى أضع الأمر بين يديك وأجعلك تختار أنت الوسيلة التى تريحك وتريحنى، باين عليك عفريت شهم وابن حلال وهو ما يجعلنى أطلب من جنابك معروفا لن أنساه لك طوال حياتى القصيرة، قال وتطلع إلى العفريت الذى نفد صبره فرد: قل وخلصنى. أمهلنى أسبوعًا واحدًا فقط أودع فيه أهلى وعيالى وصحبى وأنتهى من بعض أعمالى، وبعد ذلك افعل بى ما تشاء.

يا حلاوتك! وما الذى يضمن لى عودتك فى موعدك؟

إليك ضمانة بأننى سوف أعود إليك، ثم ضرب سيد يده فى سيالة الجلابية، وأخرج ببطاقته العائلية وقدمها للعفريت الذى أخذ يتأمل الصورة والكتابة وتساءل: ما هذا؟ إنها بطاقتى، وهى التى تتحكم فى حياتنا على الأرض، بدونها لا نساوى شيئا، ثم أن بها اسمى وعنوانى ورقمى القومى وتستطيع عن طريقها أن تجدنى حتى لو كنت فى بطن أمى. ولدهشته، فقد هز العفريت رأسه ودس البطاقة فى جيبه، وأمهله أسبوعا.

وفى هذا الأسبوع، أتم سيد دعبس بناء البيت، وتم عرض المسرحية التى كان قد بدأها، وتحقق حلمه بالوقوف فوق أكبر مسارح الدنيا، وكما قال النقاد فإن أداءه فاق كل أساتذته، وتم تدشينه عميدا لحركة المسرح الجديد، وبمعجزة حقيقية شفى تمامًا من ثلاث جلطات قديمة بالقلب، وانسداد فى الشريان التاجى ووريد تالف لم يكن منه رجاء، وعفى عن أعدائه القدامى، وسهر ليلة لا تنسى مع أصدقاء الطفولة والمقهى فى آن واحد، وتذكر أشياء كان يتمنى أن يتمها فأتمها، وفى الليلة الأخيرة امتد حبل الوصال بينه وبين زوجته، وحين صحت من النوم صباحا لم تجده نائمًا بجوارها، فأخذت تبحث عنه، لكن سيد دعبس كان قد أختفى.

* * *

t.me/qurssan

المخطوط

«السندباد الجوى» ـ لتجارة الكتب القديمة.

بيع ـ شراء ـ استبدال

كان هذا العنوان مكتوبًا بالخط الثُّلث المشكَّل على اليافطة الحديثة المعمولة من الزجاج المعشَّق، والمضاءة من الداخل بالنيون المشع باللون الأبيض والذى حين يضاء، يجعل اليافطة «كرنفالاً» من الألوان المتداخلة فى بعضها البعض. وكانت اليافطة المعلقة فى واجهة المكتبة صممت على أحدث تكنولوجيا نهاية القرن العشرين وبداية العد التنازلى لقدوم قرن آخر جديد يوشك أن يبدأ بعد أيام تعد على شاشات عملاقة فى كل عواصم العالم، إلا أنها، وبعبقرية صانعها، أراد لها أن توحى بالعتاقة والقدم بطريقة ما تتماشى تماما مع تلك الكتب القديمة المرصوصة بعناية فوق الأرفف الطولية والعرضية والتى تمتلئ بها المكتبة من الداخل، كافة أنواع الكتب فى شتى العلوم بلغة واحدة هى العربية: الطب، السحر، علوم السيمياء، الفلك، الجغرافيا. علم الكلام. الفلسفة. علوم القرآن، الهرطقة، الأحاديث النبوية، الخط العربى، خرائط الأرض والبحر، وأساطير الأولين.

كانت المجلدات تحتل جزءا كبيرًا من الأرفف، بألوانها القديمة الباهتة ومجلدة بجلد الغزلان المعرق، أما باقى الكتب، فكانت تنبعث منها رائحة

t.me/qurssan

الورق الأصفر العتيق، وهى رائحة كانت محببة له، حتى أنه كان يفتح بعض الكتب خصيصًا ليشم رائحة الأزمنة الغابرة، وأطلق عليها «برفان الزمن» وتمنى أن يأتى اليوم الذى تعبأ فى زجاجات وتباع مثل أى روائح أخرى، لقد أمضى عمره كله وسط تلك الرائحة، فى بيته، وفى حجرته الصغيرة، وها هى تحاصره فى المكتبة وتملأ خياشيمه فتصيبه بنشوة لا تزول، المكتبة، حلم حياته الذى تحقق أخيرًا، أن يكون صاحب مكتبة لبيع وشراء الكتب القديمة، أن يصبح وراقا وكاتبا مثل شيوخه الذين تعلم على يديهم بدرب الجماميز والصنادقية والأزهر وشارع بورسعيد والجمالية، وسوف يكون مثلهم تماما سمحا إذا باع، وسمحا إذا اشترى، إذا جاءه أحد الزبائن، سيقول له هذا الكتاب وهبته كذا، ولن يقول ثمنه كذا، هكذا كانت لغتهم مع الكتب، يرضون بالقليل، كلمة «وهبة» لا تطلق إلا مقرونة بالمصحف عند بيعه أو شراءه، لكنه سوف يقرنها بجميع الكتب فكل الكتب مقدسة وكل الكتب هى خلاصة الفكر الإنسانى، هى حكمة ممثلى الله على الأرض، وما ينفع الناس منها يمكث فى الأرض.

بالأمس انتهى من ترتيب كل شىء: الكتب، الأرفف، الإضاءة، اليافطة التى أختار اسمها بنفسه وأراد أن تكون غريبة ومختلفة، يعرف السندباد البحرى والبرى، قصتهما فى ألف ليلة وليلة معروفة، عنده منها ست نسخ فى طبعات نادرة: طبعة مدينة برسلاو بهولنده وهى النسخة الأتم فى اثنى عشر مجلدا، طبعة مدينة كلكتا بالهند وهى الأفضل فى ثمانية مجلدات، وطبعة بولاق بتحقيق الشيخ قطة العدوى رحمه الله، طبعة مكتبة ومطبعة محمد على صبيح فى أربعة مجلدات، كانت مكتبته معروفة بميدان الحسين رضى الله عنه، وكان من شيوخ الوراقين، لكن بضاعته بارت وأفل مع الآفلين ـ اللهم احفظنا ـ طبعة مدينة بغداد، وهى مأخوذة عن طبعة برسلاو، وأخيرا الطبعة الفارسية.

t.me/qurssan

كان عنوان المكتبة «السندباد الجوى» له دلالته. فالعرب القدامى عرفوا البحر والبر، أما الجو، فأقصى ما تخيلوه أن يركب أحدهم بساطا طائرا، وهو حين شرح منطقه للرسام، ابتسم، وشرع يرسم «سندباد» يركب طائرة نفاثة، وحين فرغ الرسام، أخذ يتأمل اليافطة فاعجبته، وهز رأسه راضيا عن نفسه، نعم، هكذا يجب أن يكون سندباد نهاية القرن. وأخيرا جلس أمام دكانه واضعًا ساقًا فوق أخرى، كان ينظر من خلف كتفه إلى رفوف الكتب فيحس راحة، ويهز ساقه رضاء وسرورا.

منذ أن أفتتح المكتبة فى الصباح دون مراسم. قرأ آية الكرسى والمعوذتين فى كفه ومسحهما فى وجهه، هذه الآيات سرها باتع، يعرف هذا جيدًا، والشمس غابت الآن دون أن يأتى إلى المكتبة زبون واحد، المارة كانوا يتفرجون من بعيد لبعيد تعلو وجوههم الدهشة، مكتبة فاخرة فى حى شعبى فقير! لكنهم ما كانوا يسمحون لأنفسهم بالاقتراب من الأرفف أو الكتب رغم ابتسامته الموحية بالثقة والمشجعة. كان يتمنى بصدق أن يأتوا، يقتربون من الكتب، يقلبونها ويفرون صفحاتها، يشمون رائحتها، لا يهم بعد ذلك أن يشتروها، بل كان على أتم استعداد لإعطائهم لهم لو طلبوها. أمتع شىء فى الدنيا أن تقترب من كتاب قديم، تغبر به أصابعك وأنت تفر صفحاته، بينما تتشمم رائحته القديمة الآتية من أزمان سحيقة، تلك هى المتعة الحقيقية التى لا يعرفها أغلب الناس.

أضاء الأنوار فغمر ضوء النيون الأرفف والكتب فبدت أفضل رؤية العناوين، وبدت ألوانها أزهى مما كانت عليه فى الصباح، وفكر أن الوقت لم يتسع لفرز جميع الكتب، اكتفى فقط بالعناوين ذات الجاذبية للزبائن، أما بقيتها، فما زالت فى الصناديق لم تمس، وطالما لا توجد حركة بيع وشراء، ففى وسعه إخراجها فى أى وقت، وربما استطاع السهر قليلاً، فالوقت صيفًا، والهواء هنا يختلف عن هواء البيوت الراكد السخن بفعل

t.me/qurssan

امتصاص المسلح لشمس الظهيرة الحامية، اقترب الليل من منتصفه، وخفت حركة مرور الناس فى الشارع حتى كادت أن تتلاشى، وبدأت المحلات المجاورة تطفىء أنوارها وتغلق أبوابها، وبدا له أن لا أحد غيره فى الشارع الآن فاجتاحته حالة من السكون المحبب إلى نفسه، والتفت إلى الوراء كعادته منذ الصباح متفقدًا الأرفف والكتب، وحين ارتد بصره رأى شيئًا عجيبًا بعض الشىء، كان هناك رجل واقف أمامه، وكان قريبًا جدًا منه لدرجة أزعجته فرجع بكرسيه قليلاً، كان الشارع مقفرًا، فمن أين أتى فجأة؟ ولوهلة، أحس باضطراب وقلق، وأصبح الجو مشحونًا بقوة حيوية هائلة، وأحس كمن وقع بين قطبى مغناطيس له قوة خارقة، ورفع بصره إليه، كان طويلاً مفرط الطول ونحيفًا جدًا، شعر رأسه أقرب إلى الرمادى، وعيونه واسعة بلا أجفان ولا لون لها، ربما كان الأقرب إلى الصحة أن عيونه فى تلك اللحظة كانت تشع كل الألوان، أيضًا ملابسه بدت غريبة إلى حد ما، كانت أقرب إلى ملابس أحد قراصنة العصور الوسطى، وأخيرًا جاء صوته وكأنه آت من جب عميق ليكمل الصورة: مساء الخير يا عم سيد. ثم أخذ يتأمل اليافطة والأرفف والكتب من مكانه دون أن يقترب وارتد إليه ببصره مرة أخرى وابتسم. ألا تعرفنى؟ مبروك عليك المكتبة. تنحنح وابتلع ريقه ولم يدر بماذا يجيبه فقال: والله يا أستاذ لا تؤاخذنى، أتشرف بمعرفة حضرتك. وأحس فى تلك اللحظة بعيون الرجل تخترقه وتحاصره. أنا أبحث عن مخطوط أعرف أنه عندك اسمه «قمر الأقمار».

لا يذكر سيد أنه سمع أو رأى مخطوطًا بهذا الاسم والشكل، وتعجب من ثقة الرجل، فهو على يقين مما يبحث عنه، بل والأغرب أنه يعرف اسمه رغم أنه لم يره من قبل. والله يا أستاذ لم أسمع بهذا الاسم من قبل، ثم أننى لا أعمل بالمخطوطات، كل ما عندى بعض الكتب القديمة، وعلى أية حال أدخل يا بنى ودوّر على الرفوف براحتك.

t.me/qurssan

لا، ليس موجودًا على الأرفف، ومع ذلك أنا أعرف أنه عندك وسوف أملكه، وتذكّر سيد أن لديه بعض الصناديق التى لم تفتح بعد، وربما كان الكتاب بداخل أحدها فقال: دعنى أبحث عنه فربما كان مختفيًا هنا أو هناك، وبينما يلتفت خلفه باحثًا على الأرفف بعينيه، كان الرجل قد اختفى فجأة كما ظهر.

ضرب سيد كفاً بكف، وسرت رعشة ببدنه فقام وأطفأ الأنوار وأغلق باب المحل وهرول إلى بيته دون أن يتوصل إلى تفسير لما حدث.

ولأن ذاكرته بدأت تخونه فى الآونة الأخيرة. فقد قام فى الصباح وقد نسى كل شىء، ففتح مكتبته وجلس على بابها. ولابد أنه انشغل بشىء ما حتى أنه لم يشعر بذلك الشيخ الواقف أمامه يكاد يلتصق به، وسرعان ما لاحظ تلك الهيئة الغريبة التى بدا عليها بملابسه المضحكة ذات الألوان المتنافرة والتى استبعد أن يكون صاحبها ممن ينتمون إلى الثقافة الرفيعة. صباح الخير يا عم سيد. كان صوته أيضًا غريبًا، وشعر بتوتر حاد شمل كل أطرافه، وقلق غامض سيطر عليه، وعيون تشع خطرًا تخترقه، كانت نفس العيون التى قابلها بالأمس تذكرها الآن. وفى جزء من الثانية أدرك ما جاء من أجله هذا الرجل والذى لم تكن ملامحه هى نفس ملامح الآخر، إنما نفس العيون ونبرة الصوت، وقرر إنكار وجود المخطوط عنده، لكنه لم يمهله: أنا أعلم أنه عندك فلا داعى للإنكار، سأمر عليك فى وقت آخر. وابتسم سيد غير مصدِّق لخرافاته وهو يرى بنى آدم يتبخّر أمامه وكأنه فص ملح وذاب، وحتى يقطع الشك باليقين، دخل المخزن الملحق بالمكتبة، وأخرج صناديق الكتب، وأخذ يفتح الواحد تلو الآخر قارئًا العناوين وكلما أوغل فى فتح الصناديق دون العثور على شىء، ازداد يقينه بأن المسألة ما هى إلا مزحة سخيفة من أحد معارفه يعرفه جيدًا، ويعرف ولعه بكائنات ما وراء الطبيعة، وأنه ما شك فى وجودها لحظة، وأنه كثيرًا

t.me/qurssan

ما تخيل فى أحلام يقظته، عفريتًا يخرج له من ابريق نحاس صدئ، أو ماردًا يطير به حتى يحط به على جبال قاف، أو جنيا يأخذه إلى بلاد واق الواق، حتى أصبح ممسوسًا بكائناته الخرافية يعيش بينها، ويحلم بها، أكثر من حياته مع زوجته وأولاده، وأخذ يفض آخر صندوق، وفى المنتصف تمامًا، كان يقبع ذلك المخطوط بجلدته الحمراء الباهتة، أمسكه بأصابعه وفتحه، وداهمته رائحة غريبة، رائحة لم يشمها من قبل، كريهة ومنفِّرة كادت تخنقه، وبلغة لم يعرفها أو رآها قبل الآن، أخذ المخطوط يتشكّل أمامه، وأخذته رعدة، وتكهّرب الهواء من حوله، كان المخطوط يشع خطرًا فأغلقه ووضعه على أحد الرفوف الأمامية من المكتبة بحيث يصبح فى متناول رؤيته، جلس أمام باب المكتبة وعيناه على المخطوط لا تفارقانه، لم يكن كبير الحجم، بل يشبه كراسًا عادياً، وكانت رائحة المخطوط تملأ الهواء، وفى جزء من الثانية خيل لسيد أنه الآن فقط عرف كل شىء، ورأى كل شىء، رأى ما فوق السماء، وما تحت الأرض وعالم الظلام والجبال والبحار وما تقوله الطيور فى السماء والسمك فى البحار، ورباعيات الأرجل فى الجبال، ودورة الأفلاك فى كامل بهائها، وتعاقب الأزمنة ومصائر البشر المهدَّدة بالفناء، وللحظة خاطفة أدرك أنه هو شخصياً سوف يموت فى يوم ما ليس ببعيد، وأنه لا جدوى من أى شىء طالما المصير المحتوم واقع لا محالة. وأخيرًا وصل فى تهاويمه إلى أقصاها. لحظتها، التفت إلى المخطوط فلم يجد له أثرًا.

* * *

t.me/qurssan

تمارين على الكتابة

أنا وحيد

هكذا أعلن "سعيد فرحان بينه وبين نفسه فى لحظة أسيانة شفّت ورفّت حتى أن روحه أخذت ترفرف تكاد تنطلق من جسده، وهو بعد لم يضع تلك اللحظة ـ لحظة حزنه ـ تحت مجهر المنطق الذى لازمه فى كل لحظاته المشابهة السابقة: حقيقة لحظة الحزن والوحدة تلك، هل هى زائفة تعبيرًا عن فراغ ما يعانيه، هل هى صادقة كتلك التى تأتى دائمًا كإرهاصة أولى للحظات الكتابة حيث يدخل جحيم الكلمات، ولا يخرج قبل أن ينتهى من قصته أو روايته. هل لأن الليلة هى ليلة رأس السنة الأخيرة فى هذا القرن، حيث يكمل عامه الستين، بينما العالم يحتفل بدخوله القرن الجديد باحتساء الملايين من كئوس الويسكى والشمبانيا، وهو وحده يجلس خلف مكتبه، وأمامه، وضع كوب شاى ساخن تصاعدت منه رائحة النعناع، وتلفت سعيد فرحان حوله فما وجد سوى حجرته التى أغلقها على نفسه، وعشرات الأرفف انتظمت حوله وتكدست بكتب ومجلدات تحوى آلاف القصص، آلاف الروايات، آلاف السير الذاتية وكتب الفكر والفن والفلسفة والمنطق وعلم النفس والميتافيزيقا، وبضعة كتب قام هو نفسه بتأليفها حين كان يحب أن يؤلف قصصاً وروايات بنفسه بدلاً من تلك التى كان يقرأها فيصدم فى مشاعره، أولا يشعر بمتعة المشاركة فى الخلق على

t.me/qurssan

الورق والاكتفاء فقط بالقراءة. وتجرأ سعيد فرحان فأمسك القلم بأصابع ترتعش لأنه أراد لها أن ترتعش لإضفاء مزيد من القدسية والمهابة لتلك اللحظة التى أحب أن تتجاوز مأساويتها كل الحدود الممكنة، وخط على الورق الأبيض جملته بعد أن عدَّلها قليلاً:

«أنا وحيد وتعس»

وفرح سعيد فرحان بعد كتابة جملته، وأخذ ينظر إليها ويتأملها وقد رجع بكرسيه الهزاز إلى الوراء قليلاً، وأغرورقت عيناه بدموع الدهشة لإمساكه القلم ببساطة. ومن عدم رهبته وتحديه للورقة البيضاء الموضوعة أمامه، والتى ظلت بيضاء طوال أكثر من عشرين سنة، منذ أن أعلن على الملأ كفه عن الكتابة واعتزاله الإمساك بالقلم مرة أخرى، وبحركة تمثيلية كانت موفقة كسر قلمه أمام مندوبى وكالات الأنباء العالمية، فسّر ذلك وقتها بأنه احتجاج على انهيار الاتحاد السوفيتى وتفتت الكتلة الشرقية وانتصار الرأسمالية وحصار ليبيا وضرب العراق، والحرب الأهلية فى السودان، وعزلة مصر، ومحاولة تقسيم العالم وفق الأهواء الأمريكية الإسرائيلية، واتفاقية الجات، والخصخصة، وما يحدث فى السلفادور وإقليم الباسك والشيشان والسوق الشرق أوسطية، والفتنة الطائفية وفضيحة كلينتون مونيكا، ونزول اليورو، وتوحيد أوروبا وتفكك العالم العربى. قال: لكل ذلك فإن العالم أصبح غير ملائم لى، لذا فإنى أعلن انسحابى من المشاركة فى هذه المهزلة الكونية. لكن كل هذه الأسباب لم تكن حقيقية بالنسبة له، السبب الحقيقى أعلنه همساً فى سره، فمن أين له أن يأتى بالقصص والروايات بعد ذلك؟ لقد أفلس تماماً ولم يعد يعرف كيف يكتب، حتى تلك الخبرات التى اكتسبها طوال مزاولته لمهنة الكتابة لم يعد يتذكرها، أبسط القواعد: كيف يبدأ قصة أو رواية، الكلمة المفتاح التى يبدأ بعدها فى رواية الأحداث، الإيقاعات التى كانت تطنُّ فى أذنه أثناء

t.me/qurssan

الكتابة فيضبط عليها كل شىء، السرعة أو البطء، طول الجملة أو قصرها، تقديم الفعل أو تأخيره، إيقاع الجملة من السطر، والسطر من الصفحة، والصفحة من الرواية كلها. وكلما تذكر أنه كان يجلس بالساعات خلف مكتبه يسمع صرير القلم على الورق الأبيض الذى يتحول بقدرة قادر إلى حروف سوداء وكلمات وبشر ينفخ فيهم من روحه فيحيون، ويظل يحاورهم ويعايشهم ليال وأيام وشهور فيملأون عليه حجرته ويعيشون دنياه، كلما تذكر أصابته الدهشة وتساءل: من أين كان يأتى بتلك الأفكار والأحداث والبشر؟ من أين كانت تأتى القصص أصلاً؟ وكيف ظل ملهمًا طوال ثلاثين سنة لم يترك قلمه قط، بل كان منتصبًا دائماً مثل قلمه الآخر الذى لم يخذله فى كل معاركه التى خاضها فاتحًا وغازيًا هادمًا حصونًا وقلاعاً لممالك لا حصر لها، هو وحده يعرفها، حتى أنه كان يتندر معتزًا بفحولته فخورًا بها، كان يضحك قائلاً أن قلميه لم يكن فى حاجة لإثارتهما حتى ينتعظا ولا يتوقفا قبل أن يشبع كتابة على الورق والجسد. أليست بينهما أواصر من حبر ودم لم تنفصم عراها منذ أن بدأ الكتابة على شكائر الأسمنت التى كان يحضرها أبوه البناء إلى البيت بعد انتهاء عمله، كان البيت مميزًا بشكائر الأسمنت والمسطرينات والموازين الخيط والفئوس والكواريك والمهزات وقصاع المونة، لكنه خال تمامًا من ورقة أو قلم أو كتاب، فكان عليه أن يبدأ بتأسيس عدته الخاصة وأن يستفيد من مهنة الأب والأخوة على الورق، من تعبيراته الأثيرة فيما بعد أن العظماء لا يحتاجون إلى أدوات، هم يخترعون أدواتهم، وفيما يتعلق بالورق الذى لم يكن ليجده بسهولة قال أن بعضهم كان يكتب على شقف أو قطعة صابون أو تذكرة أتوبيس قصائد خلدّها التاريخ، وقد تزامن صعوده سلم مجده وشهرته مع تزايد وعيه الفائق بكيفية استخدام القلم المناسب فى الوقت المناسب، فلكل كتابة قلمها الخاص، فحين كان يمتلك وعيًا طفوليًا. كان القلم البوص أو الكوبيا هو الأنسب للتعبير عن إلتهاب العواطف، أما

t.me/qurssan

القلم الرصاص فهو الأنسب للمواقف السياسية والنضالية الحادة التى تتطلب بعض المناورات وتعديل المسارات، فلا تتطلب سوى مسح ما كتبه بأستيكة وكأن شيئًا لم يكن، والبدء مرة أخرى برؤية أخرى، وقد جاء استخدامه لقلم الحبر بماركاته الشهيرة بعد أن استقرت قناعاته وتحددت رؤاه. عدل فى جملته الموجودة فى منتصف الورقة وأضاف فأصبحت:

«أنا وحيد وتعيس وخائب الرجاء»

ذلك أنه بعد أن ملأ الدنيا كتابة متواصلة بلا انقطاع، رحلت أفكاره الملهمة فجأة، ورغم امتلاء حياته بالأحداث والتواريخ والشخصيات، تلك الشخصيات التى تعرّف عليها أو التى ابتدعها على الورق، وبث فيها روحه ودمه حتى أضحت أكثر حيوية وحياة من شخصيات حقيقية كثيرة، إلا أنه يعيش الآن وحدته الخاصة فى زمنه الخاص، كما تمنى، متوحدًا مع نفسه، بينما يجلس خلف مكتبه، وبين يديه الورق الأبيض، والقلم يجرى فيحبِّر المساحات البيضاء كلما أوغل فى أفكاره، أن تخرج تلك الشخصيات من بين السطور والورق، أن تتحرر من الأرفف والكتب، تلتف حوله لتملأ وحدته، تحدثه أن حياته لم تذهب عبثاً، وأنه شارك فى صنع حياة أخرى، أكثر بهجة وجمالاً. وما كانت هذه الشخصيات والأحداث لتوجد لولاه، حتى زوجته وأولاده ما كانوا ليوجدوا لولا أنه أوجدهم بخياله أولاً، ذلك الخيال الجامح الذى شرق وغرب حتى وصل إلى بلاد واق الواق وحدود الدنيا المعمورة حتى جبال قاف، وعاش مع المردة والشياطين والجان وكائنات الخرافة، وأدار دنياه المتخيلة من خلف مكتبه الذى يشعر فيه بالوحدة الآن، على الرغم من توغله فى الكتابة، وأن حدة احباطاته خفّت قليلاً، وغربته عن القلم بين أصابعه أخذت فى التراجع، ورعبه من الصفحات البيضاء تلاشى. فكّر فى الكتابة عن تلك الأشياء الحميمة التى كانت تثيره، والتى كان كلما تذكرها جرى إلى مكتبه وتدفّق، حتى أنه كان

t.me/qurssan

يمنع نفسه بالعافية. حيلة معروفة، لكنها لم تعد تفلح معه، فقد تزاحمت الأفكار فى رأسه دفعة واحدة، وتداخلت فى بعضها البعض. وبات من المتعذر استخلاص واحدة بمفردها، وهو ما يسميه بالتلبك الفكرى، ولجأ إلى حيلة أخرى، فما من رواية أو قصة كتبها إلا على إيقاع كان يظن فى رأسه كل كتابة لها إيقاعها الخاص هز رأسه موافقًا تمامًا على تلك الجملة لكنه يذكر أيضا أن ما من إيقاع إلا وكان مصحوبًا بفكرته. أليس العكس صحيح أيضاً؟ الإيقاع أولاً أم الكتابة؟ لم يعد يتذكر. لكنه يذكر جيدًا حلم حياته، تحويل الموسيقى إلى كلمات، أن يجعل الموسيقى تُقرأ وتُسمع فى آن معًا، فى كل قصصه ورواياته، كانت ثمة موسيقى تطنُّ فى رأسه لحظة الكتابة، لكن ما بال الإيقاعات تهرب هى أيضا، حتى إيقاع حياته اختل فى البداية كان يردد مقولة أصبحت إحدى كليشهاته، على الكاتب الحق أن يغير من إيقاعاته وإلا وقع فى النمطية، لكن أن يكون لك إيقاعك الخاص ومن ثم تقوم بتغييره شىء، وألا يكون لك فذلك شىء آخر، هذا هو الخراب، هو فقدان الهوية بعينه، وهو ما يشعر به الآن، حالة فقدان تامة للإيقاع على كافة المستويات. كتب وسط الصفحة بالخط العريض:

«أنا كاتب يفتقد الإيقاع»

وأجرى محاكمة سريعة لنفسه، ورجع للبدايات الأولى فربما أفلح فى الإمساك بلحظة ما تعيده لياقته الذهنية، تعيد إليه ذلك الإيقاع الذى نجح فى الإمساك به طوال سنين عديدة، كان فقط، وبمجرد جلوسه خلف مكتبه، أمامه الورق الأبيض وقلما اختاره من بين عدة أقلام، والراديو خلفه يبث موسيقى موزعة عبر السماعات فى أرجاء الحجرة، ومن حوله الليل يسمع هسيسه، والمدينة كلها فى حالة سبات عميق. إلا هو ابن الليل الحقيقى، ففيه ولد، وفيه عاش أجمل لحظات الخلق الغنى، وفيه ناجى أحبته، وفيه عرف كيف يوصل جسده بجسد آخر ويذوب فيه محلقا فوق

t.me/qurssan

ذرى من اللذة النورانية، ويعرف أيضا أن رحلته سوف تنتهى ليلا، يكفى أن يشم رائحة ما قديمة، أو ذكرى عابرة، أو حديثا دار ذات يوم، أو إيماءة فى الفراغ من شخص ما لشخص ما، حتى يمسك بالقلم ولا يتركه إلا وتكون القصة قد اكتملت، أو الرواية قد بدأ فصلها الأول، أخطر الفصول وأصعبها على الإطلاق، فهو الذى يحدد شكلها وملامحها طولها وقصرها، مصائر أبطالها وحياتهم، شقاؤهم أو سعادتهم. كتب مرة فى إحدى المجلات الأدبية حين طلب منه بعض النصائح للأجيال الجديدة تحت عنوان:

كيف تكتب القصة القصيرة؟

إن الجملة الأولى فى أية قصة هى الأصعب، وأن قرار كتابتها لهو من أخطر القرارات التى يمكن إتخاذها، فهو أصعب مثلا من قرار شن حرب نووية ـ هكذا كان يتصور أيامها ـ فبمجرد أن تتخذ قراراً بكتابة الجملة الأولى، يكون كل شىء قد خرج من يدك، فمصير أمم وخلائق معلق بين يديك الآن، وحياة كاملة سوف تدب منذ تلك اللحظة على الورق، لذا، فالبداية دائما صعبة، وعليك توخى الحذر من البدايات، البدايات الخاطئة تؤدى إلى نهايات خاطئة، هكذا تعلمنا من السلف الصالح، لتكن بدايتك جملة خاطفة، مفاجئة ومركزة مثل قنبلة موقوتة توشك على الانفجار، إذا فعلت ذلك أضمن لك الباقى، اعرض أفكارك الرئيسية، ثم حوم قليلا حولها، شرق وغرب، ارتد إلى الوراء قليلا، هات نتفا من ذكريات طفولتك، أصدقائك، جيرانك، إمزجها ببعض قراءاتك فى مواضيع شتى، إتكىء على التراث قليلاً فيغنى قصتك، ولا ترجع إلى موضوعك الرئيسى الذى بالطبع تكون قد نسيته ـ فلا تئس أرجوك ـ إلا قبل النهاية بقليل، ثم الدغ كالنحلة وفر هاربًا بعد أن تجعل النهاية مفتوحة وهذا يعطى القصة أو الرواية تأويلات مختلفة، ألم تكتمل القصة بعد؟

t.me/qurssan

ابتسم للمفارقة حين تذكر أنه كتب نصائح هو أيضا، ذلك تماما ما كان يفعله الآخرون به ودائمًا ما كان يسخر من تلك النصائح، وطفت على الذاكرة نصائح بعينها، ظلت على مدى سنوات هى العالقة بالذاكرة، وهى الأكثر مدعاة لسخريته طوال الوقت، كان درج الكنبة الاسطانبولى قد امتلأ عن آخره بالقصص، لم يكن وقتها يملك مكتبًا ولا أية أدراج سوى درج الكنبة، ولم يفلح فى نشر قصة واحدة رغم سعيه الدائم على دور الصحف والمجلات ولكن دون جدوى، وفى إحدى المرات قابله أحدهم، روائى وصحفى وقصاص له أكثر من عشرين كتابا وقتها، أجلسه بجانبه وطلب له شايًا وقال له: يا عزيزى إذا أردت أن تكتب كتابة جيدة فإليك سبع وصايا ضعها حلقة فى أذنك وإلا فعليه العوض فيك:

الوصايا السبع

قال له: لا تكتب وأنت ممتلىء المعدة

وقال له: اشبع جنسيا أولا ثم أكتب

وقال له: حوم كالفراشة والدغ كالنحلة - فى قصصك طبعا -

وقال له: اكتب عما تعرفه وما لا تعرفه - سيان -

وقال له:

عصر ذهنه عله يتذكر بقية الوصايا، لكنها آنمحت تماما من ذاكرته فهز رأسه تأسفا، حتى الذاكرة أفلتت منه هى أيضا، يحدث ذلك كثيرًا خاصة فى الآونة الأخيرة، فقدان مفاجئ فى الذاكرة يجعله ينسى أقرب الأشياء إليه، من المؤكد أن بقية الوصايا تدور فى نفس المعنى، شطب الوصايا السبع وكتب بدلا منها: الوصايا الأربع لمن أراد أن يكتب. كانت الصفحات قد امتلأت فتوقف قليلا، وأخذ يقرأ ما كتبه وهز رأسه وأمسك القلم مرة أخرى وكتب أسفل الصفحة جملة أخيرة: كل هذا هراء.

* * *

t.me/qurssan

حارة على أبو حمد

t.me/qurssan

فى مديح الجدة

فى اليوم الموعود من ساعة ليل شتائية، ماتت الخضرة أم جدى وست أمى لما جاءت من مشوارها اليومى وفرطحت على حصير الأرض وماتت.

وبموت الخضرة صارت أمى يتيمة الست والجد، ومن أجل ذلك بكت مر البكاء على آخر الناس الطيبين الذين عاشوا قدر ما عاشوا لا أحد سمع لهم حسًا، ولسانهم كان ينقط شهدًا ولم ينطقوا بالعيبة أبدًا، وما الواحد منا إلا سيرة ـ هكذا رثت أمى جدتها لما سمعت الخبر المشئوم فجاءت «على ملا وشها» من بولاق الدكرور حتى كوم الضبع ليلاً فوصلت فى ساعة زمانية، وبين عينيها أن الموت أشد من ضرب السيوف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، وأن أهونه كما الشوكة فى الصوف، فهل تخرج الشوكة من الصوف إلا بصوف؟ كما قال إمام المسجد المجاور لبيتنا ظهر يوم جمعة، فبكت أمى لحديث الإمام، وبكيت أنا لبكاء الغالية بنت الأكرمين.

والذى حدث. حدث فجأة، فقد كانت الساعة ساعة ليل، وكنا نجلس فى المندرة الكبيرة التى بناها جدنا الأول فى زمن موغل فى القدم، طوبة من فضة وطوبة من ذهب، فلما جاء الطوفان، مات من مات، وفر من فر فى وجه الجائحة. فانهدمت الدار وأعيد إعمارها فبنيت بالطوب اللبن المخلوط بالتبن والقش حتى وقتنا هذا، فكان يجلس جدى وخالى وامرأة

t.me/qurssan

خالى حول المنقد عليه القوالح والعة ودخانها يملأ المندرة وعدة الشاى جنب خالى، حين دخلت علينا الخضرة بفرعها الطويل المائل للأمام، لم تلتفت إلى أحد، ولم تتحدث إلى أحد، بل اتجهت مباشرة إلى الحصير، بجانبى وجلست، ثم إنها مدت رجليها وفردت جسدها وقالتها طويلة ممطوطة فسمعها الجميع: أنا تعبانة، نفسى أنام. ثم إنها أغمضت عينيها وماتت، وخالى كان يصب الشاى الثقيل المغلى على نار المنقد لما التفت إليها وقال: بصوا فراياها ماتت، وتحقق الجميع من موتها. وركن خالى عدة الشاى على جنب وسبل عينيها وهمس فى أذنيها بالشهادتين، وأخرج منديله طواه ووضعه حول ذقنها ورأسها وربطه فصوتت امرأة خالى لما رأته انتهى، وبكى جدى وهو يضرب كفا بكف ويقول إنا لله وإنا إليه راجعون، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون يا أم. والتمت الناس وذاع خبر موت الخضرة زوجة عفيفى أبو راضى الراحل العظيم والعائش من أعمار الخلق مائة وعشرين ونصف سنة، وبانى مقام سيدى عبدالله الضبعى صاحب الكرامات المعروفة لكل من هب ودب وسعى على ظهر البسيطة، عاش سنواته يأكل من عمل يده حيث كان يعمل قصابا، وتمنى أن يموت على فراشه متكئًا فنالها، ودار النجابون فى القرى والنجوع والضواحى يسمعون الخلق: اليوم ماتت الكريمة بنت الأكرمين زوجة الأمين صاحب المقام، والحاضر يعلم الغائب. فهجت الناس وضجت وجاءت الركائب من كل البلاد للوداع الأخير.

والخضرة العارفة بقصص الأنبياء وحكايات الأولين، والتى ما كانت تمل روايتها لنا فى قاعتها المظلمة والتى ليس بها سوى فرن كبير بحجم القاعة كان يحمى أول الليل وتنام فوقه فى زمن سيد الناس الذى رحل وهى صغيرة فلم تنجب فى حياته سوى خمس بطون فقط، فأقسمت ألا يحمى الفرن وتنام فوقه بعد رحيل الغالى الذى قطع بها هى، فقط وتركها وحيدة

t.me/qurssan

بعد زواج عياله وعيالها، فكانت تذهب إلى مشوارها اليومى السرى آخذة معها فى كم جلبابها الأسود المتآكل رغيفين من عيش «البتاو» وفى جيب سيالتها تلقيمة شاى ناشف وسكر سنترافيش، رآها البعض ذاهبة إلى القرافة، وحين تصل تشوح بيدها جاهرة بالسلام، وأمام تربة عفيفى تجلس فى وضع القرفصاء وتظل تبكيه قدر ساعة زمانية، لا تكف عن البكاء حتى يحضر إليها، فيأكلان معًا ويشربان الشاى المعمول على عظام الموتى المشتعلة، ثم إنها بعد ذلك تتودع منه، وتتوجه إلى البحر حيث مقام مولانا عبدالله الضبعى الذى بناه عفيفى قبل أن يفارق، فتجلس هناك على شط البحر تتحدث إلى خلق، لا أحد يراهم سواها، ومنهم الشيخ عبد الله الضبعى نفسه الذى كبش من كنوز البحر وأعطاها، فأخذت ما تيسر حمله وغلا ثمنه وخبأته فى الفرن داخل القاعة التى لم يدخلها أحد سوانا فكانت تأمرنا بالجلوس دون حركة، وحتى لا نفكر فى البحث عن كنزها المخبوء، كانت تجىء بالمنقد، وتشعل عيدان القطن الجافة تسوى عليها الشاى المغلى الثقيل وتقول وهى تنفخ فى النار المدخنة وتشن وتمسح أنفها فى كمها المبلول دائمًا: أقول لكم على مسألة الجدع فيكم يعرفها، ليه ربنا سمى عزرائيل عزرائيل؟

كنا نعرف هذه المسألة وغيرها مما كانت تحكيه لنا دومًا بلا انقطاع، وكنا نخاف أن تعرف أننا نعرف فتغضب وتطردنا فنقول فى نفس واحد ما كنا نقوله فى كل مسألة: لا نعرف ياست؟

وكانت هى تفرح لذلك وتنظر إلينا من تحت، وعيناها تبرقان وأنفها الطويل المقوس يتلوى مع دخان الولعة ويرسم فى عيوننا أشكالاً لكائنات تخرج فى أحلامنا موحشة ومرعبة، وفى رهبة صوت الصمت نسمع صوتها آتيا من تحت الأرض: لأن أبانا آدم لما أراد ربنا أن يخلقه أرسل جبريل يحضر له حبة تراب من الأرض، فزعلت من سيدنا جبريل وأخذت

t.me/qurssan

على خاطرها وحلفته بربه، فرجع وما أخذ شيئًا، فأرسل سيدنا ميكائيل فعملت معه مثلما عملت مع جبريل فأرسل أحد الملائكة فلما قالت له ذلك زغدها بحربته فى بطنها وكبش من ترابها غصب عنها ورجع إلى ربه، فسماه عزرائيل لأنه لا يعذر أحدًا، وجعله ملاكاً للموت، وهذه وظيفته من ساعتها إلى أبد الآبدين، ليست له شغلة سوى أن يزغد الناس بحربته فيموتون. ويعلو صوت الخضرة فى بكاء متصل، وتتوقف لحظة عن البكاء وتتطلع إلينا وتقول: حد منكم شاف جدكم عفيفى؟ زغده عزرائيل بحربته وما عذره، كان ساعتها نائمًا على حجرى هذا، وتشير لحجرها وتبكى وتشن وجسدها الهزيل يهتز ولا تسكت إلا إذا رأتنا نخرج ما معنا من قروش فنعطيها لها فتضحك وتمسح وشها بذيل جلبابها وتقوم فجأة تشوح بيدها: أما أقوم اشترى تلقيمة شاى وسكر أحسن زمان سيدكم عفيفى ينتظرنى على نار.

والخضرة ماتت حين ذهبت إلى القرافة وجلست فى انتظار عفيفى فلم يطلع لها كعادته فأيقنت أنها لن تراه مرة ثانية بعد الآن، هو الذى عاش معها حينا من الدهر ما قال لها أف قط ولا نهرها، بل ظل يُسمعها قولاً جميلاً فأنجبت له خمسة بطون على التوالى، وحمت له الفرن كل ليلة حتى لحظة موته لما كان نائمًا على حجرها، وكان يضغط على عصب وركها بكفه الكبيرة تألمًا من مرض فجائى، فسمعت شهقته ورأته يرنو إلى الأعلى متتبعًا روحه التى فارقت جسده، توا، فقامت أشعلت وابور الجاز سخنت عليه ماء، وخلعت هدومه وحممته وألبسته جلابيته الصوف الأنجورى وعباءته وشال العياقة، أشياءه التى ما كان يرتديها إلا فى أمر جلل، فلما أتمت ذلك أنامته على ظهره فى اتجاه القبلة وفردت عليه الحرام الصوف، وقامت دارت على بيوت أولاده فى ساعات الصبح الأولى تخبرهم بموت كبيرهم..

t.me/qurssan

لكنها أقسمت أن عفيفى يجيئها كل ليلة بعد أن تنام الخلق، ويظل معها حتى أذان الفجر، ومن أجل ذلك هى تعيش حتى الآن.

كنت وقتها غلامًا لم يتعد العاشرة، وكنت مسكونًا بالجن والعفاريت وأموت فى جلدى من النسمة الطائرة، وكانت أحلامى ترتع فيها مردة وشياطين وعفاريت تخرج من تحت الأرض بعد منتصف الليل، وشاء حظى أن أذهب إلى قريتى فى الإجازة الصيفية وتموت الخضرة أمامى، ولا أعرف كيف حدث أننى نمت وسط اللمة التى تجمعت حول الميتة المدثرة بملاءة سرير من قدميها حتى وجهها، وكما نمت فجأة صحوت فجأة، وتلفت حولى فلم أجد غيرى وصوت الريح وهى تضرب شباك المندرة، وضوء اللمبة الصاروخ الموضوعة فى طاقة بالحائط يتراقص يكاد ينطفئ، وعلى الضوء الواهى كان وجه الخضرة الملتم يومئ لى، ولوهلة واجهتها فرأيتها تتحدث هى وعفيفى زوجها، وأنهما قاما من موتهما إلى الباب، ونفذا منه إلى الدنيا مرة أخرى.

t.me/qurssan

الشيخ البعيد

مر شهر بالتمام والكمال منذ أن جاءنى الهاتف للمرة الأولى، جاءنى مرتين بعد ذلك، كلماته لم تتغير فى المرات الثلاث، ظننتها فى بادئ الأمر مجرد هلوسات، لكن أن تتكرر ثلاث مرات فى مثل هذه المدة القصيرة وبنفس الكيفية: اذهب إلى شيخك وارم حمولك عليه، هو فى انتظارك فلا تتأخر.

كانت حياتى قد اضطربت منذ فترة على كافة الأصعدة، فلا شىء مما خططت له تم تنفيذه، البيت الموروث عن والدى والذى عرضته للبيع لم يشتره أحد، ظل مثل البيت الوقف، وكلما كان يمر الوقت كان الوضع يزداد تأزمًا، وكنت أطمئن الدائنين دائمًا بالتسديد أول ما يباع البيت، وفى الآونة الأخيرة، كان الأولاد يلحون فى ترك المنطقة العشوائية التى ما عادت تناسبهم، كنت أيضًا أطمئنهم، وزوجتى كانت أكثر شراسة من ذى قبل ولم يكن لها سوى مطلب واحد طوال سبعة عشر عامًا هى عمر زواجنا، أن تسكن فى منطقة تليق بها وبأولادها، كنت أطمئنها هى الأخرى، ولكن من كان يطمئننى؟

فى هذا الصباح الذى صحوت فيه مبكرًا على غير عادتى، وضعت فى حقيبتى بعض علب السجائر وبلوك نوت وقلم حبر سائل وبعض عناوين أصدقائى وتليفوناتهم، غادرت المنزل، لم أخبر أحدًا إلى أين سوف أتجه،

t.me/qurssan

أنا وحدى كنت أعلم، ركبت المترو حتى آخر الخط فى شبرا الخيمة، ووجدت الميكروباصات المتجهة إلى طنطا واقفة فى انتظار أدوارها، اخترت مكانا بجانب الشباك حتى أستطيع التدخين، انطلقت العربة فى طريقها إلى طنطا، وانطلقت أنا بأفكارى إلى مدنى الموحشة.

روح واحدة لقطة

علاقاتى بالمشايخ والأولياء قديمة منذ أن كنت طفلاً، كانت أمى تصحبنى إليهم يوم الثلاثاء من كل أسبوع، أول الزيارات تبدأ بالسيدة زينب، ومن هناك كانت العربة الكارو تأخذ الزوار إلى الحسين، ثم آخر المزارات أبو السعود الجارحى والذى كانت زيارته يوم الثلاثاء فقط، حيث كانت تقام حلقات الزار فى البيوت التى حول المقام، ذات مرة نزلت إحدى هذه الحلقات، كنت صغيرًا وقتها، وكانت لدى قطة ألعب بها لما خربشتنى، وبحركة لا إرادية أمسكت بالقطة الصغيرة وطوحتها فى الهواء فنزلت على الأرض بلا حراك، جاءت أمى على صوت الارتطام ورأت القطة على الأرض تلهث والدم يخرج من أنفها وفمها فضربتنى، وأحضرت بعض الماء رشته على القطة، سمعت أنا وأمى صوتًا آتيا من الجسد المسجى بلا حراك يشبه طشة الملوخية أعقبه دخان كثيف وكأن القطة تحترق ثم همدت حركتها تمامًا وماتت. فى الأيام التالية على موتها، بدأ يزورنى فى نومى رجل بلا ملامح، ما يميزه طاقية كان يرتديها على رأسه تخفى ملامحه، كان يضغط على رقبتى بيدين قويتين حتى أختنق وأرفس الهواء بساقى وذراعى، ولا ينقذنى من هذا الموت سوى استيقاظى وصراخى مناديًا على أمى لتخلصنى من أبى طاقية كما أطلقت عليه، درات بى أمى على الأطباء حتى داخت، اقترح عليها البعض أن تذهب إلى أبى السعود الجارحى صاحب السر الباتع والكرامات المعروفة، الطريق إلى أبى الكرامات صاعدة حتى سفح الجبل، مقامه يقع فوق ربوة عالية، حوله

t.me/qurssan

كانت النساء يفترشن الحصير ويجلسن، وقد وضعن أرجلهن تحتهن، باعة الفول النابت والخبز المقدد، والشاى يملأون المكان. اشترت لى أمى كوز ماء مالحًا، الماء نزح من بئر جنب المقام، قيل إنه نبع من تحت أقدام الشيخ حين جاء إلى هذا المكان الموحش، فشرب منه وتوضأ وأقام بجانبه ، فهو وصفة مجربة، كانت تناولنى كوز الماء المالح الصدئ لأشرب منه جرعات. ما تبقى من الماء تمسح به وجهى وشعر رأسى، ثم ترش الباقى فى وجهى. كانت تجلسنى على الحصير بجانب باعة الفول النابت وتطلب طبقين ورغيفين ونبدأ فى الأكل، قبلها، كانت تدخلنى المقام وتدور بى من حوله وتجعلنى أمسح بيدى على سياج النحاس الناعم الرطب والذى يسيج مقام الشيخ الجليل، لا تظهر منه سوى عمامة وضعت أعلى السياج، عمامة خضراء يفوح منها العطر كما يفوح من أربعة أركان المقام، وضوء أخضر يسرى فى المكان لا أعرف مصدره، لكنه كان يشعرنى بالراحة والسكينة وبعض الرهبة، كانت تخرج البُك الأسود الصغير من صدرها وتفتحه. تتناول بعض القروش القليلة التى تملكها تفرقها على محاسيب الشيخ الذين يملأون المكان، إلا أن ذلك كله لم يمنع شبح «أبو طاقية» من الظهور لى كل ليلة، ذبحت أمى بطة كبيرة فوق رأسى، ولطخت حوائط البيت بكفها، وأوفت نذرًا كانت تظن أنها نذرته ولم توفه، لكننى كنت ممسوسًا بكائنات خرافاتى التى لم يكن يراها أحد غيرى، وما كانت تنفع معى تلك الأحجيات. وشيخى البعيد ظل يلاحقنى. حتى بعد أن توفيت أمى وتزوجت وأنجبت، مازال يأتينى فى نومى، هاتفه يأمرنى بالرحلة صوبه، وهأنا ذا ألبى.

ملك

اجتازت العربة كوبرى بنها، وكنت قد انتهيت من تدخين ثلاث سجائر متوالية، فتحت الشباك على آخره فاجتاحتنى نسمة صباحية طرية

t.me/qurssan

أنعشتنى، فكرت أن لى مدة لم أذهب إلى طنطا وتساءلت: لماذا أنا مشدود دائمًا إلى هذه البلدة رغم بعدها عن مدينتى؟ هل هو الحنين إلى أزمنة قضيت وإلى أماكن أشم روائحها؟ أذكر المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى طنطا، كان عندى وقتها أقل من عشر سنوات، وكانت أمى تمسك يدى فى يدها وخالى أوقف عربة حنطور انطلقت بنا من محطة الأتوبيس إلى حيث قمنا بجولة فى المدينة، ربما كانت أمى أيضًا تحب هذه البلدة، كانت تتحين الفرص للزيارة والتبرك بصاحب المقام والكرامات، أذكر أنه فيما بعد، وحين أصبحت كاتبًا، كتبت مرة رواية وضعت فيها سيرة شعبية تسمى خضرة الشريفة، وهى تتحدث عن كرامات السيد البدوى الذى ذهب ليحرر خضرة الشريفة من أسر اليهودى اللئيم ورجوعه بالأسرى، لم يكن هناك مبرر فنى لوضع مثل هذا النص «بعبله» فى رواية حديثة هل هو نزق وشطح خيال جامح؟ هل هو الحس الفنى العميق والدفين الذى يرى مالا يراه الآخرون؟ لكننى أظل دومًا مأسورًا ومسورًا بسياج صاحب الكرامات الذى يدعى الملثم والسطوحى وأسماء أخرى تأتى فى السياق إذا ما وصلنا إليه فسوف نحكى عليه، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه.

كنت قد تلقيت دعوة من قصر ثقافة أسيوط الذى يشرف عليه الصديق الشاعر سعد عبدالرحمن لإقامة ندوة لى أتحدث فيها عن تجربتى فى الكتابة، واستأذنت منه أن آخذ زوجتى معى فأذن لى، كانت حاملاً وفى شهرها السابع وكنت أريد لها أن ترى الصعيد معى، فلا أنا ولا هى نعرف شيئًا عنه إلا من خلال المسلسلات التى تصوره مظلمًا كئيبًا، والصعايدة ما هم إلا قتلة وسفاحون يقتلون فى عز الظهر ولا يفعلون شيئًا فى حياتهم سوى الجلوس فى الطرقات المظلمة ببنادقهم انتظارًا لأخذ الثأر، هكذا كنا نتصور، حجزنا فى الدرجة الأولى المكيفة وانطلق بنا القطار يتهادى وسط

t.me/qurssan

مع محطة القطارات يفضى إلى الجامع مباشرة ويكون فى نهايته ما يشبه الميدان، على جانبى الشارع انتشرت محلات الحمص وحلوى السيد البدوى بألوانها البهيجة، اقتربت من المقهى المواجه للجامع بسياجه الحديدى المطل على الباحة الخارجية لصحن المسجد، المقهى مقسوم إلى نصفين، نصف يقع فى الخارج ملاصقًا للسياج الحديدى، النصف الآخر داخل جدران المقهى بظلاله الرطبة وسكونه فى تلك الساعة من النهار، اخترت مكانا أطل منه على باحة المسجد وجلست ملاصقًا لحائط المقهى وطلبت شايًا بالنعناع، كنت أشعر ببهجة كلما أتيت إلى هذا المكان، تذكرت أياما مضت ولن تعود كنت أنا وحسنى سليمان ناشر روايتى «العاشق والمعشوق» نأتى إلى هنا كثيرًا كلما أردنا أن نفك من جحيم القاهرة، وكان يفرح مثلى ويعتبرها نزهة، يصطحب زوجته التى تحضر لنا ساندوتشات وفاكهة وماء، نظل طوال الطريق نتحدث فى صخب وفرح مثل أطفال ونحن نسمع أم كلثوم وعبدالوهاب وفيروز بينما الشمس تغرب وآخر خيوطها يرسم قوسًا ذهبيًا فى الأفق، حسنى فنان حتى النخاع رغم أنه لا يكتب، لكن مزاجه وحبه لكل فن جميل وإنسانيته التى تدهشك بعفويتها وبساطتها، كل ذلك جعله مقربًا منى وصديقًا حميمًا، فما الذى حدث وأوقع الفرقة بيننا؟!

الشمس توسطت السماء وكوب الشاى بالنعناع أنعشنى، أخذت أتأمل المئذنتين المنتصبتين فى الهواء برشاقة على جانبى صحن المسجد الخارجى، وأطفال يلعبون بجانب أمهاتهم الريفيات وقد افترشن بعض الحصر فى الباحة الخارجية، وثمة رجل أمن يجلس على كرسى بجانب حائط فى حالة وسن، وعبر سرب من الحمام سماء الباحة وحط بشويش على الأرض وأخذ يلتقط الحب المبدور فى اطمئنان، كنت قد أحضرت معى نوتة تليفوناتى وكنت قد قررت الاتصال بأصدقائى جار النبى الحلو، عادل عصمت، أحمد عزت سليم، لكنى قررت فجأة أن أجلس وحدى، فما

t.me/qurssan

عدت أشعر برغبة فى الحديث مع أحد، بينى وبين الشيخ «عمار» وأشعر براحة نفسية فى المجىء إلى هنا، أعرف تاريخه جيدًا، ورحلته من المغرب العربى حتى وصوله إلى طنطا، عذاباته ومكابداته فى طريق الوصول إلى الله، كراماته التى جعلت منه علمًا من أعلام الصوفية وشيخ طريقة، له ست روايات شعبية، ما خفى كان أعظم، تعالى أذان الظهر من داخل المسجد فقمت دفعت الحساب وتوجهت إلى الميضة فتوضأت وتوجهت إلى الصفوف المتراصة: الله أكبر. طفت حول المقام وقرأت الفاتحة للشيخ وأخذت أقرأ فى لوحة معلقة على الحائط نسبه الشريف وشجرته التى تنتمى للعترة المحمدية، كذلك أسماؤه وألقابه والتى كنت أقرؤها ربما للمرة المائة، ثم عرجت إلى مقام سيدى مجاهد تابعه الأمين والذى تقع حجرته بالقرب من سيده، قيل فيما يروى عنهما إن سيدى البدوى عاش ملثمًا ولم ير أحد وجهه، وفى أحد الأيام أراد سيدى مجاهد أن يرى وجه سيده، كانت رغبته جارفة، فقال له أرنى أنظر إليك، قالها ثلاث مرات بينما سيدى البدوى يتجاهله وينهره ويقول له لن تستطيع تحمل رؤيتى. فقال له هذا لابد منه حتى ولو كان الثمن هو حياتى. فلما رآه مصرًا رفع اللثام، وما إن رأى النور الذى يشع من الوجه حتى خر ميتًا من وقته وساعته.

خرجت من المسجد وكان على المرور على بائع الكتب القديمة الشيخ حسن، يقع كشك الكتب الذى يملكه بالقرب من المسجد، كان رجلاً طيبًا سمحًا وعلامة التقوى محفورة فوق جبينه مثل قرش معدنى غامق، حين تعرفت عليه أدركت شغفه بالكتب القديمة مثلى، لكنه كان يعشق كتب الحظ والطالع وعلوم السيمياء، وعلى الأخص الكتب التى ترشد إلى فتح الكنوز، وله طريقته فى البيع والتى تعجبنى، إذ يقول لك هذا الكتاب وهبته كذا وليس ثمنه، لديه فسائل من تلك التى كانت تباع فى الموالد كنت أقتنى المئات منها، ذهبت إليه فرحب بى وجلب لى كرسيا خارج الكشك، كان هو

t.me/qurssan

يجلس بالداخل، وضع كنكة سوداء على وابور السبرتو وعمل شايا بدون سكر لى، قال وهو يرشف من كوب شايه: حمدالله على السلامة، سبحان الله، أنت تجىء إلى هنا ونحن نذهب إلى هناك قلت مستفسرًا: ماذا تقصد؟ أقصد أننا ذاهبون بعد صلاة المغرب لحضور الليلة الختامية لمولد سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه، بينما أنت تحضر فى نفس اليوم إلى طنطا لزيارة السيد البدوى، سبحان الله. ضحكت وقلت الشيخ البعيد كما يقولون يا شيخ حسن، هز رأسه وكأنه يتأمل الحكمة من وراء ذلك، ساد بيننا بعض الصمت قطعته بقولى:

أعطنى هذه الفسائل على أجد فيها جديدًا وأشرت إلى حزمة من الأوراق الصفراء كان يحزمها بخيط فأعطانى إياها، أخذت أقلب الفسائل المهترئة بحرص شديد خوفًا من أن تذوب فى يدى، عثرت على نسخة نادرة من أحد أجزاء السيرة الهلالية، كان بعنوان منامات الملكة شيحة، كما عثرت على سيرة شعبية لسيدى إبراهيم الدسوقى وأخرى للحلاج، كان الشيخ حسن قد انتهى من شرب كوب الشاى، وشعرت به يتأملنى، قال فجأة: رأيت بالأمس رؤيا عجيبة يا أخى. التفت إليه وقلت: خير يا شيخ حسن قال: رأيت فيما يرى النائم وكأنى أطفو فوق موج عال من الماء على البحر المحيط، وشخص أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول لى: اذهب يا شيخ حسن إلى المكان الفلانى، ووصف لى بدقة صفة هذا المكان وكيف أذهب إليه، ثم قال لى: ستجد بيتًا صفته كذا وكذا ادخل فيه واعبر مدخله وقف عند علامة ـ عينها لى ـ واحفر تحت قدميك، فسوف تجد كنزًا. هل تعرف مكانًا بهذه الصفة عندكم فى القاهرة يا عم خيرى؟ كنت أحملق فى وجه الشيخ حسن مأخوذًا بما أسمع، وحين انتهى من رؤياه كان قلبى يدق بعنف وقد تصبب العرق منى، فالمكان الذى وصفه بكل تفاصيله الدقيقة، كان هو بيتى.

t.me/qurssan

ليلة المولد

كانت الليلة هى الختامية للمولد النبوى الشريف، ومنذ الصباح الباكر بدأت الاستعدادات فى الشارع الكبير والمسمى همفرس، كانت كراسى المقاهى التى يمتلئ بها الشارع قد رصت، وأرض الشارع الترابية كنست ورشت بالماء وبقيت فى انتظار الزبائن الذين يرغبون فى الفرجة على المواكب من مواقع متميزة، مشايخ الطرق الصوفية جلسوا فى أماكنهم التى رسمت لهم من قبل ومن حولهم تجمع مريدوهم يحملون البيارق والأعلام، أما الطبول والمزامير ومجامر البخور، فكانت مكومة على جنب تنتظر بدء الزفة التى بدا أنها على وشك، والولد الصغير الذى صحا مبكرًا على غير عادته، جرى إلى شرفة شقتهم حتى قبل أن يغسل وشه، ألقى نظرة متفحصة على الشارع الكبير والذى لا يبعد عن مكان وقوفه سوى بضعة أمتار، ولما وجد الشارع خاليًا ارتد إلى الداخل مرة أخرى، لم يكن بالمنزل سوى أخته التى تكبره بعشر سنوات، وأبوه النائم متدثرًا بعباءته والذى بلغ من الكبر عتيًا، شعر الولد بوحدة قاسية وانكمش فى بعضه وهو يقف فى الصالة الخاوية والمفضية إلى الحجرة الوحيدة التى ينامون فيها، وأحس بالجوع فجأة فجرى إلى أخته وزغدها فى جنبها بكوعه يوقظها، وهى أحست به فتململت فى نومتها وغمغمت له أن يتركها تنام فى يوم إجازتها، لكنه قال بغضب: قومى أنا جعان يا أختى، البنت قامت فى تثاقل وربما

t.me/qurssan

كانت شبه نائمة حين أحضرت له قطعة خبز جافة وجبن قريش وضعتهما أمامه وجرت أكملت نومها، نظر الولد إلى الطعام فأحس بعدم الرغبة فى الأكل، وجرى مرة أخرى إلى الشرفة، كانت الحركة قد بدأت تدب فى الشارع، وأخذ الناس يروحون ويجيئون، وثمة رائحة بخور هبت مع نسمات هواء طرية، سمع الولد خروشة خلفه وصوت عصا تدب فوق بلاط الأرض فالتفت، كان الأب قد صحا واتجه متوكئا على عصاه إلى حيث يقف الولد فى الشرفة، وحين وصل إليه كان قد مر وقت، جلس الأب على كرسى كان موضوعًا فى إحدى زوايا الشرفة وفرد ساقيه ووضع العصا بينهما وأراح ذقنه على قبضة يده الممسكة بمقبض العصا، تطلع إلى السماء فلم يستطع النظر فى عين الشمس فظلل جبينه بكف يده وتمتم: حتى الشمس تحتفل بمولده عليه أفضل صلاة وأتم سلام. ثم نظر إلى ولده وقال: أنت صحيت إمتى؟ قال الولد وهو ينظر إلى قرص الشمس واضعًا كف يده على جبينه مقلدا أباه: من يدرى. ثم اقترب منه متمسحًا به وواضعًا كفه الصغيرة على كتفه وقال: أنا بحبك قوى، هو مش أنت كمان بتحبنى ومصالحنى. أخذه فى صدره وضغطه وتمتم: طبعا يا حبيبى، دانت من ريحة المرحومة. وعبرت سحابة داكنة من الحزن فوق ملامح وجهه فتغضنت ملامحه، وأصبح أكثر كهولة مما هو عليه، ومضت عشر سنوات فى عينيه كلمح البصر، زوجته التى يكبرها بأربعين سنة، لم تكن قد تخطت الثلاثين بعد حين حدث لها ما حدث فجأة وبلا مقدمات، محاسن هى ابنتها البكر، ومحمد كانت مرت ستة شهور على ولادته، حين اكتشفت نتوءًا صغيرًا فى ثديها فذهبت إلى المستوصف القريب من البيت، نصحها بعضهم أن تذهب إلى معهد الأورام، لكنها لم تأخذ فى بالها كما نصحها زوجها، ومع الوقت شعرت بشرخ فى صدرها كله جعلها لا تنام الليل، وبين عشية وضحاها، قطعوا ثدييها، لكنه كان قد تسلل إلى كل جسمها، وفى خلال شهر كانت فى ذمة الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال الرجل وهو يتنهد بينما الولد

t.me/qurssan

استكان فى حضنه، ثم رفع رأسه إليه قائلاً: مش حا تجيب لى حصان المولد؟ مش قلت السنة دى ها تجيبهولى؟ ربنا يسهل ويفرجها ـ قال الرجل، ونظر الولد إلى عينى أبيه مباشرة، وتذكر أنه قال نفس الجملة العام الفائت ولم يحصل على حصان المولد فأشاح بيده غاضبًا وجرى، تكوم عند ركن الشرفة واضعًا رأسه بين ساقيه وأخذ يبكى، وهز الأب كتفيه من قلة حيلته، لم يعد يقوى على العمل فجلس فى البيت وحيدًا ومهجورًا منذ زمن، ابنته محاسن تركت المدرسة وعملت فى محل ورد وما تقبضه من راتب يكفى بالكاد العيش والغموس، وفى أحيان كثيرة لا يكفى، وشعر بغضب بارد من عدم استطاعته تلبية رغبة وحيده فنهره قائلاً: بطل بقى تعيط زى العيال الصغيرة، وبطل كمان تشبط فى كل حاجة، أنت بقيت راجل. كف الولد عن البكاء، وأخذ صدره يعلو ويهبط حتى هدأ، وبمكر قال من بين ساقيه: طب وتسيبنى أروح المولد؟ ـ قال الرجل أخاف عليك تضيع فى الزحمة، وشعر الولد بشبه موافقة فانتظر واقفًا وقال بسرعة: ماتخافش، أنا ها أقف على ناصية الحارة ومش ها اتنقل من مكانى... جرى الولد إلى أول الحارة ووقف، وكان محل البقالة على الناصية قد وضع فتارين من زجاج بها حلاوة المولد، فى الفتارين رصت كفوف الحمصية والسمسمية والفولية والملبن وأشياء كثيرة ملونة وزاهية، وفوق الرفوف وضعت عرائس ملونة وأحصنة كبيرة وأخرى صغيرة يعتليها فوارس تحمل السيوف، وكان هناك حصان كبير بجناحين يعتليه فارس يحمل سيفًا يضعه فوق رأسه ويقف وحيدًا، قال الولد لنفسه: هذا حصانى الذى اشتهيته وحكت عليه أختى، قالت له مرة حين سألها عن أمه إنها صعدت إلى السماء، وسألها كيف يصعد إلى السماء كى يرى أمه؟ فقالت: إن أحدًا من الأحياء لم يصعد إليها سوى رسول الله بالبراق. وسألها: وما البراق؟ فقالت: عبارة عن حصان بجناحين طار بالرسول ليلة الإسراء

t.me/qurssan

والمعراج حتى السماء السابعة، وهى إحدى معجزاته. قال الولد لأخته: ألا يمكن أن تتكرر وأحصل أنا أيضًا على براق يصعد بى إلى السماء لأرى أمى؟ نظرت إليه ضاحكة وقالت: المعجزات للأنبياء فقط، فهل أنت نبى؟! سمع الولد دقات الطبول تعلن بدء المولد، كانت تأتيه من بعيد، وكانت كلما اقتربت ازدادت وضوحًا، ولمح من بعيد الأعلام والبيارق عالية مشرعة فى الهواء، وبدأ يميز الموكب الذى تهادى ببطء فى الشارع الكبير، حملة الطبول أولاً، طبول ضخمة يحملونها على صدورهم بسيور جلدية ويدقون عليها بقوة، ثم حملة الدفوف يرتدون الجلابيب البيضاء ويزينون صدورهم بأوشحة خضراء وعمائم من نفس اللون، كذلك حملة الصاجات، بعد ذلك حملة السيوف يمشون صفًا واحدًا ويتمايلون على أنغام الدفوف والطبول ويلوحون بسيوفهم يمينًا ويسارًا، ثم حملة البيارق والأعلام والصولجانات، وقف الولد مبهور الأنفاس يتفرج على الموكب الذى بدأ يقترب منه ويتجاوزه ثم توقف أمامه فجأة، توقفت الطبول والدفوف، وركع حملة السيوف وجباههم لامست الأرض، ووضع كل منهم سيفه على رقبته، وتصاعدت تراتيل ذات وقع جميل لم يكن يفهمه، وعبق الجو برائحة البخور، ومر عبر السماء طائر الكروان يردد رجع صداه جملته الأبدية: الملك لك. ومن بعيد، لمح الولد شيخًا انتفض جسده لرؤيته وانخلع له قلبه، كان مهيبًا بلحية بيضاء تملأ وجهه، وكانت عمامته الخضراء تزيده جلالاً ووجهه يتلألأ نورًا مثل جلبابه شاهق البياض، وكان يمتطى حصانًا خيل للولد أنه بجناحين، ويده تحمل سيفًا وضعه على رأسه تمامًا مثل حصانه الحلاوة الذى تمناه، واقترب الشيخ بحصانه من ظهور الرجال، وصعد عليها وصار يمشى فوقها، وتصاعدت أنغام التراتيل من أفواه الرجال، وخيل للولد أن الحصان يكاد يطير، وفى تلك اللحظة أراد الولد أن يرى أمه التى لم يرها من قبل فجرى ليلحق بالشيخ والحصان، وحين أصبح

t.me/qurssan

خلفهما تمامًا، مد يده فأمسك بذيل الحصان فأجفل وصهل، ورفس الولد فطيره عاليًا فى الهواء، واستأنفت الطبول دقاتها، وموكب الحضرة الزكية سار فى طريقه احتفالاً بالمولد، وعلى أنغام التراتيل. كان الولد يطير باتجاه قرص الشمس.

t.me/qurssan

عضة كلب (*)

كان راجعًا من عمله وقت الظهيرة حين دهمه الكلب، هل فوجئ بما حدث؟ نعم، فقد كان بحكم عاداته اليومية يمر عليه صباحًا ومساءً فيجده رابضًا بشكله المهيب أمام بيت الجيران، سنوات طويلة مرت على جلوسه هكذا منذ أن جاء إلى الحارة جروا صغيرًا يتمسح بأرجل المارة فيعاملونه كطفل من حقه الحصول على بعض التدليل حتى يبلغ ويكبر، من الذى أتى به؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يدرى، بل يعتقد البعض أنه ولد فى الحارة من أم وأب كانا يعيشان فيها، فى هذا البيت تحديدًا، وهناك حكايات تروى عن حادثة شهيرة يعرفها الكبار وكانوا وقتها صغارًا، فقد سمعوا الأم تنبح وتعوى ذات صباح من صباحات بولاق الدكرور، وحين ذهبوا إليها وتجمعوا حولها لمعرفة السبب، شاهدوا الأم تخرج من المنزل عدوًا وهى تجر مؤخرتها التى التصقت بمؤخرة أحد الكلاب الغريبة عن الحارة، بينما الكلب الآخر - زوجها - يعض ويخمش كلبهم بأظافره، كانت جرسة وقف الجميع يتفرجون عليها بسعادة غامرة، كان جميع أولاد الحارة يصفقون ويهللون فيما كان الكلب الزوج يتسلل خارجًا من الحارة ليختفى إلى الأبد. نما الكلب وكبر، وأصبح شكله مهيبًا، وألفه الجميع، ولم يكن ينبح إلا على وافد غريب، أما هذه المرة، فحين رآه وقف فجأة، ولما اقترب

(*) رؤية مغايرة لقصة "الحيل" التى نشرها خيرى عبدالجواد ضمن كتاب «الفتوح الكبرى» المعروف بحرب بلاد نمنم. (المحرر)

t.me/qurssan

منه كعادته قطع عليه الطريق متحفزًا، ودون أن يمهله قفز قفزة واحدة ناحية ساقه اليسرى وأمسك بها، دهمته المفاجأة. ولم يبد أية حركة وفى ظنه أنها مداعبة ثقيلة، لكنه أطبق بفكيه على الساق التى حاول شدها فتمزق البنطلون وأفلتت الساق للحظة، لكن الأنياب سرعان ما أطبقت مرة أخرى وانغرست فى اللحم بينما كانت زمجرة الكلب المكتومة تتحول إلى زئير، وعيناه تبرقان باحمرار مخيف ، وشعر بألم وسخونة تجتاحان جسده فصرخ وشد بقوة فتحررت ساقه، ركع على الأرض يتحسسها فامتلأت أصابعه بالدماء، نظر إلى الكلب فوجده يتحفز مرة أخرى للوثوب فالتقط حجرًا أشهره فى يده وأخذ يتراجع بظهره فى بطء، بينما عيناه مثبتتان على الكلب الذى كان يتراجع هو أيضًا حتى دخل كل منهما إلى مسكنه.

حين شمر مزق البنطلون عن ساقه كانت غارقة بالدماء، وحين رأت زوجته ذلك صرخت وخبطت بكف يدها على صدرها، وجرت أحضرت ماء غسلت به الجرح فظهرت صورة واضحة لأنياب الفكين العلوى والسفلى محفورة فى بطن الساق حفرًا غائرة عميقة، أحضرت قطنًا وشاشًا وقامت بتطهير الجرح وربطه، لم يؤلمه أول الأمر، لكنه فى المساء اجتاحته سخونة مصحوبة بألم لا يطاق، وتكون «حيل» على هيئة «بلحة» أعلى فخذه ظهر واضحًا جليًا لزوجته، ولم يعد يقوى على السير، وفى هذه الليلة لم ينم، وعند الفجر، انسلت زوجته من جانبه واتجهت إلى منزل الجيران، وجدتهم مازالوا نائمين، لكنها سوف توقظهم على أية حال. فللضرورة أحكامها، ورجلها سوف يروح منها، ولابد لها من الحصول على بعض الشعر من الكلب، هكذا يفعلون من قديم الأزل، هى وصفة مجربة لم تخب قط، ولابد أن يتم ذلك فى الفجر قبل أن تطلع شمس اليوم الأول على العضة وإلا فلا فائدة.

كانت البوابة الحديدية مغلقة بالجنزير والقفل، وعلى الضوء الواهى المنبعث من لمبة سهارى موضوعة فى طرقة المنزل، رأته رابضًا فى حوش المنزل واضعًا رأسه بين ساقيه الأماميتين فاردًا جسده الفارع، لم يكن

t.me/qurssan

نائمًا، وحين شعر بوجودها حرك اذنيه ، ثم رفع رأسه ببطء تجاهها فرأت عينين حمراوين تلتمعان فخافت، ورأت لسانه يتدلى من بين فكيه، وسمعت لهاثه قويا وعاليًا ولعابه كان يسيل على جانبى فمه، رنت الجرس فخرجت بعد مدة صاحبة البيت: خير ياختى، كفى الله الشرا فتحت الباب وأدخلتها، لمحتها تنظر إلى الكلب فى خوف فقالت: لا تخافى منه فهو لا يعض. تعجبت من كلامها وقصت عليها ما حدث، هزت صاحبة البيت رأسها فى دهشة وعقبت قائلة: إنها المرة الأولى حسب علمها، وعلى أية حال فهو ليس مسعورًا. ثم إنها أحضرت مقصًا وركعت أمام الكلب وجزت قطعة كبيرة من شعره دون أن يلتف إليها أو يتحرك. ها هى أخيرًا قد حصلت على حفنة من شعر الكلب فلتكمل باقى العملية سريعًا قبل فوات الوقت، وضعت بعض الزيت على النار حتى انقدح، رمت فيه حفنة الشعر فسمعت طشته وشمت رائحة دهن حيوانى، تركت المزيج حتى برد وصبته فى خرقة وضعتها على الساق، قالت: بالشفا إن شاء الله، وصفة مجربة . وكان هو مستسلمًا تمامًا فهز رأسه دون أن يتكلم.

غفل قليلاً، ورأي فيما يرى النائم أنه أكل زوجته وولده الوحيد فقام مفزوعًا يبحث عنهما، فزعت زوجته فأحضرت كوب ماء وناولته إياه، طوحه بيده وصرخ: أبعديه عنى، ابتعدى، وفى تلك اللحظة نظرت إلى عينيه فرأتهما حمراوين، ورأت فكه السفلى قد تدلى وبرز لسانه، أما لهاثه فقد أصبح صوته مسموعًا الآن، تحسست جبينه فوجدته ملتهبًا، حاولت عمل كمدات من الماء البارد، لكن حالة الذعر التى تملكته حين رأى الماء حالت دون ذلك، كان ينكمش فى بعضه وينظر إليها فى توسل لتبتعد عنه، أرجعت ذلك للحمى التى تملكت جسده.

فى المساء، خلعت عنه كل ملابسه،مسحت جسده بالخل والليمون كما نصحها البعض، كشفت عن الجرح فشمت رائحة كريهة وقد مال إلى السواد مكونًا ماء مصفرًا تنبعث منه رائحة لا تطاق، ربطت الجرح مرة

t.me/qurssan

خرى، وفى أثناء نومها صحت على صوت سعاله. كان يشبه عواء كلب صغير، ورأت لسانه يتدلى من بين فكيه، وسمعت صوت لهاثه فلم تصدق ما سمعته وراته. كان يزوم بينما لعابه يسيل على جانبى الفم المفتوح، وبدت ملامح الوجه أكثر غرابة، لكن الشىء المؤكد أنها رأت تلك الملامح قبل الآن. فتح عينيه فوجدها تنظر إليه فسألها عن ولده، كان نائمًا فى الحجرة الأخرى فأيقظته، ضمه إلى حضنه وأخذ يلعق وجهه بلسانه الذى بدا طويلاً ورخوًا، فى تلك اللحظة تذكرت أين ومتى رأت تلك الملامح من قبل، كانت نفس ملامح الوجه الرابض فى حوش الجيران، وبحركة غريزية مدت يدها وأخذت الولد من بين ذراعيه، نظر إليها بعينيه الحمراوين وخرج صوته مزمجرًا، وخيل إليها أنها سمعت نباحًا فجرت إلى الحجرة الأخرى وأغلقتها بالمفتاح، بينما صوت عوائه يتردد صداه طوال الليل.

فى الصباح قامت وفتحت الباب بهدوء، وتسحبت داخل الشقة تبحث عنه فلم تجده، نظرت من الشرفة فلمحته مطروحًا على الأرض أمام منزل الجيران، كان رابضًا فاردًا يديه وقدميه، ورأت الكلب رابضًا فى مواجهته، كان كلاهما ينظر فى عينى الآخر وينبح عاليًا، وتقوس ظهراهما استعدادًا للانقضاض، بينما عواؤهما أخذ يعلو ويعلو. وتجمع الناس فى الشرفات، وعلى أسطح المنازل، وأمام البيوت، وفى الشارع، وأخذوا يزحفون باتجاه المشهد الذى بدا أنه يقترب من نهايته المحتومة.

t.me/qurssan

المؤذن

ببطء شديد بربش بعينيه المغمضتين وفتحهما نصف فتحة، كانت الحجرة تسبح فى الظلام الشاهق فلا معالم لأى شىء، فقط الظلام الذى يبلع كل شىء، فى عتمته الشديدة، ولأن عينيه تعودتا على مثل هذا المنظر، وفى هذا التوقيت من كل يوم، فقط ظل محملقًا فى الفراغ، وبدأت الأشياء، تظهر ككتل ليست لها ملامح محددة فى العتمة الصماء التى خفت حدتها الآن، ظهر أن ثمة جدران ضبابية الملامح تحدد المكان، شيش الشباك الوحيد المغلق رأى ثنيات خشباته المرصوصة فوق بعضها البعض، ورأى قوائم السرير الذى يرقد فوقه مشرعة ومتماهية فى الفضاء المظلم، وسمع صمت الليل يصوصو مثل كتكوت فوجئ بخروجه المباغت من بيضته، كان مستلقيًا على ظهره فتقلب على جنبه الأيمن، واعتادت عيناه المكان الذى كان يحفظ معالمه فرآه دفعة واحدة، الباب فى منتصف الحجرة فى مواجهة الشباك، الحصير الخوص المفروش والممتد من أمام السرير وحتى آخر الحائط المواجه، بتدرجات ألوانه: الأخضر والأحمر والرصاصى عاشق ومعشوق، كان هذا الحصير هو آخر ما صنع بيديه،، قلة الماء الموضوعة فى صينية نحاس صغيرة على جنب، بعض الأشياء المبعثرة هنا وهناك. وزحزح الغطاء حتى أسفل صدره وتنهد، يشعر اليوم بتثاقل وعدم الرغبة فى القيام من السرير، انقلب على ظهره فهاجمته

t.me/qurssan

موجة من السعال وشعر أنه لا يستطيع التنفس فغادر مرقده وتحسس طريقه وكاد يتعثر بعصاه التى يتوكأ عليها الملقاة على الأرض حتى وصل إلى المكان الذى يعرف أن القلة موضوعة به. وامتدت أصابعه تعبث بالهواء حتى لامست عنق القلة فرفعها إلى فمه وأخذ يعب منها الماء عبًا لم يكن ظمآن، إنما اكتشف أنها الطريقة الوحيدة لإيقاف هذا السعال اللعين الذى يهاجمه فى الفترة الأخيرة، واستطاع أن يأخذ نفسًا طويلاً وصدره يهدأ، لكن زوره انجرح من الكحة الناشفة فبلع ريقه بصعوبة. أخطر مرات السعال ما كان بالأمس وهو يؤدى مهمته التى ظل يزاولها ستين سنة من عمره الذى جاوز الخامس والسبعين بسنين لايدرى عددها. فما عاد يهتم، الأيام مثل بعضها، تتشابه فى كل شىء واللى يبات فيه يصبح فيه، لكنها أبدًا لا تتشابه فى شىء فى واحد يشعر به عند انتهاء يوم وبداية يوم آخر، إن قواه تتلاشى وشعوره بالوهن يتنامى. عاد مرة أخرى إلى السرير ومدد بدنه وفرد عليه اللحاف القطن حتى منتصف صدره، وحملق فى سقف الحجرة وقدر أن الوقت لم يحن بعد.

تناقصت ساعات نومه فى الفترة الأخيرة حتى أنه يكتفى الآن بثلاث ساعات فقط فى الليل، وبعد الظهر ربما حظى بغفوة قصيرة لا تتعدى دقائق، لكنها كانت كافية بالنسبة له. كثيرًا ما يظل مستلقيًا بالساعات فى سريره دون أن يغمض له جفن، فقط يكتفى بالحملقة فى السقف أو فى الحائط المواجه للسرير طافيًا فى حلكة عتمته الخاصة والتى ما كان يبددها سوى إبحاره نحو ذلك الشىء الغامض الذى كان بعيدًا، لكنه أصبح قريبًا منه الآن، لا يعرف من أين سوف تأتى الضربة؟ وبأى كيفية؟ لكنها آتية لا ريب، مسألة وقت ليس إلا وهو بعد كل هذه السنوات التى عاشها لم يعد يخاف دخوله الأبدية، بل أصبح ينتظر هذا الدخول الأخير مستسلمًا ومهيأ دون ضغينة يحملها لملاك الموت الذى ضربه من قبل

t.me/qurssan

الضربة التى قصمت ظهره ولم يفق منها حتى الآن، فقبل العام الثانى والتسعين، كان الشمل مجتمعًا، زوجته التى يكبرها بثلاثين سنة، لم تكن قد حاضت بعد حين خطبها من أبيها المقرئ الضرير فى الجامع الذى يؤذن هو فيه، قال له إنه لن يجد من هو أحسن منه، ومهرها وصل، يا بنى خذوهم فقراء يغنكم الله، لكنها طفلة صغيرة، اصبر علَّى سنة، وصدق الشيخ وعده، لم تمر سنة إلا وكانت زوجته، رباها على يديه وأحبها فأنجبت له عبد الله ومحمدًا، عبدالله كان قد تخرج لتوه فى كلية التجارة حين حدث ما حدث، أما محمد فكان فى الثانوية العامة، وكان هو يعمل خواصًا، يجدل من الخوص قففًا وأسبتة ويكسب ما يقيم أود عائلته، أما الأذان فى المسجد، فكان تطوعًا منه لا يأخذ عليه أجرًا. حين جاء زلزال حياته فى العام الثانى والتسعين، كان الوقت يقترب من العصر، لذا فقد توضأ وصلى ركعتين تعود صلاتهما قبل الذهاب للأذان، كانت زوجته تعد طعام الغداء، والولدان جلسا على حافة السرير يتابعان مباراة فى التليفزيون الذى اشتراه خصيصًا لهما بالتقسيط، وبينما يسلم على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، أحس بالأرض تهتز تحته، وتمايل البيت القديم، وهم بالنظر إلى ولديه حين انتهى كل شىء فى لحظات.

ستة أيام كاملة ظل راكعًا فى وضع الصلاة لا يستطيع التحرك تحت أنقاض البيت، وفى ظلمته الحالكة كان يسمع أصواتًا تأتيه من بعيد أخذت تخفت حتى تلاشت، وفى اليوم السابع تم العثور عليه حيًا، لكنه كان قد فقد سمعه إلى الأبد، ولم يعد يرى سوى خيالات لا يستطيع تمييزها، وأدرك دون أن يخبره أحد أنه قد أصبح وحيدًا فتوحد بعزلته مسح دمعة ساحت على خده، وتمخض وغمغم: أصعب شىء أن الواحد يعيش بعد أولاده. ثم اعتدل وأسند ظهره وقال: الموت علينا حق، لكن الفراق صعب، خف ظلام الحجرة قليلاً وأصبحت خيالاته أكثر وضوحًا فقدر أن الوقت

t.me/qurssan

قد حان، رفع الغطاء عن جسده وحرك ساقيه فى اتجاه الأرض واستند بساعديه على السرير ونزل، جرجر ساقيه إلى ركن الحجرة، ورفع غطاء زير كان موضوعًا على حمالة وغرف بكوز من مائة، تعهدت جارته أن تملأ له الزير كل يوم، الله يكرمها ويوسع فى رزقها، غمغم وأخذ يصب الماء ويتلو الدعاء حتى توضأ فتنشف بالشال الذى كان لا يفارق رقبته، وبحث بأصابعه عن حذائه تحت السرير حتى وجده فارتداه، وتناول عصاه واتجه إلى الخارج وقفل الباب خلفه.

اصطبحنا وصبح الملك لله، سبحان الحى الذى لا يموت، صاحب الملك والملكوت، تمتم بالدعاء وهو يخطو ببطء متوكئا على عصاه مطمئنًا أنه سوف يصل فى موعده تمامًا كما يفعل كل يوم، ورفع بصره صوب الأفق حيث المئذنة مشرعة وسامقة أعلى من كل البنايات التى حولها ومضاءة بهالة من النور الأخضر الهادئ، كان يعلم أنها هناك سابحة فى نورها رغم عدم رؤيته لها، بل وحدد شرفة المئذنة التى يقف عليها، وفى لحظة من الثانية رأى نفسه واقفًا فوقها واضعا كف يده على أذنه مناديًا للصلاة. تبسم وهز رأسه يمينًا ويسارًا غير مصدق ما رأى، لكنه عدها من كرامات هذا الجامع الذى بنى على أطراف المدينة قبل بنائها بزمن، بنى بحجم مدينة صغيرة ولم يكن حوله أية بيوت، فقط المسجد الجامع بمئذنته السامقة وسط الحقول، من الذى بناه؟ ولماذا بناه بعيدًا عن العمار؟ ولأى غرض؟ وفى أى عصر؟ هذا ما لم يعرفه أحد حتى الآن، إنما هى حكايات تروى عن أحد أمراء النفط أراد عملاً يمكث فى الأرض، صدقة جارية تنفع الناس، أما المعمارى الذى بناه، فحكاية أخرى، قيل إنه بناه تطوعًا، وأنه استوحى شكله الخارجى من كافة عصور العمارة الإسلامية، وأنه بنى على قاعدة متحركة لا تتأثر بالكوارث الطبيعية، أما مئذنته، فكانت معجزة بكل المقاييس بما تحويه من طرز معمارية مختلفة، لكن خطأ فادحًا جعل

t.me/qurssan

هذا المعمارى العبقرى ينهى حياته بيديه، ذلك أنه بعد أن أنهى البناء، ووقف متأملاً يزهو بما صنعت يداه، تذكر أنه نسى تحديد مكان القبلة داخل المسجد فحدف نفسه من أعلى المئذنة.

المؤذن واجهته نفس المشكلة حين وطئت قدماه المكان قبل ستين عامًا، كان قد خرج من قريته شريدًا ضائعًا متجهًا إلى المدينة بحثًا عن عمل ومأوى، ولم يحدث أحدًا عن رحلته فى تيه المدينة بلا طعام أو شراب، حسبه لقيمات كن يقمن صلبه، مناجاته لربه فى لحظات ضيق نفسه: إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ تمثله لدعاء الرسول لحظة خروجه من أحب البلاد إلى قلبه، غفوته من تعب التجوال تحت شجرة، سماعه الهاتف يقول له: اذهب إلى المكان الفلانى ففيه بغيتك. ولم يكن يعرف هذا المكان ولا الطريق إليه، لكن قدميه ساقتاه عنده، مسجد كبير بحجم مدينة وحيد متوحد بذاته وبعيد عن أى عمار، كان مهجورًا فالتقى المهجوران.

شيد المؤذن لنفسه تعريشة من البوص ملاصقة للمسجد، والبوص الذى كان ينمو بكثرة وبلا صاحب كان يجمعه ويعمل منه خوصًا يصنع منه سلالاً وأسبتة وقففًا وحصيرًا يذهب ليبيعه فى المدينة ويرجع بطعامه البسيط فيأكل وينام فى المسجد. كان يعرف وقت الصلاة من خلال تأمله لظل الشمس على الحائط الخارجى للمسجد فيتوضأ ويصعد المئذنة ويؤذن بصوت منغم رخيم، حتى إذا ما انتهى نزل وأقام الصلاة ووقف فى اتجاه القبلة التى استطاع تحديد مكانها منذ يومه الأول حين صعد المئذنة ووقف يقلب وجهه فى السماء وتضرع إلى الله: فلتولنى قبلة ترضاها فلما أعيته الحيلة فى معرفة مكانها جعل يستفتى قلبه، ويقول: أينما وليت وجهى فثم وجه الله. هو فى كل مكان، ثم ولى وجهه نحو مشرق الشمس وأذن فى الريح بالصلاة، كان هو المؤذن ومقيم الصلاة والمصلى الوحيد فى ذلك الوقت، ولما بدأ العمار يدب فى المدينة وحول المسجد عرفه الناس وأحبوه، ونادوه باسمه وأضافوا لقبا ألصق به: الشيخ على الخواص.

t.me/qurssan

توقف فى منتصف الطريق، ومال قليلاً مستندًا إلى عصاه، وأخذ صدره يعلو ويهبط وضربات قلبه تكاد تقفز. مسح جبهته بكم جلبابه وتنفس عميقًا، وببطء أكثر استأنف سيره. وكان الجامع يقترب. وفكر أن أسوأ أيام حياته، حين استلمت المسجد وزارة الأوقاف فأشرفت عليه، وفوجئ بتركيب هورن كبير فوق المئذنة، وعرف أنهم بدأوا يؤذنون فى الميكروفون، وفهم أنهم يستغنون عن خدماته فاعتكف فى بيته قبل أن يخبره أحد، ولم تطل عزلته، فقد زاره وفد ممن تعودوا على رؤيته طوال سنين لا يعرفون عددها، وحين رآهم بكى وقال إنهم حرموه من الشىء الوحيد الباقى له والذى يعيش من أجله: أن يؤذن الوقت بوقته وقال: هل صوت الكهرباء مثل صوتى؟ حاولوا إقناعه، قالوا إن صوته بعد اتساع حجم المدينة وصخبها الذى لا يهدأ لم يعد يسمعه أحد، فكان لابد من الاستعانة بالتكنولوجيا مثل بقية المساجد الأخرى، وإن الوزارة هى التى تعين أئمة المساجد ومقرئيها ومؤذنيها الآن. عندما فرغوا من حججهم هز رأسه بانكسار وتهدج صوته: تحكمون على بالموت. إذن

على أنهم توصلوا لحل وسط: أن يؤذن من فوق المئذنة بصوته الذى لن يسمعه أحد، ويؤذنون هم من خلال الميكرفون، وهكذا عاد مرة أخرى، يصعد المئذنة خمس مرات فى اليوم الواحد، ولم يكن هذا بالشىء السهل على من كان فى مثل سنه، وهو ما حدث فى الأيام الأخيرة من تعب بدأ يحس به كلما صعد السلالم الصغيرة الدائرية والتى تشبه الحلزون، وفكر أن يقسم السلالم إلى حزم، كل حزمة تتكون من تسع سلالم، وفى آخر كل حزمة توجد بسطة كبيرة يستطيع التوقف عندها ليستريح ويمسح عرقه المتساقط دومًا من كل منابع جسده حتى أنه فى بعض الأحيان كان يغمر عينيه فيحرقهما، ولم يكن ذلك العرق له علاقة بالبرد أو الحر. مما جعله يمسك فى أصابعه دومًا منديلا قطنيا مخططا بخطوط زرقاء عريضة

t.me/qurssan

متقاطعة، والذى كانت تفوح منه رائحة عطنة رطبة هى رائحة العرق والماء. استطاع المؤذن أن يقطع شوطًا كبيرًا فى طريقه إلى المسجد، وأخيرًا وصل إلى السياج المحيط به، وأخذت أصابعه تدور فى الهواء حتى وقعت عليه فتشبثت به، كان يعرف مكانه بمجرد الاقتراب والدنو رغم عدم رؤيته له، ويعرف أنه يمشى محاذيًا للسياج فى دورة كاملة قبل أن يدخل من باب المسجد بعد أن يصعد ثلاث درجات. أخرج المفتاح من جيب السيالة وقبل أن يضعه فى فتحة الكالون سمى باسم الله وأداره فسمع تكة اللسان، ودفع الباب وخطا داخل المسجد، وتحسست أصابعه الحائط الذى على يمينه حتى عثر على أزرار الإنارة فداس عليها دفعة واحدة، كانت عادته قبل أن يروح النور من عينيه وظل مداوما عليها، سبح المسجد فى نور أبيض هادئ آت من لمبات الفلورسنت الكثيرة والمنتشرة على الحوائط، وثريا عملاقة كانت مدلاة فى منتصف السقف، وكان هو يسبح فى عتمته الخاصة الهادئة المطمئنة. فى الممر الضيق المغطى إلى المئذنة اتخذ طريقه صوب السلالم، وأمسك بالدرابزين الحلزونى واتكأ على عصاه وأخذ يصعد سلمة سلمة، وكلما صعد حزمة من تسع سلالم جلس على البسطة يلتقط أنفاسه ليستأنف صعوده مرة أخرى، ومر وقت طويل وهو يصعد، وبدت له السلالم بلا نهاية، وخيل إليه أنها تتوالد وتتكاثر، وأن المسافة طالت أكثر مما يجب هز رأسه مؤمنًا: نعم، ولابد أن حركتى اليوم أبطأ مما يجب، أيضًا كانت ضربات قلبه السريعة لا تتناسب مع بطء حركته، وصوت نبض قلبه كان عاليًا فى أذنه، تمامًا مثل صوت عصاه وهى تدب فوق السلالم الخشبية، وصداها يتردد فى فضاء المسجد مثل دوامة ذكرياته التى لا تهدأ وهفوف روائح أحبته، وحنين إلى حياة أضحت رميمًا، وضع قدمه على آخر سلمة فواجهته شرفة المئذنة بسياجها الدائرى، ولفحت وجهه موجة من الهواء البارد استند بجذعه على السياج الحديدى المشغول وبلع ريقه وحاول استنشاق بعض الهواء، لكن قدميه خذلتاه فوقع على الأرض،

t.me/qurssan

ولم يستطع مد جسده فى خط مستقيم، بل لف نفسه حول المئذنة وخرجت من صدره آهة عميقة وغاب عن الوجود.

كم من الوقت مر عليه وهو منطرح على الأرض؟ لا يدرى، وحين عاد لوعيه كان النهار يضىء الأفق، أدرك ذلك من صهد الشمس فوق وجهه، امسك بالسياج وشد جسده حتى وقف على قدميه. قال: مهما يكن، فلن يقيموا الصلاة قبل أن أؤذن، ولابد أنهم ينتظرون الآن. قرا الشهادتين بصوت خافت ثم كبر بصوته الذى تعود الجميع سماعه، وبدأ صوته متهدجًا متعبًا حين قال: الصلاة خير من النوم. وتحشرج ولم يعد مسموعًا لأحد وهو يقول الله أكبر الله أكبر. والصلاة التى أقيمت منذ فترة قد انتهت، وبدت جموع المصلين تخرج من المسجد وتتجمع أسفل المئذنة، ولمحوا المؤذن يقف أعلى المئذنة ويضع يده حول اذنه، لكن أحدًا لم يسمع صوته، وأحس المؤذن بسكين يشق صدره لحظة انتهائه، وانتفض جسده وهو يحاول استنشاق بعض الهواء، وشعر وكأن زلزالاً أصاب المئذنة فأخذت تتمايل ويتمايل معها، وترنح على السياج. الذى لم يستطع مقاومة ضغط الجسد فأفلته، ورأت جموع المصلين جسد المؤذن ينحرف من فوق المئذنة وخيل للبعض أن المؤذن لا يسقط، بل يطير إلى الأعلى وقد نبت له جناحان، وأنه أخذ يعلو حتى تلاشى فى الأفق.

t.me/qurssan

الملهم(*)

فى لحظة من لحظات كشوفاته الخاصة، والتى بدأت تنغص عليه حياته فى الآونة الأخيرة، خاصة، حين يوغل فى الميتافيزيقا فيطير من أمام زوجته مبحرًا نحو عوالم لا يمكن أن تراها أو تدرك كنهها. فقط تشوح بكف يدها، وتمسح العرق عن جبينها قائلة: أف. تقولها طويلة ممطوطة وملحنة ظل يسمعها فى هذا الفصل من السنة طوال خمسة عشر عامًا هى عمر زواجه منها، وبسماعه هذه الأف. تكون زوجته قد أعلنت عن بدء فصل صيفى جديد وساخن. فى لحظة، كان قد توصل لحل عبقرى سوف يخلصهما وإلى الأبد من هذا الحر الجهنمى، هذا الحر الذى يجعله طوال تسعة شهور لا يطيق سماع صوتها أو الاقتراب منها، فقط يجلس أمامها عاريًا إلا من سروال، وعلى ركبتيه يضع فوطة يقربها كل خمس دقائق من وجهه وصدره ماسحًا عرقًا لزجًا له رائحة الشمس وذرات الغبار. كانا فى وقت الظهيرة يبدآن الطقس فى صهد الشمس، ولا يخرجان من ذلك الجحيم إلا مع حلول الظلام، ساعتها، يزفران زفيرًا حارًا وصادقًا وكأنهما يفرغان الهواء الساخن من جسديهما ليحل محله هواء الليل البارد المنعش. ومن بين صوت أزيز المروحة وتكتكاتها. قال فجأة

(*) نشر خيرى عبد الجواد هذه القصة القصيرة ضمن كتاب "قرن غزال" تحت عنوان «العشة».. (المحرر)

t.me/qurssan

وكمن رجع توا من تهويماته: وجدتها. فنظرت إليه شزرًا بينما تمسح حبات عرق انزلقت إلى صدرها: فيه إيه؟

قال ومسح وجهه وصدره بالفوطة: تعرفى، لو عملنا عشة فوق السطوح نضرب عصفورين بحجر واحد: تحمى الشقة من أشعة الشمس صباحًا، هذه واحدة، ونقضى فيها فترة المساء والسهرة، وممكن ننام فيها أيضًا، كانت الفكرة بسيطة للغاية، ورغم بساطتها لم يفكر فيها طوال سنوات الحر، وعلى الرغم من اعترافه دومًا بأن الأفكار العظيمة لا تأتيه صيفًا، إلا أن المعجزة حدثت وجاءت الفكرة بنت صيف واضحة وضوح شمس يوليو، حتى أن زوجته اكتفت بالحملقة فيه غير مصدقة أكثر من ثلاث دقائق أطلقت آخرها زفرة حارة أعقبتها بأف ليست كالأفات السابقة، لكنه لم يستسلم لحالة الذهول التى انتابت زوجته، بل جاء بورقة وقلم وأخذ يحسب الأطوال والخامات المطلوبة والتكلفة بحماس أنساه الحر اللافح المحيط بعروقه وعظامه التى كادت تتحمص، بل حتى أنساه الفوطة على ركبتيه فأخذ العرق يتساقط على الورق ويمحو ما كان يخطه، إلا أنه واصل كفاحه مع الأفكار التى من كثرة تزاحمها أربكت مخيلته، من بين الخامات الكثيرة التى تصلح، اختار أرخصها، سوف يختار مواسير الستائر.. أربعة قوائم وعمود فى المنتصف وتثبت جميعها بالأسمنت والرمل فى المسلح، أما التعريش فالأنسب هو الحصر المعمول من البوص فيعطى ظلالاً ويسمح بمرور الهواء، وحين انتهى من حسابات دقيقة للأطوال وترجمة كل ذلك لأرقام مالية، أدرك أن التكلفة مناسبة فارتدى هدومه وخرج بينما زوجته تعوج فمها يمينًا وشمالاً وتشيعه بأف خرجت من أنفها هذه المرة، فى الطريق فكر فى فكرته فتعجب وضرب كفا بكف، له خمسة عشر عامًا لم تواته فكرة بهذا العمق، رغم أنه لم يتغير شىء، فمازال يسكن فى الدور الأخير، ومازالت حرارة الشمس تصيبه أحيانًا

t.me/qurssan

بالجنون فيملأ البانيو بالماء البارد ويستلقى فاردًا جسده ومصرًا على أن تأتى له زوجته بالطعام فى الحمام، ومن خلال الميتافيزيقا يتخيل نفسه على الشاطئ فى الساحل الشمالى فيشعر بسعادة، لكنها سعادة مؤقتة على أية حال، أما هذه الفكرة فهى دائمة. انتهى من تجهيز لوازم العشة، وشرع من فوره فى التشييد بعد أن حصل على إجازة لمدة أسبوع قدر أن البناء سوف يستغرقه ، وتقمصته روح مايكل أنجلو، واستدعى ما قرأه عن سيد البنائين، وبروح ملهمة كان يثبت القواعد ويملأ الفراغات ويقيم الأسقف، ونسى الشمس التى تلهب جسده بسياطها، ونسى زوجته، وغاب بأفكاره إلى وراء الأفكار والطبيعة فتذكر مثلاً أن يوم مولده كان علامة فارقة فى تاريخ أمه وأمته العربية من المحيط إلى الخليج. فبينما كانت أمه تصارع الطلق، وبينما هو يعلن عن ثورته على بطن أمه مستقبلاً أول وجوده بصرخة سمعتها الأرض والسماء، كانت ثورة الثالث والعشرين من يوليو تعلن عن نفسها هى أيضًا، لقد حاول مرارًا الخروج بدلالة ما تربط بين الثورتين: ثورة مولده وثورة يوليو دون جدوى، لكن ها هو فى تلك اللحظة يتوصل إلى قيمة ما، لعله كان الملتزم الوحيد بمبادئ الثورة الستة ومطبقًا بنودها على أسرته الصغيرة فى دقة وصرامة، وبينما يبنى ويشيد اكتشف أيضًا أن الإنسان لابد له من أن يموت، وأوجد خيطًا بين لحظة الميلاد ولحظة الموت، واقترب أكثر من حقيقة الوجود الإنسانى، وكاد يلمس بيده فكرة الجنة والنار. والوجود والعدم، والعلاقة بين الكتلة والفراغ، والزمن الوجودى، وأنه لا أحد فى هذا الكون استطاع هزيمة الزمن، حتى الأنبياء أنفسهم لم يفروا منه، وصارت العشة تقترب من كمالها وتظهر شيئًا فشيئًا كبناء ملهم صنعته يد صانع ماهر على مشارف اكتشافات فلسفية خاصة وعميقة، وبزهو كان يلمح الجيران يقفون على أسطح المنازل المجاورة يقضون الساعات فى تأمل هذا البناء المبهم بانبهار ودهشة، أما زوجته، فلم تكلف نفسها عناء إلقاء نظرة واحدة على ما يفعله، وربما حز هذا فى

t.me/qurssan

نفسه قليلاً، لكن عزيمته لم تفتر، بل على العكس ازداد حمية وإلهامًا، وكما قدر، فقد اكتمل البناء فى أسبوع، ووقف يتأمل العشة التى صنعها بيديه غير مصدق وتساقطت دمعتان من عينيه وانزلقتا فوق خديه فتركهما، تلك هى المرة الثانية فى حياته التى بكى فيها. كانت المرة الأولى حين ماتت أمه فبكى بكاء متصلاً لمدة أسبوع، فى البداية لم يكن يعرف كيف يبكى، وظل صامتًا ومحملقًا فى ذهول لجسد أمه المسجى بينما الجميع حولها يبكون ويصرخون، وخاف عليه الجميع مما اضطر أخاه الأصغر لأن يلكمه فوق فكه لكمة أطارت سنتيه الأماميتين، شعر بألم لا يطاق، لحظتها فقط انفجر فى بكاء متصل لم ينقطع مدة أسبوع، بعد ذلك توقف تمامًا عن البكاء رغم عاطفته الشديدة تجاه المواقف الميلودرامية والتى تزامنت مع صعوده وهبوطه فى السلم الوظيفى والاجتماعى على السواء. فمنذ أن حصل على شهادة مدرسة التجارة المتوسطة وتعيينه كاتب سكرتارية ومحفوظات بإحدى الهيئات الحكومية، أيقن أن حياته الفنية انتهت إلى الأبد، ففى صباه، كان يحلو له الابتعاد عن صحابه متوغلاً فى عزلته وفى مسالك لا يعرفها غيره، كان يترك قدميه تقودانه إلى أحراش بولاق الدكرور ومزارعها وحتى خراباتها جاريًا تارة وراء أبى فصاد، أو متأملاً فى الوطاوط وهى تحوم حوله ناسيًا نفسه تمامًا مع الضفادع التى تكتظ بها المصارف والترع منصتًا بأذنيه المرهفتين لنقيقها ذى الإيقاع الخاص، حتى إنه كان يرجع نقيقها بأصابعه فى فرقعات منتظمة، أو على ركبتيه بكف يده، ومن فمها تعلم إيقاعات الشعر العربى، ومنذ تلك اللحظة أيقن بولادة شاعر كبير ينتمى لأسلافه عبر خمسة عشر قرنًا، وبقليل من الحظ يمكن له هدم عمود الشعر وخلق عموده الخاص، غير أن وظيفته ولقاءه بزميلته فى العمل والتى سوف تصبح فيما بعد زوجته، قد جعلا شيطان الشعر ونقيق الضفادع يهجرانه إلى الأبد.

t.me/qurssan

لم يكن ما يراه أمامه الآن من قبيل المصادفة، فقد كان مؤهلاً دومًا لصنع شيء ما حقيقى وعبقرى، وها هى الفرصة جاءت، وها هو يلمح نظرات الإعجاب فى عيون الجيران الذين تقاطروا على الأسطح ليروا ذلك البناء المدهش الذى بدأت معالمه فى الظهور: عشة مربعة الجوانب، كل مربع صنع كما لم تصنع المربعات من قبل، وكل مربعين يكونان زاوية على النموذج المستحيل للزوايا، والأعمدة مغطاة بعناية فائقة بالبوص المجدول، وفى المنتصف تمامًا، كان يقف العمود الأساسى والذى ذكره ببهو أعمدة الكرنك، أعلى قليلاً من كل الأعمدة، مما جعله يحمل السقف بحيث يبدو مائلاً على الجوانب، وقد التف حوله عود لبلاب ذو أوراق خضراء عريضة، وبراعم نامية فى كل أطرافه، أما باب العشة، فقد رصت على جانبيه أصص الزهور والنباتات الملونة. وبضربة حظ، كان قد حقق ما ظل يتمناه طوال حياته: أن يوجد شكلاً للعمارة العربية يتفق مع المضمون، لقد أراد تحقيق ذلك حين تحول من كتابة الشعر إلى النثر عدة قصص يرد بها على الأجيال السابقة التى قال عنها إنها تحس بالدونية تجاه الغرب ولا تعتز بعروبتها، أما هو، فقد استوحى قصصه من البيئة الشعبية، ومن أشكال الحكى العربى، لكن نقاده الخونة تجاهلوه تمامًا فكف عن الكتابة وكاد يكره مشروعه العربى، أما الآن، فقد أنجز ما عجز عن إثباته شعرًا ونثرًا، وكما أتته فكرة بناء العشة بغتة، فاجأته فكرة أخرى لا تقل عبقرية وبساطة: سوف يدعو الأهل والأصدقاء والجيران ويفتتح العشة باحتفال تقدم فيه الحلوى وزجاجات المياه الغازية، فربما كان هذا البناء هو الإنجاز الحقيقى فى حياته الأكثر اكتمالاً وفرادة والأقرب إلى الواقعية الاشتراكية التى رضع لبنها منذ أوائل الخمسينيات وفشل فى تطبيقها مرارًا، ذلك أنه منذ أن تزامن مولده مع الثورة المجيدة، كان كلما وضع للوطن خطط خمسية، وضع هو أيضًا خططا خمسية لحياته باءت جميعها بالفشل، وبعد ثورة التصحيح بقيادة الرئيس المؤمن اضطر فى ظل ظروف الوطن

t.me/qurssan

السريعة والمتلاحقة لوضع خطة يومية لكل يوم على حدة وحسب طبيعة اليوم، ففى كل صباح كان ينظر إلى السماء قبل شروق الشمس بدقائق، وبعدها يقرر الخطة التى يسير بها اليوم، وآتت خططه أكلها فقد كان يعبر يومه بسلاسة دون ما يعكر صفوه، وها هو يغير من مساره فيضع خطة أسبوعية لبناء العشة تثمر ذلك البناء المدهش والذى يعبر به القرن الواحد والعشرين بخطى واثقة، ذلك القرن الذى لا يستطيع ملاحقة منجزاته العلمية واكتشافاته اليومية ومحاولة فهم تلك المعادلات الكيميائية المعقدة، لقد أرقته مثلاً فكرة الهندسة الوراثية حين وقعت عيناه على النعجة دوللى فى إحدى جرائد الصباح آذنة ببدء عصر جديد من الاستنساخ، وحاول محاولة جادة فهم بعض المصطلحات من قبيل الشفرة الوراثية والجينات والكروموسومات والحامض النووى والأحماض الأمينية والـ «دى. إن. إيه» وغيرها من الكلمات التى كان يشعر بوحدة قاهرة وهو يفكر فيها وفى حركة البويضة داخل رحم صناعى، ولم يكن يجرؤ أن يسأل زوجته كيف يحدث ذلك وهى الخبيرة بالأوضاع المثلى للبويضة، فقد أجهضت اثنتى عشرة مرة خلال خمس عشرة سنة ولم تفلح مرة واحدة فى استنساخ قطعة لحم تحمل اسمه وصفاته، وشعر أنه فى القريب العاجل قد يتمكن من ذلك، فالعلماء يعملون ليل نهار من أجله. تسرب الخبر إلى جيرانه ومعارفه، وأراد هو أن يكون أكثر تحضرًا فكتب دعوات اودعها أظرفًا وكتب أسماء كل من يعرفه، وفكر أنه لو أرسلها بالبريد فسوف تتكلف كثيرًا، وربما قد لا تصل إلى أصحابها فى الموعد المحدد، واستقر رأيه على تسليمها شخصيًا يدًا بيد، وشرع من فوره فى تنفيذ ذلك، فكان يخرج صباحًا حاملاً حقيبة هاندباج واضعًا فيها خطابات الدعوة، مارًا على كل معارفه، ولم تكن الكلمات المتبادلة بينه وبين مدعويه لتزيد عن بعض الجمل القصيرة والمكثفة مثل: يسعدنا أنا وزوجتى تشريفكم غدًا، أو مثل: سوف نفتتح كوخنا الصيفى ويسرنا وجودكم بيننا. ويصاحب ذلك دائمًا

t.me/qurssan

انحناءة خفيفة مع وضع يده على صدره، وكم كانت سعادته حين يعلق أحدهم: ها.. لقد رأيناه من سطح منزلنا وهو فى الواقع تحفة. أو: كم نتمنى الجلوس فيه لدقائق! أو: لقد أوحى لنا بعمل مثله. فيعتلى زهوًا وخيلاء، ويشعر بأن العمر لم يذهب هباء، وأن لديه الكثير من المشاريع التى لم يعلن عنها بعد، وانطلق فى وضع اللمسات الأخيرة فأحضر مزيدًا من أصص الزهور الملونة، وزرع على باب العشة فرع عنبة نباتى وأشجار لبلاب وورقًا فضيًا وعلق فى الداخل أحواضًا بلاستيكية تتدلى منها نباتات البوش الخضراء الزاهية، ووضع فرعين من لمبات صغيرة ملونة تضيء وتنطفئ فى حركة دائمة، ثم مزيدا من لمبات النيون ذات الإضاءة البيضاء القوية، على أن ما كان يؤرقه فى الواقع هو أن أساس العشة لم يكن بالمتانة، الكافية، فقد ثبت الأعمدة فى صفائح حبش عليها بالرمل والأسمنت، لكن الصفائح نفسها غير مثبتة فى شيء فلو افترضنا وقوع صفيحة، ولو أنه افتراض بعيد الحدوث، فسوف تجر معها كل الصفائح وكل الأعمدة وتنهار العشة، استبعد على الفور تلك الأفكار السوداوية فليس هذا وقتها وفى إمكان تلك الأفكار تدمير فرحته، لكنه لم يستطع الابتعاد عنها، خاصة حين يهب الهواء فتمتلئ به العشة فتهتز اهتزازات غير مريحة، وأخرج نفسه مرة أخرى من تهويماته، وأخذ يتفقد كل شيء للمرة الأخيرة حتى اطمأن من أن كل شيء سوف يتم وفق ما خطط له، سوف تكون ليلة من ليالى العمر، اختارها بدقة وعناية وجمع فيها أربع مناسبات كبرى: يوم ما هب الجيش وثار، ويوم مولده، ويوم زواجه، وأخيرًا يوم اكتمال بناء العشة، وابتسم ابتسامة داخلية هو وحده يعرفها كلما شعر بالرضا عن نفسه.

وأخيرًا حل اليوم الموعود، ارتدى أغلى وأعز ملابسه إلى نفسه، قميص وبنطلون زواجه، ورجع مثلما كان منذ خمس عشرة سنة، ظهر أصغر من سنه الحقيقية بذقن حلقت بعناية وشعره المجعد اختفى بعد أن استعان

t.me/qurssan

بسيشوار زوجته على فرده ودهنه بزيت الزيتون فظهر لامعًا. ومصقولاً ومرسلاً على جبينه، وأراد فى هذه الليلة أن يرتدى جديدًا فاشترى جوربين وحذاء من نفس لون القميص والبنطلون مظهرًا بذلك ذائقته الجمالية فى اختيار ألوان متناسقة وحالمة، أما زوجته، فقد كانت أكثر بساطة منه، أصرت على ارتداء حلة قديمة لم تكن ترتديها إلا فى المطبخ، لكنها كانت نظيفة ومعطرة، ونظر إليها وهى تقف بجانبه فى شرف استقبال المدعوين فأحس أنه لم يرها بهذه الشفافية من قبل، وبدأ المدعوون يتوافدون، ووقف وابتسامته لا تفارق شفتيه طوال الوقت موجها ومشيرًا إلى أن الاحتفال فوق حيث السطوح، حتى إذا ما أحس باكتمال المدعوين، انضم هو وزوجته إليهم، ووقف يتأمل الجمع المحتشد من أجله أمام باب العشة وقد ألصق عليه شريطًا من السلوفان الأحمر الشفاف، وبجانبه وضع مقصًا اشتراه خصيصًا لهذه المناسبة، وشعر بامتنان حقيقى لكل هؤلاء، واجتاحته لحظة رومانتيكية فكاد يبكى، لكنه تماسك، واعتلى طبلية كانت ملقاة فوق السطوح وتقمصته روح مارلون براندو كما شاهده فى الأب الروحى فقال بصوت جهورى: السيدات والسادة، الإخوة والأخوات، سوف أكون ممتنا لكم مدى حياتى أنا وزوجتى لتشريفكم وقبول دعوتى، فهذا دين فى عنقى، وسوف يبدأ احتفالنا معًا بقص شريط كوخنا الصيفى المتواضع، والآن، أقوم بشرح مبسط ومختصر حول الفكرة وكيف باغتتنى فجأة. وكيف بدأت مرحلة التنفيذ، والخامات المستخدمة، وانطلق فى حديثه وبدا أن لا شىء يستطيع إيقافه، وكان يمزج حديثه بالشعر أحيانًا، وبالحكم والأمثال الشعبية والنثر الذى كان يرقى كثيرًا فيصل فى بعض المواضيع إلى ذرا لم يحلم بها من قبل، وصفق الحضور فى بعض الفقرات فاضطر لإعادتها، حتى زوجته صفقت له وشعرت أنه الآن فقط أصبح ملهما وعظيمًا. ولما انتهى، قاد الجميع إلى باب العشة فقص الشريط، وتلقى تهانى لا حصر لها، وأخيرًا دخلوا العشة فكانت الموائد

t.me/qurssan

ممدودة على جانبيها، وفوقها رصت أطباق الحلوى وزجاجات المياه الغازية وانقسم المدعوون إلى مجموعات صغيرة تحدثت فيما بينها، وكان هو وزوجته يمران على كل مجموعة يعطيانها من وقتهما دقائق لينتقلا إلى أخرى وهكذا، ولم تكن الأحاديث الدائرة تخرج عن هذا البناء الرائع وعن تلك النسمات الطرية المنعشة التى يحسون بها، وعن الخطبة الرائعة التى سمعوها من فمه، فيشعر أن قلبه يكاد يتوقف من السعادة، ويمسك نفسه عن البكاء بصعوبة، ومع الساعات الأولى لفجر الرابع والعشرين من يوليو بدأت الريح تشتد قليلاً فتهتز العشة وتتمايل مع كل موجة هواء، وما حدث بعد ذلك كان مفاجئًا حتى إن أحدًا لم ينتبه له، فقد جاءت موجة هواء قوية، ومالت العشة بشدة على أحد جوانبها، ثم اعتدلت ومالت مع موجة أخرى، وأخذت تطقطق بينما انفلتت قوائمها، وجرى هو إلى عمود المنتصف فاحتضنه وطوقه بساقيه متشبثًا به والدهشة على وجهه، وأخيرًا انتبه المدعوون للعشة وهى تطير فى الفضاء ورأوه يرتفع مع العشة متشبثًا بالعمود، وأخذا يعلوان حتى غابا عن الأنظار.

t.me/qurssan

أمينة مرشد

كان آذان الفجر يأتى عبر النوافذ المغلقة متداخلاً بفعل سلسلة المساجد المحيطة بمسكنى الجديد والتى تنطلق معًا فى وقت واحد لتعلن أن الصلاة خير من النوم، وكنت قد صحوت قبله بدقائق قليلة على غير عادتى، فأنا لا أنام الليل أبدًا منذ أن كنت صغيرًا. تقول أمى إننى أخاف الليل، وإننى أهزمه بالسهر، وإن هذه عادتى منذ أن كنت فى اللفة، لكنى نمت مبكرًا فى ليلة استثنائية مما جعل زوجتى تستنتج بأننى ربما كنت مريضًا أو على وشك، لم يكن أول ضوء للنهار قد بدأ مشواره بعد، حلقت ذقنى ومشطت شعرى إلى الوراء ودهنته بالكريم فأصبح لامعًا وناعمًا، ونظرت إلى وجهى فى المرآة وابتسمت بسمة رضاء، فلم يكن وجهى شاحبًا كما هو دائمًا. بل ولمحت نظرة تألق فى عينى كانت غريبة عنى، كان صباحًا مختلفًا عن كل الصباحات الماضية، عرفت ذلك من صحيانى المباغت والنادر. ففى كل حياتى، ومنذ سبعة وأربعين عامًا هى كل عمرى، لم أر فجرًا مثل هذا، فجر يأتى فيجدنى قد صحوت توا من نوم هادئ ومستعدًا للقائه، مثل كل البشر العاديين، لا مثل فجرى أنا الذى يباغتنى دومًا وأنا مشرنق بجحيم الكلمات مكبًا فوق مكتبى وحيدًا ومتوحدًا بعوالم لا أحد يراها غيرى، بينما كائناتى تلتف وتحوم حولى ولا تتركنى حتى أنهك تمامًا فأنام حتى المساء.

t.me/qurssan

فى اليوم الفائت حلمت حلمًا راعنى وخوفنى رغم عدم معرفتى بتأويله، وانا عادة لا أتذكر أحلامى، لكنى تذكرته بكل تفاصيله، قلت لزوجتى: حلمت حلمًا، أخيرًا قالت وهى تبتسم ابتسامة اعرفها جيدًا، فهى لديها القدرة على أن تحلم فى اليوم الواحد عشرات الأحلام، سواء فى النوم أو اليقظة، كما أن لديها قدرات خاصة فى التأويل وفك رموز هذه الأحلام، كنت طوال الوقت أسخر من احلامها والتى من خلالها تتنبأ بما سوف يحدث فى حياتنا المستقبلية، وكنت أقول إننى لا أحلم، وهاهى ترانى مرتاعًا من حلمى فتبتسم. أحك لى بالتفصيل وسوف أنبئك بتأويله إن شاء الله.

حلم

كان البيت مكونا من طابق واحد، فى أية بقعة كان ؟ لست أدرى كنت أقف فوق سطحه المسور بكل أنواع الأشجار، الخلاء يحيط بالمنزل من كل جوانبه، بينما نمت أزهار شيطانية تلونت بكل ألوان الطيف، كان معى فى الوقفة ابنى الصغير أحمد، كان أحمد يلعب ويدور حول الأشجار والزهور حين فطنت إلى حيلة السطح، كان أحمد يختفى عن ناظرى وحاولت أن أجعل المسافة بينى وبينه ثابتة، وبدأت الأشجار تتحرك وتلتف حوله، وأخذ الماء الملون يعلو، وأحمد اختفى من أمامى لكنى كنت أحس به حولى وبجانبى، وربما كنت أسمع صوته يأتينى عبر الفضاء المضبب، وسمعت صراخ أحمد: إننى أراهم. ها هو أحمد رمزى أمامى الآن. من هو أحمد رمزى؟ كان الخطر من حولى يئز أزيزًا عاليًا ويشع ويملأ الفضاء. وكان يلفنا فى متاهته، وكنت أضيع فى المتاهة أنا وأحمد والماء كاد يغمرنا، ماء ملون لزج وله رائحة طازجة، وبدأت أقرأ آية الكرسى، آيتى. حبلى العاصم من شياطين الإنس والجن، وحين انتهيت، بدأت أميز الأشياء من حولى،

t.me/qurssan

وبحثت عن أحمد حتى وجدته، حملته على كتفى وأخذت أخوض فى الماء الغمراللزج وأنا لا أكاد أرى شيئًا، وفجأة رأيت سلم البيت المسكون أمامى فأخذت أنزل بسرعة فرحًا بالنجاة، وكنت أمام البيت حاملاً ابنى على ظهرى، حين فتحت زوجتى باب حجرة نومى فانتبهت.

تأويل

أما البيت فهو الدنيا، وسطحه هو الحياة على ظهر الأرض، الخلاء المحيط بالبيت هو الإنسان يأتى وحيدًا ويذهب وحيدًا يا مولاى كما خلقتنى، الأشجار والماء الغمر الملون، زخرف الدنيا ومتاهتها، لا عاصم منها إلا من كان صاحب عزم شديد، هل تدرى من أنقذك؟ قراءتك آية الكرسى، الآية الكريمة حفظتك، وزوجتك فى الحلم هى أمك فى الحقيقة، أقول قولى هذا والله أعلم.

قالت زوجتى: منذ متى لم تزر أمك؟ منذ مدة طويلة، قلت بينما يدى قابضة على الريموت تتجول بآلية عبر الفضائيات دون أن أستقر على شىء، تعلمين صعوبة السفر إليها، لا يوجد وقت لدى، وإن وجد فالسفر مكلف، واللى يعوزه بيتك يحرم على الجامع. لكنها أمك، هل أوصيك بها وأنت أكثر مخلوق حبًا لها، هززت رأسى تأسفًا، كلامك صحيح، فأنا لم أكن أطيق فراقها لحظة، حتى وأنا كبير، لدرجة أن الجميع كانوا ينادونى «ابن أمك» ولم يكن يغضبنى ذلك، بل أرجعه إلى الغيرة من تلك العلاقة التى كانت بيننا والتى كان يحسدنى عليها إخوتى، إنها ترسل إليك رسالة مشفرة قبل عيدها بيوم، هل تدرى ذلك؟ قالت زوجتى الخبيرة فى تعبير الرؤيا فانتبهت، غدًا هو يوم عيد الأم.

رحيل

رحلت أمى عنا فى نهاية العام الثانى والثمانين، تركتنا ومضت إلى بلدتها كوم الضبع، فضلت أن تكون بجانب أمها وأبيها عن أن تكون بيننا

t.me/qurssan

نحن صغارها، ومنذ أن استقرت فى كوم الضبع كنت أذهب كثيرًا إليها كلما أمضنى الشوق، كنت مرتبطًا بها أكثر من إخوتى، وفى إحدى المرات قلت لها إنها إذا رحلت فسوف أرحل معها، لن أعيش وحدى بينما هى بعيدة عنى فى بلدتها القديمة، حتى أبى فضل أن يكون بالقرب منها فتركنا ومضى هو الآخر، وها هى الأيام تثبت أن لا أحد يرحل وراء أحد، وفى هذا الصباح الجميل أردت أن أذهب إليها وحدى، ففيما بيننا كشف حساب كنت أطلعها عليه حين ألقاها، فى هذا الكشف أو التقرير المفصل أقدم بين يديها، ومع الشرح، كل ما مر بى من أحداث منذ أن تركتنا وحتى ساعة لقياها، تقرير شفهى غير مكتوب، لكنه محفور فى سويداء القلب بكل تفاصيله من أجلها هى وحدها، الأسئلة الافتراضية والتى كنت أتخيل أنها سوف تسألها، كنت أحضر إجاباتها مسبقًا، من ذلك مثلاً: أين أولادك وزوجتك؟ وكم طفلاً لديك؟ وفى أى السنوات هم الآن؟ وفى النهاية: كيفك أنت؟ وكيف أصبحت؟ وماذا فعلت فى دنياك؟ فى بعض الأحيان كنت أتخيل بعض الأسئلة المربكة عن علاقاتى بزوجتى مثلاً، هذه الأسئلة كانت تجعلنى أتصبب عرقًا ويحمر وجهى خجلاً أمامها فتأخذ رأسى بين كفيها وتغيبنى فى صدرها بينما لسانها يقول: هل مازلت تخجل وأنت طول النخل!

مر وقت طويل منذ رحليها، وكنت مشدودًا طوال الوقت للمكان الذى استقرت فيه، وكم كنت أتمنى وقتها أن أذهب معها، لكنها أرادت أن تذهب وحدها، ربما أرادت الخلوة مع نفسها، فقبل رحيلها المباغت كانت كليتها قد توقفت تمامًا عن العمل. وكان الغسيل الكلوى قد تحدد بثلاث مرات أسبوعياً، وحولها الألم الذى لا يطاق إلى روح توشك أن تتخلص من جسدها المعنى، فهل أرادت التخلص من كل ذلك بقرار رحليها؟

ركبت المترو حتى شبرا الخيمة، ومن هناك ركبت عربة ميكروباص كانت متجهة إلى الباجور، العاصمة الثانية للمنوفية بعد شبين الكوم،

t.me/qurssan

قدرت أن المسافة للباجور سوف تستغرق ساعة إذا كان الطريق خاليًا، ومن هناك سوف آخذ عربة تتجه بى مباشرة إلى قريتى كوم الضبع، مساحات الخضرة على جانبى الطريق تقلصت بشكل كبير، بيوت كثيرة بنيت فى وسط الزراعة وبالقرب من النيل، الذى بدا كشريط ثعبانى ضيق يكاد يختنق بفعل قصور الأثرياء، القرى الأسمنتية، تمددت والتحمت ببعضها البعض، كانت أمى تعشق النيل والخضرة، لذا فقد اختارت أن تسكن بالقرب منه لا يبعدها عنه سوى بضعة أمتار قليلة، ماذا على أن أقول حين ألقاها؟ هل أعتذر لها عن تأخرى فى رؤيتها كل تلك المدة وهى لا تبعد عنى سوى ساعة زمانية واحدة؟ هل أقول إن زوجتى وأولادى ومشاكل البيت والعمل وحياة القاهرة اللاهثة هم السبب؟ ولماذا أقوله وهى تعرف عنى كل شىء رغم بعد المسافة، أعرف أنها تعرف، وأنها تعد علىَّ أنفاسى حتى.. وربما كانت تعرف أيضًا كل ما أفكر فيه قبل معرفتى به، لكننى، وللتحايل، أخذت معى الطبعة الجديدة من «توهماتى» كى تراها، أليس هذا الكتاب كتابها هى، فيه رصدت مسيرة حياتها، من لحظة ميلادها وحتى مغادرتها لنا؟ نعم هى التى أرادت أن أكون كاتبًا كى أكتب قصتها مقطوفة من فمها مباشرة دون زيادة أو نقصان، أذكر أنها قالت لى مرة: هل تعرف الكتابة؟ هززت رأسى وقلت: نعم يا أم. طيب، سوف أملى عليك قصتى فوالله لو كتبت بالإبر على آماق البصر لصارت عبرة لمن يعتبر. وصارت تملى على تغريبتها الأولى والأخيرة من مسقط الرأس فى كوم الضبع إلى بولاق الدكرور المستقر، حيث عاشت وأنجبت وربت.

ترحمت وتأسفت على بيت جدى القديم المبنى بالطين والقش، وجرفنى الحنين إلى ظلاله الرطبة فى عز صهد الشمس، كانت العربة تطوى الطريق بسرعة قدرت أنها تجاوزت التسعين، والركاب نام بعضهم، البعض

t.me/qurssan

الآخر فضل الصمت ومتابعة مساحات الخضرة الباقية من خلال زجاج النوافذ، انتبهت لصوت فايزة أحمد يأتى من مسجل العربة رائقًا ومشحونًا بالشجن: ست الحبايب يا حبيبة.

توقفت العربة عند مدخل القرية، كان بيت جدى القديم والذى تحول إلى برج سكنى على يمينى، أعطيته ظهرى وعبرت الطريق الأسفلتى الذى يشطر البلد نصفين وتوجهت إلى الناحية الغربية حيث تسكن أمى، كان الطريق خاليًا ومشمسًا والصمت يلف المكان بغلالة شفافة من حزن يشع من الدور المتراصة بجانب بعضها البعض، لا شىء يميز أحدها عن الآخر فكلها متشابهة، السلام عليكم . رفعت يدى جاهرًا بالسلام وبصوت عال، لكن أحدًا لم يلتفت أو يرد، اتجهت مباشرة إلى حيث أعرف أنه مسكنها والذى يقع فى آخر الممر، كان مسكن أبى فى الجهة المقابلة لها مباشرة، كانت أشجار التوت البرى الذى كانت تحبه، تلقى بظلالها على البيت الواطئ، أشجار الصبار تناثرت على جانبيه، الباب الحديدى الصغير المغلق بقفل وضع فى قطعة قماش حتى لا يصدأ ينبئ بأن لا أحد بالداخل، لكنى كنت على يقين من وجودها خلفه وأنا ترقبنى الآن، نظرت إلى قطعة الرخام البيضاء المثبتة فى الجدار وقد كتب عليها بمداد أسود: أمينة مرشد، (١٩٣٥ ـ ١٩٨٢) هنا ترقد العائدة إلى حضن أمها الأرض، عليها سلام الله.

أطرقت برهة فى صمت، ثم رفعت رأسى فرأيتها تقف أمامى على هيئة الطير، كان وجهها يتلألأ فرحًا وطمأنينة، بادرتنى قائلة: أنت جيت يا ضنايا، حمد الله على سلامتك غيبتنى فى حضنها لحظة دون أن تمهلنى ثم تركتنى وتأملت وجهى وقالت: كبرت يا حبيبى، ربنا يعينك على وقتك، يا ربى، هتفت متعجبًا وأنا أتأمل ملامح الوجه الذى ظل على حاله

t.me/qurssan

حارة على أبو حمد

من أين أبدأ كلامى؟ وما هى اللحظة المناسبة للحديث؟ وما هو المدخل الملائم؟ وهل أوجز عباراتى وأضيقها على المعنى المراد؟ أم أبسط فى رطرطة الحديث حتى أسامر وأسلى دون ملل؟ فى الحقيقة لست أدرى كيف أنحاز، لذا فسوف أسوق حديثًا على عواهنه إلا من كلام يجر بعضه بعضًا، وسأبدأ بحارة على أبو حمد، فعلى قدر معرفتك بها أكاد أجزم بأنك لن تعرفيها الآن، الحارة تغيرت والأحوال تبدلت وسكنها ناس غير الناس، أجيال مضت وفارقت، وأجيال أتت واستوطنت، أعراف وتقاليد وسنن تبدلت وانمحت، وأعراف وتقاليد وسنن أنشئت فسبحان مغير الأحوال.

ما الذى تغير بالضبط؟ هل هى المبانى التى علت وارتفعت حتى التحمت ببعضها البعض فكونت ظلالا تحجب ضوء الشمس من الدخول إلى البيوت والشقق والحجرات والجحور الأقرب إلى المقابر منها إلى السكن؟ هل هى الناس؟ تعالى نعترف أن الناس تغيرت، فأم خليل ماتت، وخليل هجر حارتنا هو وإخوته: سمير هاجر فى أول مسعاه إلى أمريكا، ولما فشل عاد ليعمل بمحل ذهب وفضيات، تونة أخته تزوجت، كذلك عفاف التى كبرت حتى أصبحت تشبه عجوزًا شمطاء، أما مريم، تلك التى كانت موضوعًا لغزوات مراهقتى فلم أعد أراها الآن؟ ترى أين ذهبت؟ هل

t.me/qurssan

ولكن دون ألم . قلت: تعرفى، لم تكبرى، عندى صورة بها نفس الملامح منذ أن كانت صغيرة، أريها لأولادى دومًا حتى يعرفوا جدتهم، تعرفى، أنا أكبر منك الآن. هزت رأسها فى صمت فأكملت: جئت كى أقدم تقريرى لك، تأخرت قليلاً، ولكنى لن أتأخر عليك بعد الآن. وقبل كل شىء كل سنة وأنت فى القلب، فاليوم عيدك، ثم إننى جلست بين يديها وبدأت أحكى لها عن زماننا.

t.me/qurssan

مازالت جميلة كما كانت؟ فردوس، هل تذكرينها هى وإخوتها نعيمة وحنفى وفريدة، الجميع ما زالوا يدبون على وجه الأرض إلا حنفى توفى فى العام قبل الماضى وزوجته رجاء مازالت تمشى حافية وتجلس على ناصية الحارة بالساعات ترقب المارة، رجاء ذات جمال مخفى عن أعين الناظرين بمهارة، لا يستطيع رؤيته إلا من أوتى البصر والبصيرة، وأنور زوج فردوس فاروق دنياه بعدك مباشرة، أنور العايق الشاطر ترك فاطمة ابنته حتة لحمة حمراء فى بطن فردوس، وفردوس، وعن طريق السحر وحده، استطاعت اقتناص رجب كى يتزوج بفاطمة ابنتها الوحيدة، كل ذلك فصلته فى تقريرى السابق كيد النسا، هؤلاء البشر كانوا نسيًا منسيًا قبل ظهورى المباغت واقتناصى لحظات من حياتهم الهاربة فإذا بهم يصبحون أبطالاً يحيون فى بطون الكتب، لكنى أكرره للتذكر وكى لا ننسى وقائع حياتنا وحياة الآخرين وكيف تتفاعل هذه الحياة مع تلك، أم وجدى مازالت تحيا متوحدة بذلها الخاص، وهى كلما رأتنى تقول لى: إن أمك كانت حبيبتى رحمها الله، وأعلم علم يقين أنها ما كانت تطيق رؤيتك أبدًا. ثم لماذا كلما رأيت وجهها وجدته يقطر اصفرارًا وسماجة، كذلك أولادها، أولاد عمومتى الذين يرون أن زوال النعمة من الآخرين هو حق مكتسب لا ينازعهم فيه أحد.

حارة على أبو حمد تغيرت، العائلات القديمة اندثرت أو هاجرت، والحارة لمت أوباش الأرض، فهانى ابن تفريد مثلا، والذى ولد بعد رحيلك مباشرة، كان طفلاً مميزًا بشعره الأصفر ووجهه البرىء الجميل، وهو ضحية أمه وأبيه على أية حال، فالأب الذى سافر لجلب أموال الخليج اتهم بالسرقة وارتمى فى غياهب السجن هناك، والأم الشابة، والتى كانت حين تمشى تقول: يا أرض انهدى. لم تجد ما تفعله فى غياب الزوج السجين سوى أن تحترف سكنى الشقق المفروشة، ودون أب أو أم، نجح هانى فى أن

t.me/qurssan

يصبح مسجلاً خطرًا فى زمن قياسى، ودائمًا ما يتم اعتقاله فى أية جرائم ترتكب فى بولاق الدكرور، هو الآن يقضى فترة مراقبة، أى أنه يذهب من المغرب ليبيت فى قسم بولاق، وفى الصباح يعمل على توك توك استطاع تدبير مقدمته من الإتاوات التى يفرضها على المارة فى الحارة، ومن بيع البانجو أيضًا.

وهل تعرفين أن البنت وية بنت البرابرة بيتهم على الشمال فى منتصف الحارة هربت واختفت تمامًا، لا أحد يعرف لها طريق جرة، وخالها سيد هجر زوجته وطفش هو أيضًا، وزوجته مشت على حل شعرها، وأخت سيد، صباح، تعرفينها بالطبع، لأن لها واقعة معك أنت بالذات، دعينى أذكرك: صباح هذه كانت مخطوبة لصابر الذى سكن فى بيتنا، أجر حجرة فوق السطوح وعاش وحيدًا، أهل صباح أقنعوه أن يدخل فى جمعية معهم من أجل المهر والشبكة ومصاريف الفرح، وفى النهاية نصبوا عليه وأكلوا تحويشة عمره وزوجوا صباح التى كان يعشقها إلى غيره، فما كان منه إلا أن اشعل فى نفسه النار وأنت بنفسك من قام بإطفائه بالحرام الصوف الذى كان عندنا، كانت شجاعة منك نادرة، لكن النار كانت أكلته فمات، ومن أجل ألا يظهر عفريته فى بيتنا ويروعنا نحن صغارك، قمت برش العدس المطبوخ على سلالم البيت، كذلك دق المسامير على الأعتاب، صباح، تذكرينها الآن، هى الآن عجوز شمطاء تجلس على باب بيتهم تبيع الحرنكش والحلبسة لأطفال الحارة وربنا رزقها بولد عبيط ـ اللهم لا شماته ـ وعلى ما يبدو أن هذا البيت شؤم، طبعًا فالبيوت عتبات، وهل ينسى أحدنا ما حدث لبيت محمد أبو الدهب الملاصق لبيتنا، بالطبع تذكرينه، وهل تذكرين أيضًا ما حدث لسعيد فرجانى وأمه وأخيه الصغير، فبين عشية وضحاها خرجت ثلاثة توابيت تحمل (سعيد) وأمه وأخاه بعد أن تفحمت جثثهم، سعيد حكايته معروفة، وقد فصلتها فى توهماتى، أما

t.me/qurssan

من لم يعش تلك الحقب، أو لم يقرأ كتاب التوهمات، فإليه أسوق نتفًا من حكايات هذا المنزل الملعون وتلك العتبة النحس، سعيد فرجانى ابن جيلى، ولدنا سويا وترعرعنا فى الحارة درسنا معًا فى ابتدائية جمال عبد الناصر المشتركة والتى تقع على ناصية شارع رقم عشرة فى تقاطعه مع شارع همفرس، وحين كبرنا قليلاً، انتقلنا إلى مدرسة الأورمان الإعدادية النموذجية بالدقى، المسافة بين بولاق الدكرور والدقى كنا نقطعها مشيًا عبر طريق وزارة الزراعة، سعيد عرفنى على باعة السندوتشات الفينو والسجق، كانت عرباتهم منتشرة على الطريق وعرفت أن «سعيد» عقد معهم اتفاقا غريبًا، كان سندويتش السجق بثلاثة قروش، وكان مصروفنا لا يتجاوز القرش بأى حال، ونحن جوعى فما الحيلة ورائحة السجق المقلى فى السمن تدوخ الجوعى من أمثالنا، اتفق سعيد مع بعضهم على أن نأخذ سندويتش السجق بقرش صاغ فقط! فكيف كان ذلك؟

كانوا يضعون لنا فى رغيف الفينو الدهن الذى يحمرون فيه السجق، فقط الدهن المحمل برائحة السجق فكنا نأكله ونتخيل أنفسنا نأكل سجقًا بحق وحقيق، وسعيد لم يكن يحب المدرسة، لذلك فقد هجرها وعمل «حداد مسلح»، وصار يكسب الكثير ويزهو علينا بعلبة السجائر السوبر التى احتلت جيب قميصه الفوقانى هى والولاعة الرونسون، وقد لوحت الشمس وجهه فأكسبته سمرة جعلته أكثر رجولية منا.

سعيد أحب امرأة متزوجة وتكبره بسنوات، وكان سعيداً بهذا الحب الذى جعله متميزًا بيننا، كانت المرأة تسكن فى البيت الملاصق لبيت سعيد، وكنا نراهما يتناجيان كل يوم ساعة العصارى ونحن نقف فوق أسطح بيوتنا، كانت تطل على سطح سعيد من شباك المنور، ورأيناها جميلة بشعرها المنسدل على كتفيها الأبيضين فصارت عرضة لأحلامنا كل يوم، وسعيد أصبح بطلاً بلا منازع ورجلاً مكتملاً فى عيوننا. لكن دوام الحال من المحال، وأبوه تسلل وراءه ذات يوم ورآه يقف مع المرأة الجميلة فوعد

t.me/qurssan

بفضيحتهما وأنه سوف يجعل من لا يشترى يتفرج عليهما، سعيد تضايق جدًا من تصرف أبيه فرجانى الذى يعمل ساعيًا بوزارة الزراعة وأصله من عرب نزلة السمان بالهرم، فتشاجر معه شجارًا عنيفًا هدده فى نهايته إن هو تعرض لها فسوف يشعل فى نفسه النار ليريح ويستريح، وقد كان الشيطان حاضرًا فى تلك اللحظة فزين له أن هذا هو الحل الأمثل لردع أبيه، لم يكذب سعيد خبرًا وقام بدلق الجاز على رأسه وجسده، وإن هى إلا لحظة وكانت ألسنة اللهب تتطاير من الجسد الذى أخذ يصرخ مستنجدًا بمن يغيثه، الأم التى كانت داخل حجرتها خرجت لتجد فلذة كبدها مشتعلاً فحضنته تريد إطفاءه، والابن الأصغر حضن أمه مرتعبًا من المشهد، وبين عشية وضحاها خرجت ثلاثة توابيت من حارة على أبو حمد تحمل سعيد فرجانى، وأمه، وأخاه، وذلك مشهد لم تألفه الحارة من قبل، وسوف يحدث بعد سنة كاملة من هذا الحادث ما هو أشد، سوف يصاب الأب فرجاني بالسل ويموت دون حس ولا خبر، والابن الباقي من هذه العائلة المنكوبة ويدعي محمد سوف يصاب بالعدوي من أبيه ويلحق به، هكذا كتب علي هده الدار الهجران، بعد أن أتاهم من هو متربص بالمصائر، هادم اللذات ومفرق الجماعات، فسبحان الحي الذي لا يموت، صاحب الملك والملكوت، وقد أمسي علينا الليل، فإذا أحيان المولي عز وجل، فسوف أقص عليك في الغد تقريري الثاني وهو أعظم، فإلى الغد إذن يا أم.

كان الليل قد أرخي سدوله، ولمن لا يعرف، فإن وحشة المقابر لا تعادلها سوي وحشة الموت، ذلك السيف المسلط علي رقاب العباد، فكل نفس لابد ذائقته لا محالة، وإني لأعجب للإنسان، ذلك المخلوق الجبار الذي يعلم أنه مفارق لا محالة، ومع ذلك، فهو يعيش كأنه أزلي، يبني ويعمر وينجب ويجمع الثروات، ويقيم العداوات، ويدبر المؤامرات، وكأنه خالد ومخلد، فلله في خلقه شئون.

t.me/qurssan

استراحة

من الجبانة لبيت جدى مسافة قصيرة قطعتها مشيًا على الطريق الزراعى الذى يشق البلد إلى نصفين، كان بحر النيل على يمينى وأنا أحث الخطى، لم يعلم أحد بمجيئى منذ الصباح، وحمدت ربى أن أحدًا لم يمت فى هذا اليوم، وبالتالى فقد كانت الجبانة خاوية من المشيعين مما جعلنى أمكث معها وحيدًا ومتوحدًا بها ودون عجلة من أمرى، شاهدت دكان الجزارة القديم، يعد من أقدم البنايات المملوكة لجدى، ورثه عن الجد الأكبر عفيفى أبو راضى الذى كان يعمل قصابًا، مهنة لم يرثها أحد سوى خالى راضى شقيق أمى الوحيد على بنتين هما الجازية، وأمينة، تزوجت الجازية مبكرًا من حسن أبى صبيحة وعاشت فى أبى قتادة بالقرب من بولاق الدكرور التى سوف تقيم فيها أمى فى زمن آخر سوف يأتى ذكره إذا وصلنا إليه، نحكى عليه، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه، بالقرب من الدكان كانت المندرة الكبيرة، مقر إقامة جدى وزوجته بعد أن ماتت أم أمى جدتى زينب، من عائلة الرحايمة، اشتهروا بالطيبة وسلامة النية، ورثت أمى عنها صفاتها، وبالقرب من المندرة الكبيرة كان بيت خالى راضى وزوجته أم العز وأولادهما السبعة، أما آخر البيوت فكان للأخ الأصغر والوحيد لجدى، وهو عم أمى عبد النبى أبو راضى المتطوع فى سلاح الحدود، والذى أنجب كل أولاده من زوجته نعناعة فى العريش ورجع مشيًا

t.me/qurssan

بعد أن تاه فى صحراء سيناء فى حرب السابع والستين، حكايته معروفة، ولكن لمن أراد الاستزادة فسوف ألحقها بنهاية تقريرى هذا إذا شاء الكريم.

عندما اقتربت من أول الممر المفضى إلى المندرة الكبيرة، مندرة جدى مرشد عفيفى راضى، تخيلته جالسًا كعادته على الحصيرة الطويلة والتى كان يفرشها من المغرب، رأيته بقميصه البفتة الأبيض الشاهى والذى يصل إلى ركبتيه، ومن تحت القميص كان الكلسوم، والذى لم يكن يخلعه صيفًا أو شتاء، وفوق كل ذلك الصديرى بجيوبه الكثيرة والمنتفخة بمحفظة يضع بها الأوراق والنقود، ومطواة قرن غزال لم تكن تفارقه قط، كان طويلاً مثل شجرة سرو، ورشيقًا مثل غزال، ووجهه الأسمر بملامحه الدقيقة يوحى بالطيبة والاستقامة، كان يفرح بى كثيرًا كلما رآنى، فأنا ابن أمينة، ابنته الصغيرة المفضلة، يأخذنى فى يده إلى البحر يحمل صنارتين من البوص الطويل، يقول لى ضاحكًا عاوزك النهاردة تغدينا سمك، جدتك منتظرة السمك اللى ها تصطاده. ينظر لى وابتسامته الطيبة تغمر وجهه، نجلس على شط البحر ويخرج كرة من الطين ملفوفة بالورق، يقسمها نصفين ويأخذ منها الدود الحى والذى يتلوى بين أصابعه ويرشقه فى سن الصنارة، يفعل هذا فى صنارتى وصنارته، يقول لى بص لى وشوف أنا هاعمل إيه واعمل زيى، يطوح بخيط الصنارة من وراء ظهره فى الهواء ثم يطوحها مرة أخرى لتستقر فى الماء، يقول لى: السمك بيشم الطعم، ييجى ياكل تقوم الصنارة شابكة فى حنكه، يضع طرف البوصة تحت فخذه ويخرج علبة الدخان المعدنية من جيب الصديرى ويأخذ فى لف سيجارة، بعد أن ينتهى يضع فم السيجارة المدبب فى مبسم من البوص صنعه بنفسه ثم يشعلها بولاعته الرونسون ويأخذ نفسا عميقًا ينفثه ببطء وتلذذ.

t.me/qurssan

جدى تزوج بعد وفاة جدتى بأخرى من العزبة المجاورة لكوم الضبع. وأمى هى التى زوجته بعد أن قالت له: لن أتركك تعيش وحيدًا بعد أمى. وعاش جدى سنوات كثيرة أنجب خلالها وهو فى السبعين ولدًا أسماه «سعيد» أصبح أخا لخالى راضى يقاسمه فى كل شىء.

رفض جدى أن يتعلم الجزارة، صنعة أبيه عفيفى، وبدلا منها تعلم قيادة السيارات، وظل يعمل على عربة نقل حتى آخر أيام حياته، بينما الذى احترف الجزارة هو خالى راضى الذى ابتدع طقوسًا للذبح لم تكن مسبوقة من قبل، كأن يزف الذبيحة بالطبلة والمزمار ويدور بها على بيوت كوم الضبع بيتًا بيتًا، مناديًا والعيال يرددون وراءه: من دا بكره .. بقرشين.. عند الحاج راضى .. بقرشين.

لم يكن جدى جالسًا كعادته، وكان الممر المفضى إلى مندرته مظلمًا وموحشًا، البيت الكبير أقفل بعد وفاة الجد وزوجته، والابن الذى جاء على كبر سافر إلى الخليج للعمل فى أى شىء، أما مجموعة البيوت الأخرى، فقد كانت على التوالى: بيت عفيفى راضى، ابن خالى البكر، ثم بيت خالى، وأخيرًا بيت عم أمى عبد النبى أبو راضى، خاض ثلاث حروب وخرج منها مثل الشعرة من العجين، لم يخدش حتى .. قضيت الليلة الأولى فى بيت خالى، البيت موحش بعد رحيله، فى هذه الحجرة المطلة على الشرفة الخارجية للبيت، وعلى هذا السرير الذى أنام عليه الآن، قضت أمى لحظاتها الأخيرة، الثانى من ديسمبر من العام الثانى والثمانين، العربة تخرج بنا من حارة على أبوحمد، كنا بالليل، وكنت قد رجعت لتوى أنا وهى من المستشفى وقد دخلت فى غيبوبتها الأخيرة، الطبيب حين رآها أومأ لى وهمس: خذها إلى البيت فورًا، لا تريد لها البهدلة. رجعت أنا وهى المتوحدة بموتها، كان الجميع يعرفون أنها تحتضر إلا أنا، فقد تصورت أنها لا يمكن أن يصيبها ما يصيب جميع البشر، وكان القرار بعودتها إلى

t.me/qurssan

مسقط الرأس بمثابة الحكم بإعدامى أنا المتوحد بها، كنت أضعها على صدرى داخل العربة، وذراعى تحيط بها، وكان جسدها دافئًا ولا تنطق عن الهوى، إن هو إلا نفس يتردد واهنا، بعد لحظات سوف تنتزع هذه الروح منى وإلى الأبد، رحلة العودة لا تشبه رحلة الذهاب، ثمة أمل ما فى الذهاب، الإبحار نحو المجهول، أما العودة فتعنى اكتمال الدورة، وما بين الرحلتين يقع الموت، ذلك السيف المسلط على رقاب العباد، السهم الذى ينطلق لحظة الميلاد، وما بين انطلاق السهم ولحظة وصوله، تقع الحياة.

على هذا السرير والمطل على الشرفة الخارجية لمنزل خالى كنت أتمدد، نفس هذا السرير شاهد حوادث كثيرة، ولو كان بإمكان الأسرة أن تختزن ذكرياتها لباحت بالكثير، فمثلا: تزوج خالى على هذا السرير، وعلى هذا السرير أنجبت أم العز زوجة خالى تسعة أولاد، تأوهات كثيرة شهدها هذا السرير، تأوهات تقع بين الموت والميلاد، وأخيرًا شهد السرير موت أمى وكفى أن يحمل تلك الذكرى كى يصبح أخى فى الألم.

اليوم الثانى

صحوت مبكرًا على غير عادتى، أصحو دائمًا قرب العصر، عادة لازمتنى منذ أن كنت صغيرًا. أفطرت فطورًا مكونًا من أقراص الطعمية السخنة والعيش السوقى والفلفل المقلى، ثم شربت شايًا ثقيلاً وتسللت خارجًا، كانت الجبانة قديمًا تقع أول البلد، عند المدخل الجنوبى، وعلى الطرف الغربى من البحر، ولم تكن فى يوم ما سكنًا للأحياء، اللهم إلا التربى وزوجته وأولاده. والغريب أنها لم تكن موحشة فى يوم ما، حتى قبل أن تدخل الكهرباء القرية، لم تكن الترب معزولة عن القرية. فطوال الوقت كان الأحياء يزورون الموتى فى الطريق من وإلى بيوتهم أو أراضيهم، الآن، الوضع اختلف، لم تعد الجبانة على الأطراف، بل التحمت فى القرية التى تمددت وتوسعت من كل الجهات، وبنيت عدة بيوت بالطوب الأحمر

t.me/qurssan

والأسمنت على أطراف الجبانة تنبعث منها الأنوار طوال الليل وأصوات التلفزيونات الملونة والتى لا تهدأ صباحًا ومساء بعد أن تم توصيلها بأطباق الستالايت، اتجهت إلى الممشى الضيق والذى تحفه البيوت على جانبيه. وما إن قطعته حتى وجدتنى فى مواجهة شواهد القبور على جانبى الممر الضيق، ورفعت يدى جاهرًا بالسلام: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون، كان منزل أبى يقع على يمينى فى الأول فتوجهت إليه، قرأت على الرخامة البيضاء المستطيلة والمثبتة فوق الباب الحديدى الصدئ المرحوم محمد على عبدالجواد (١٩٠٨ ـ ١٩٩٦) قرأت الفاتحة على روحه ودعوت له، ثم قرأتها على أموات المسلمين جميعًا وخصصت أخى الكبير حمدى المدفون مع أبى، ثم أعمامى جميعًا أشقاء أبى، لم يبق منهم أحد، ومسحت كفى يدى فى وجهى ومضيت إلى وجهتى حيث أمى، فى الممشى الضيق المترب كنت أتقدم مطرقًا برأسى إلى الأرض فى لحظة تأمل شفيفة حول قطعة من دمى ولحمى وبعض روحى، ذلك الرجل الذى مررت عليه منذ لحظات مرور الكرام دون وقفة اعتبار، إنه أبى، كان مجهولاً لى طوال الوقت، وربما لم أعرفه سوى بعد رحيله، هل نحتاج دائمًا إلى الزمن والمسافة كى نفهم ما كان مخفيًا عنا طوال الوقت الآن، والآن فقط، أعرف أن أحدًا من إخواتى الاثنى عشر ما كان ليشبهه مثل الشبه الذى بينى وبينه، وأنى أنا وحدى الذى يحمل كل صفاته التى كانت تجعلنا متنافرين طوال الوقت، قلت ربما يجىء الوقت لفتح هذا الملف الشائك، وهو حديث شرحه يطول، أما الآن فقصدى ومسعاى صوبها، كان منزل أمى يقع آخر الممر الطويل من جهة الشمال ورأيتها جالسة فوق شاهد القبر تنتظر، كانت على هيئة الطير كما شاهدتها بالأمس، لكن وجهها كان أكثر ألقا وتلألؤا عن ذى قبل ، صبية ذات وجه جميل وهادئ بلا مرض ولا ألم ، رأيتها مرة واحدة فى حياتى على هذه الهيئة، كنت آنذاك طفلا صغيرًا لم يتعد العاشرة حين ذهبنا أنا وهى فقط إلى كوم

t.me/qurssan

الضبع، ورأيتها تجهز نفسها للتصوير، كانت ترتدى جلبابًا قطنيًا مشجرًا وتضع قمطة على رأسها، وكانت تبتسم ابتسامة نورانية وهى تنظر إلى الكاميرا التى يحملها أخى محمد بينما تقف فى الوسط وعلى يمينها جدى مرشد بسمرته الجنوبية وهو يرتدى الجلباب الأبيض الشاهى، وعلى يسارها خالى راضى وكان فى كامل فتوته وشبابه، تلك صورة لا تنسى، وحين ذكرتها بهذه الصورة تبسمت وقالت ابدأ . فقلت سمعًا وطاعة يا أم.

.. ثم إننى تهيأت بوقفتى لرحلة غريبة وعجيبة... فاللهم يسر وأعن..

t.me/qurssan

محارب الظل

أعلنت حالة الطوارئ فى بولاق الدكرور كلها. وتكونت فجأة لجان سميت بلجان الدفاع الشعبى اتخذت لها مقرًا فى مبنى الاتحاد الاشتراكى القديم ـ مبنى ما بعد الثورة ـ فى قلب جنينة الخواجا همفرس، مهندس الرى فى عهد الملك فاروق الأول، ملك مصر والسودان سابقًا، المهندس بنى له قصرًا بحديقة هائلة وسط أحراش بولاق التى كانت على شمال الدنيا فى ذلك الوقت، سمى القصر بـ «قصر الملذات»، حيث استوحى أجواء ألف ليلة وليلة، وحيث كان الملك يأتى متخفيا إلى القصر للقاء محظياته اللاتى كان يجلبهن «أنطوان بوللى» من شتى أرجاء المعمورة، كانت مهمة اللجنة والتى أعلن عنها رسميا، هى توعية المواطنين بكيفية التصرف واتخاذ القرارات أثناء الغارات فى زمن الحرب، فدشنت وجودها بعدة قرارات سريعة ومتلاحقة: على كل المنازل، والمدارس والمصالح الحكومية طلاء زجاج النوافذ والأبواب الزجاجية بالزهرة الزرقاء، وإطفاء الأنوار ليلاً، وبناء سواتر من الطوب أمام مداخل البيوت والعمارات والمنشآت الحيوية، وتم تركيب صفارتين عملاقتين للإنذر المبكر فوق أعلى عمارتين فى شارع همفرس لتنطلقا معًا فى وقت واحد عند بدء الغارات، فيهرع الناس إلى الخنادق التى تم بناؤها فى منتصف شارع همفرس بالقرب من الجنينة والقصر، بنيت على هيئة متاهة هائلة حفرت فى الأرض وشيدت جدرانها

t.me/qurssan

بالطوب الأحمر، كانت مثل ثعبان عملاق له بدايات عدة، لكن بلا نهايات محددة، استخدمها الناس فيما بعد، فى زمن السلم، كمراحيض عمومية، وقد ظلت لفترة طويلة أثرا لا يمس، وشاهدًا على حرب لم يخضها أحد.

الحرب دمرت كل شىء كانت نكسة بمعنى الكلمة، ففى أقل من أربع وعشرين ساعة، كانت العريش قد ضاعت. قال عبدالهادى أبو ماضى للجمع الذى التف حوله منصتًا، بينما اتكأ بكوعه على مسند فوق الفرن فى المندرة الكبيرة فاردًا ساقيه المتورمتين أمامه وقد امتلأتا بالقروح المدماة، كانت المندرة التى هجرت منذ زمن أبو ماضى، الجد الأكبر، وزوجته، الأم الكبيرة «الخضرة» والتى سكنتها الخفافيش وكائنات الليل غير المرئية زمنا، قد أعيد ترميمها وتجهيزها كى تصلح سكنًا للبطل المهزوم العائد من العدم، بعد أن أعلن رسميًا اعتباره مفقودًا ويعامل معاملة شهداء الحرب، وتم صرف كل مستحقاته لزوجته وأولاده الذين منحتهم قرية «كوم الضبع» أعلى وسام يمنح لأفراد فانين: لقب أسرة شهيد.. هذا الامتياز الذى جعل أسرته وأقرباءه حتى الدرجة العاشرة يتمتعون به مدة ثلاثة أشهر وأربعة أيام وست ساعات هى زمن غياب عبد الهادى أبو ماضى وحتى لحظة رجوعه إلى قريته وعشيرته ماشيًا على قدمين حافيتين ومتورمتين ولا يستر جسده الفارع سوى سروال قصير بدا مهترئًا فى مواضع كثيرة، وفانلة كانت فى الأصل بيضاء استحالت مع غبار طريق هزيمته الذى بدا بلا نهاية، إلى الرمادى الغامق.

عاد عبدالهادى فى أحد الصباحات الباكرة من شهر سبتمبر الحزين، بينما كانت أسطورة نضاله المعجز ضد أعداء الوطن قد سبقته بوقت كاف كى تنتشر فى القرى والنجوع والشعاب والهضاب المجاورة لكوم الضبع مثل دوامات من الحنين لأزمنة غابرة، حيث كان الفرسان والأبطال أكثر من أن تستوعبهم السير والملاحم والقصص الشعبى أو حتى شعراء الرباب، كانت

t.me/qurssan

سيرته على وشك أن تصبح ملحمة وطنية تتناقلها الأجيال الجديدة والتى لم تدرك زمن الملاحم إلا فى بطون الكتب أو ما تسمعه فى الإذاعة، لولا ظهوره المباغت كسمندل خرج لتوه من محرقته الخاصة.

كانت ثلاثة شهور وأربعة أيام وست ساعات كافية تمامًا لوضع اللبنة الأولى لسيرة شعبية يتغنى بها شعراء الرباب تتحدث عن البطل المقهور عبدْ الهادى وصاحبه جمل المحامل، وتغريبته فى أرض مصر الواسعة وسياحته فى صحراء لا زرع بها ولا ماء. ورؤيته لأعداء الوطن وهم يتسللون ليلاً لاحتلال العريش، تقول السيرة الشفاهية والتى لم يقدر لها أبدا أن تدون: إنه كان وحيدًا ومتوحدًا وهو يحتضن سلاحه الميرى، بينما عيناه ـ عينا صقر برى ـ ترصدان فى وعى كامل ما كان يدور حوله، وأنه حين دعاه الوطن للجهاد تحول فجأة إلى جيش كامل العدة والعتاد خائضًا حربًا ضروسًا ضد كل أسلحة العدو من دبابات وطائرات ومشاة راجلة وراكبة ومدرعات وصواريخ أرض جو ومضادات للطائرات وأخرى للدبابات والعربات المصفحة والمجنزرة، منزلاً بأعدائه أشد ضربات القدر سخطًا، أرضًا وبحرًا وجوًا حتى آخر قطرة من دمه، وحتى تعنى الأعداء أن يترك ما تبقى منهم ـ وتوبة والنبى ياعم ـ هكذا تقول السيرة، وفى الختام يقول قصيدته التى لم يقدر لها الذيوع والانتشار بسبب عودته، تلك القصيدة التى قالها وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ماسكًا بقبضته حفنة من تراب الوطن. بينما عيناه ترنوان إلى آخر مشهد دنيوى، جيش العدو وقد أصبح أثرًا على الرمال، يقول مطلعها:

أنا عبدالهادى

قاهر الأعادى

أنا عبدالهادى

هل من منادى

t.me/qurssan

كان عبدالهادى صغيرًا لما أعلن عصيانه على مهنة أبيه فرفض أن يعمل قصابًا، تلك المهنة التى تناقلت طقوسها السرية عشرة أجيال تنتهى إلى أبى ماضى الكبير، جاء من الجزيرة العربية وحط رحاله فى أرض كوم الضبع على فرع نيل صغير. كانت تحته امرأة حضرمية تدعى ست أبوها أنجبت عشرة بطون، وكان البطن العاشر لولد يدعى أبو ماضى تيمنا بالجد الأكبر، احترف الجزارة وأورثها لأولاده فصارت مهنتهم حتى قيام الساعة، إلا أن عبدالهادى وسوس له شيطانه فى ساعة شؤم بالعصيان متهما أباه بامتلاك قلب بلا رحمة، وأن ضحاياه من السوائم سوف يطالبون بدمائهم فى يوم ما. هذا الدم المسفوك كل صباح على عتبة دارك بعد أن تزف ضحاياك وتفرج عليهم أمة ما خلق، وتغنى بينما الأطفال يرددون وراءك: منده بكره.. بقرشين عند الحاج ماضى.. بقرشين.

فما كان من أبيه إلا أن طرده من جنة كوم الضبع إلى جحيم مصر أم الدنيا، خرج عبدالهادى فى صباح يوم شتوى غائم ليس له نظير فى كل صباحاته إلا يوم رجوعه، خرج بهدومه التى يرتديها وظل عدة أيام متسكعًا فى حوارى ودروب مصر، ينام على أبواب الجوامع ويقتات من المزابل، فلما أمضه الجوع ذهب وتطوع فى قوات حرس الحدود، فامتلأ بطنه بالطعام الميرى، وارتدى الزى الرسمى لقوات حرس الوطن فاكتسب هيبة واحترام الجميع، خاصة أبناء جيله من فلاحى الأرض، كان يتغيب شهورًا عن منزل العائلة الذى عاد إليه عودة المنتصر، ليجوب الآفاق وواصلا حدود الوطن الشرقية بالغربية والشمالية بالجنوبية بخطوط وهمية فى خريطة خاصة به وحده، خائضًا معاركه المتخيلة ضد أعداء الأمة من لصوص وقطاع طرق وجواسيس وخونة وتجار مخدرات ،وأشباح لم يرها غيره، كان هو حائط الصد الأول والأخير، وسلاح الردع الوحيد الذى لا يصد ولا يرد،

t.me/qurssan

والفارس الذى لا يشق له غبار حين يمتطى سنام جمله الميرى غامزًا إياه بمهمازه فينطلق مبرطعا فى فلوات ومفازات وكثبان رملية وصحارى هى فى الأصل مكامن للجن والعفاريت.

عند عودته إلى كوم الضبع، يجلس على المصطبة أمام المندرة الكبيرة مرتديا بذلته الميرى ـ بذلة عياقته ـ مزهوا ومتكئًا على مسند وحيد متأملا فى الوجوه المحيطة به وسارحًا ببصره فى اللاشىء، حتى يكون الجمع قد تهيأ للإنصات، لحظتها، يبدأ فى رواية أساطيره التى لا تنتهى قبل سماع صياح الديكة، فيتسللون واحدًا وراء الآخر فلا يبقى غيره والريح.

قبل عشر سنوات من رجوعه المهزوم، استقر عبدالهادى فى العريش هو وأسرته المكونة من زوجته قرنفلة وخمس بنات وثلاثة ذكور كان أكبرهم عبيطًا، امتلك عبدالهادى بيتًا بدورين يطل على البحر مباشرة، عند آخر نقطة هى آخر حدود مصر، وفى أوقات الفراغ، تعلم الصيد على أيدى الصيادين حيث كانوا يتقربون إليه بإعطائه نصيبه هو وأسرته من السمك الذى سمح لهم باصطياده من أمام منزله، هو لم يطلب منهم شيئًا، لكنه أفهمهم بطريقة غير مباشرة أن وجودهم فى المنطقة يتوقف على منحه نصيبًا مما يصطادونه من سمك طازج، وفى أوقات فراغه من الخدمة تسلية نفسه بالصيد فاقتنى من أحدهم عدة صيد كاملة: مكنة بست بوصات تطوى فى بعضها البعض فلا تتجاوز نصف المتر بينما طولها الحقيقى يزيد على ستة أمتار، وبكرة كبيرة من الخيط النايلون، وخطاف وشبكة صغيرة ذات مقبض لإمساك السمك العالق بالصنارة، تعلم عبد الهادى أن لكل نوع من أنواع السمك طعمه الخاص الذى يصاد به، ولكل نوع سمك وقته الذى يصاد فيه، لكنه أبدًا لم يفلح طوال سنواته العشر التى قضاها أمام بيته على البحر فى اصطياد سمكة واحدة كان يحلم باصطيادها، سمكة حلمه والتى كانت تأتى إليه كلما وضع رأسه على

t.me/qurssan

وسادة نومه: عملاقة تزن مائة كيلو جرام وذات وجه جميل وطيب لا يشبه السمك، كان يحملها فوق رأسه بذراعيه المرفوعتين عاليًا كل يوم معلنًا انتصاره وفوزه بسمكة عمره أمام الكاميرات التى تسجل لحظة تحقق معجزته مع سمكته الأسطورية.

على أن حلم حياته تحقق فيما يشبه المعجزة الحقيقية، ففى أحد الأيام اصطاد بعضهم حوتًا عملاقًا يشبه حوت حلمه المتكرر، كان يجلس فى البيت وقتها، وخرج على أصوات الرجال يهللون غير مصدقين، ووجد منظرًا لن ينساه طوال حياته، حلمه الأسطورى ممددًا فوق رمال الشاطئ، ونظر إلى الحوت فوجد له مهابة وجلالاً لا يحتملان فكاد ينخلع فؤاده، وسمع دقات قلبه تصم أذنيه. كانت السمكة التى يصل طولها إلى أكثر من مائة متر نائمة على ظهرها، وبطنها الأبيض الشاهق انعكست عليه أشعة شمس يولية فتلألأ بألوان قوس قزح.

t.me/qurssan

بدون عنوان (*)

الحرب كانت قائمة.

وجاءنى سعيد فرجانى صاحبى وقال لى: هل سمعت بما حدث يا جيمى.

قلت: لا لم أسمع بما حدث يا سعيد. فابتسم بسمة رضاء عن نفسه لإحساسه بأنه عليم ببواطن الأمور، وأردت أن أفوت عليه هذه الفرصة فقلت: أقولك، لا أريد أن أعرف. فاغتاظ ونظر إلىّ بغيظ وقال: أنت حر. وهز كتفيه: اصلك لو عرفت لن تصدق. قلت: ولا يهمنى. ويبدو أن سعيداً شعر بنيتى فى تجاهله فقال لى: لن أقول لك، وأخذ يحدث نفسه وقد تجاهلنى تمامًا: أنا شخصيًا لم أصدق حين سمعت الخبر، ولكن رأيت بعينى فصدقت ولم تسعنى الدنيا من الفرحة. ولأن سعيداً كان لابد له أن يقول لى، ولأنى كنت أريد معرفة ماحدث بأية طريقة. فقد قلت أستفزه: إيه يعنى، القيامة قامت. المسألة ببساطة، عملوا سينما فى بولاق. قال ونظر إلىّ وهو يعلم أنى حين أسمع منه هذا الكلام أنط من الفرحة، لكنى لم أفعل، وإمعانًا فى غيظه قلت: ناقص تقول لى نقلوا سينما سمارة وسينما مرمر فى بولاق أنت عبيط ياوله.

(*) نشر الراحل خيرى عبدالجواد هذه القصة تحت رقم (٩) ضمن كتابه «الجنى» الذى تضمن مختارات من أعماله القصصية السابق إصدارها، وقد آثرنا استبعاد الكتاب حتى لا نعيد تكرارها فيما عدا هذه القصة، فقد كانت الوحيدة التى لم يسبق نشرها. (المحرر)

t.me/qurssan

ولم يكن سعيد هو العبيط، فقد رأينا بولاق الدكرور كلها تلتم فى المساء فى فناء مدرسة جمال عبد الناصر، وعلى حائط المبنى الأبيض شاهدنا فيلم فلسطين الثائر بطولة غسان مطر، وما أن انتهى الفيلم حتى خرجنا من المدرسة نهتف خللى السلاح صاحى.. صاحى.. لو نامت الدنيا صحيت مع سلاحى. وعرفنا أن السينما سوف تجىء إلينا يوم الخميس من كل أسبوع.

وجاءنى سعيد وقال لى: تشاركنى يا جيمى.

فقلت له: أشاركك فى ماذا يا صاحبى.

رد سعيد والتمعت عيناه: مثلما رأيت اليوم، بولاق الدكرور كلها كانت تتفرج على السينما، وأنا وأنت فى أجازة من المدرسة، يعنى لا شغله ولا مشغلة، وقعدة الفرجة تحتاج إلى شىء تتسلى به الناس، يعنى لو اشترينا «لب» وعبأناه فى قراطيس ووزعناه على الناس وهى تتفرج فسوف نكسب كثيرًا كان سعيد صاحبى من النوع الحرك، وكان يعرف من أين يأتى بالنقود. ولكنى أبديت له مخاوفى، وأننا قد نشترى اللب ونقرطسه، وفى النهاية يقع فى أرابيزنا ونخسر الجلد والسقط. هز سعيد رأسه وخبط على صدره بكف يده وقال: طاوعنى ولن تخسر، على ضمانتى.

اشترينا كيلو لب سورى قبل موعد السينما بيومين، وجمعنا كراسات الواجب وأخذنا فى تقطيعها وعمل قراطيس متساوية عبأناها باللب ورصصناه فى صندوقين كبيرين، وقسمنا العمل بيننا بالتساوى، أنا أوزع صندوقًا وهو يوزع الآخر، وفى النهاية نجمع الغلة كما يقول سعيد ونقسمها بالتساوى ويا دار ما دخلك شر، ولأن سعيد ابن سوق ومتودك فقد أمطرنى بنصائحه الغالية، مرّ يا جيمى بين صفوف الناس وهى قاعدة وارمى قرطاس اللب فى حجر كل واحد ولا تأخذ منه شيئًا حتى

t.me/qurssan

تنتهى من توزيع القراطيس كلها، ساعتها، ترجع تلم الفلوس وأنت مطمئن، لأنهم سوف يفتحون القراطيس دون أن ينتبهوا وهم يتفرجون.

وجاء يوم الخميس الذى كنا ننتظره أنا وشريكى، كنت قد خبأت صندوق اللب فوق السطوح حتى لا يراه أحد فيفضحنى، وفى الصباح، فتحنا عيوننا على نبأ استشهاد الفريق عبد المنعم رياض على الجبهة، كان بين جنوده يتفقد أحوالهم حين فاجأه ملك الموت، وانقلبت بولاق الدكرور كلها عياط على الشهيد، وظهرت صوره فى أيدى الباعة بملابسه الرسمية، كانت الصورة الصغيرة تباع بتعريفة، أما الكبيرة فبقرش، فاجأنا إحساس باليأس أنا وسعيد، فلو ألغيت السينما فى المساء حدادًا على روح الفقيد فسوف تبور تجارتنا ونجلس نحن نقزقز اللب الذى طفحنا الدم فى جمع فلوسه وشرائه.

ربنا يستر. قال سعيد، وجلسنا ننتظر حلول المساء ونرقب ما سوف يحدث، وبين فترة وأخرى نحوم حول المدرسة التى سوف تقام فيها السينما نستطلع الأخبار، كان كل شىء يبدو هادئًا ولم ترد أنباء عن إلغاء سينما يوم الخميس، كذلك لم ترد أنباء بتأكيد إقامة السينما. أخذ النهار يختفى ببطء شديد، بينما أنا وصاحبى جالسان نضع أيدينا على خدودنا وأمامنا صندوقان ملآنان بقراطيس اللب لا ندرى ماذا نفعل بهما، قال سعيد: على فكرة، ممكن نسرح به فى الشوارع أو فى الجنينة.

هززت كتفى ولم أوافق على فكرته واقترحت عليه أن يشترى نصيبى بأى ثمن يريده هو فلم يوافق أيضًا، وبينما نحن جالسان هكذا ندب حظنا ولا نعرف كيف نخرج من ورطتنا، إذا بالميكرفون يذيع النبأ. بعد دقائق، ستبدأ سينما مدرسة جمال عبد الناصر عرض فيلم ٣٦ ساعة فى الجحيم. اتنترنا واقفين، ومن الفرحة احتضنا بعضنا غير مصدقين أن المعجزة حدثت. حمل سعيد الصندوقين حتى ناصية الشارع حتى لا ترانى

t.me/qurssan

أمى أو أبى وأنا أحمل صندوقى، ثم تسلمته منه واتجهنا راسًا إلى المدرسة. كان الزحام شديدًا على باب المدرسة فانتظرنا حتى دخل آخر واحد ودخلنا، كان الجميع يجلسون فى فناء المدرسة على الأرض الرملية، وكانت آلة السينما موضوعة على ترابيزة عالية وسط الناس، وأمامها، يقع الحائط الذى يستخدم شاشة للعرض، انطفأت الأضواء فجأة وظهرت حزمة الضوء القوية على الحائط فافترشته، ثم إنها أخذت تميل وترتفع وتنخفض حتى استقرت، ثم بدأ البكر يدور، رأينا فرقة رضا ترقص وتغنى فدادين خمسة، خمس فدادين، لحظتها صفر سعيد بفمه وكانت تلك العلامة المتفق عليها لنبدأ عملنا، أخذنا الصفوف من أولها، أنا من ناحية، وهو من ناحية، بدأت أخرج القراطيس من الصندوق الذى أحتضنه بذراعى وأرمى بها على الزبائن، وما كدت أنتهى حتى بدأ عرض فيلم عن ڤيتنام فأخذت أنظر إلى المرأة التى تضع طفلها على كتفها، وبيدها الأخرى تحمل بندقية تصوبها إلى طائرة تحوم فوق راسها.

صفق الجمهور للمرأة التى اصطادت طائرة بيد واحدة.

كان سعيد يقف فى الجهة المقابلة ممسكًا بالصندوق الفارغ بعد أن وزّع كل ما كان معه من لب، وكنت أنتظر خطوته التالية لأعمل مثلما يعمل، ولابد أنه كان يرقبنى هو أيضًا، فقد وقف ساكنًا، وبدا مستغرقًا فى الفيلم الأجنبى الذى بدأ لتوه، وكانت هذه خطته كما سوف أعلم بعد ذلك، فقد أطمأننت إلى أن الأمور تسير على ما يرام فبدأت أتفرج أنا أيضًا وبدا الفيلم يشدنى حتى إننى نسيت نفسى وكل من حولى، ولم أنتبه إلا والنور يضاء بعد انتهاء الفيلم والناس يخرجون، وقفت لا أعرف ماذا أفعل، بحثت عن سعيد فرأيته يحاسب أحدهم، ثم إنه نظر من وراء كتفه فلمحنى أنظر إليه، أشار لى أخذ يضحك وقال لى بالصوت العالى: شربتها يا حلو. ثم وضع يده على جيبه واختفى من أمامى.

* * *

t.me/qurssan

خيرى عبدالجواد - الأعمال الكاملة

المجلد الأول - الأعمال القصصية

■ تقديم ——— ٩

■ حكايات الديب رماح ——— ١١

الإهداء ——— ١٣

مفتتح ——— ١٤

السحلية ——— ١٥

الحاوى ——— ١٨

الكائن الليلى ——— ٢٢

عن الدود والشرانق والموت ——— ٢٧

المواجهة ——— ٣٣

النحلة ——— ٣٦

حكايات البنت زقلط ——— ٤٢

الدفانة ——— ٤٨

الحجاب ——— ٥٢

الوطواط ——— ٥٥

ظل الحبيب ——— ٥٩

الديب رماح ——— ٦٦

حكاية المرأة التى ولدت تحت الجمل ——— ٧١

t.me/qurssan

لما أتانا الموت ـــــــــــ ٧٧
ثلاثية موت أمى ـــــــــــ ٨٣
القصة الأولى ـــــــــــ ٨٤
القصة الثانية ـــــــــــ ٨٩
القصة الثالثة ـــــــــــ ٩٩
■ حرب اطاليا ـــــــــــ ١٠٣
الإهداء ـــــــــــ ١٠٥
مفتتح ـــــــــــ ١٠٦
أول ما نبدى القول «ممر إلى جبل الحكايات» ـــــــــــ ١٠٧
حرب أطاليا ـــــــــــ ١١٥
على جميرى ـــــــــــ ١٢٣
عرق الكلية ـــــــــــ ١٣١
بحثا عن عمى ـــــــــــ ١٣٦
ما زالوا فى الجزيرة يقصون نبأ الصوت الآتى من أعماق البحر ـــــــــــ ١٤٤
الراس ـــــــــــ ١٥٠
الرجل الذى اكتشف انه يموت ثم يصحو ـــــــــــ ١٥٣
■ كتاب الفتوح الكبرى
المعروف بحرب بلاد نمنم ـــــــــــ ١٦١
الإهداء ـــــــــــ ١٦٣
بلاد نمنم ـــــــــــ ١٦٥
جينيتر ـــــــــــ ١٦٨
سر أبى ـــــــــــ ١٧٤
غرغرينا ـــــــــــ ١٧٦
التحويطة ـــــــــــ ١٧٩

t.me/qurssan

الحبل ـــــــــــــــ ١٨٣
امرأة ـــــــــــــــ ١٨٧
النضارة ـــــــــــــــ ١٩٥
الجنى ـــــــــــــــ ١٩٧
■ قرن غزال ـــــــــــــــ ٢٠١
العشة ـــــــــــــــ ٢٠٣
عفريت سيد دعبس ـــــــــــــــ ٢١٢
المخطوط ـــــــــــــــ ٢٢٢
تمارين على الكتابة ـــــــــــــــ ٢٢٨
■ حارة على ابو حمد ـــــــــــــــ ٢٣٥
فى مديح الجدة ـــــــــــــــ ٢٣٧
الشيخ البعيد ـــــــــــــــ ٢٤٢
ليلة المولد ـــــــــــــــ ٢٥٠
عضة كلب ـــــــــــــــ ٢٥٥
المؤذن ـــــــــــــــ ٢٥٩
الملهم ـــــــــــــــ ٢٦٧
أمينة مرشد ـــــــــــــــ ٢٧٦
حارة على أبو حمد ـــــــــــــــ ٢٨٣
استراحة ـــــــــــــــ ٢٨٨
محارب الظل ـــــــــــــــ ٢٩٤
بدون عنوان ـــــــــــــــ ٣٠٠

t.me/qurssan

لقد بدأت الكتابة فى فترة مبكرة من حياتى كان ذلك فى بداية السبعينيات من القرن الماضى وكان عمرى وقتها عشر سنوات، فقد ولدت فى ١٩٦٠/٧/٢٤. كانت حكايات الديب رماح هى حجر الزاوية فى كل ما سوف اكتبه بعد ذلك وكانت ألف ليلة وليلة والسير الشعبية وحكايات الجان وكتب السحر وأهازيج الأطفال وكتب الأخبار والرحالة العرب والأساطير سواء كانت شفهية أم كتابية وتراث المحكى العربى على اتساعه وامتداده هى مجال تجوالى فيما بعد بحثاً عن أشكال عربية للقصة والرواية.

والآن لا أريد الإطالة لكنى فقط أردت استجلاء بعض الخطوط العريضة، والتى تحركت من خلالها عبر عملى خلال ربع قرن. فى محاولة لكتابة جادة لا تقلد كتابة أخرى لكنها كتابة مسكونة بما ومن سبقها.

خيري عبد الجواد

٢٥ جنيهًا

Design: Mai Abdel Qader

t.me/qurssan